

الثورة الفرنسية

آخر كتاب للدكتور لويس عوض



إلى مؤسسة المصطفى بن عبد الله للكتاب

١٩٩٢

قصدير

بالرغم من اشتداد وطأة المرض على شقيقى المرحوم الدكتور
لويس عوض فانه تشبث بالقلم حتى النزع الأخير بعزم صادق.
وارادة من حديد . ولا غرو فالقلم كان كل حياته وليس بعضا منها .
والأمر الذى يوجب القلب أن القلم الذى ظل راسخا وشامخا كالطود
طيلة عمره بدأ يهتز فى مقالاتيه الأخيرتين عن دانتون وروبسبير .
ويكفى لويس عوض شرفا وفخرا أن أوراق عمره ذبلت ثم تساقطت
ولكن قلمه لم يسقط من يده أبدا بل امتشقه دوما على نحو ما يمتشق
الفارس حسامه . . وأنه استقبل الموت صامتا دون وجل ثابت الجنان
رابط الجأش مثل دانتون الذى قال فى ختام مقاله عنه : « ان الحياة
أصبحت عبثا على ، وأنا أستقبل الموت بصبر نافذ » . فضلا عن أن
آخر ما كتبه قبل أن يصمت الى الأبد (وهى تلك الكلمات التى اختتم
بها مقاله عن روبسبير) ليست سوى دفاع نبيل ومجيد عن ضرورة
سيادة القانون ودعوة رجل يحتضر الأحياء من بعده الى
الاعتصام به .

عاش لويس عوض ثائرا ومات ثائرا فمئذ نحو خمسين عاما
ترجم « برومثيوس طليقا » للشاعر شيلي سيد الثوار جميعا .
وها هو قبل رحيله مباشرة يولى اهتمامه بالثورة الفرنسية التي
ألهمت شيلي وكافة الرومانسيين بأفكارهم الثورية . فما أشبه
الليلة بالبارحة !

لقد حاولت قدر جهدى عن طريق الحذف والاضافة فى أضيق
الحدود أن أغير بعض الكلمات الواردة فى مقالتيه الأخيرتين عن
دانتون وروبسبير حتى تبدو صياغتهما متماسكة كما عودنا على ذلك
الراحل العظيم . فاذا كانت محاولتى ضلت الطريق أو أنها
لم تؤت ثمارها المرجوة فيجب على أن أتحمل المسئولية كاملة .

وختاما لابد لى أن أعترف أن الفضل فى تجميع هذه المقالات
يعود الى ابن عمنا المهندس فوزى حبشى الذى يكن للفقيد كل
اعجاب وتقدير ، وانى أشكر الزميلة الدكتورة الين ابراهيم جرجس
لمراجعها الأسماء الأجنبية الواردة فى هذا الكتاب .

رمسيس عوض

١٩٩١/٥/٤

١ - سقوط الباستيل

احتفل الفرنسيون هذا العام « ١٩٨٩ » بمرور مائتي سنة على الثورة الفرنسية « ١٧٨٩ » باحتفالات رسمية ومهرجانات شعبية بلغت قمتها في ١٤ يوليو ، وهو تجديد ذكرى سقوط الباستيل . و ١٤ يوليو قد أصبح منذ أكثر من قرن عيد فرنسا الوطني أو القومي ، ففيه يرقص الفرنسيون مساء في الشوارع والميادين العامة حتى الثالثة صباحا أما الدولة فتجري في باريس استعراضاتها العسكرية سنويا بطول الشانزيلزيه حتى قوس النصر في ميدان الايتوال « شارل ديغول » حيث الشعلة الدائمة على قبر الجندي المجهول .

ومنذ ان عرفت باريس في ١٩٣٧ شاركت ملايين المتفرجين عدة مرات في هذه الاحتفالات ، وفي الليل رقصت في الشوارع

● نشرت بجريدة الأهرام

بتاريخ ١٥/٧/١٩٨٩ .

مع الشباب من أبناء جيلى على « الفالس موزيت » المنبعث من آلاف
الاكورد يونات فى ميادين باريس وقهاويها . وكانت اخر مرة أشارك
فيها فى هذا الفرع العام فى ١٤ يوليو ١٩٤٧ ، وهو عام زواجى
فى سن الثانية والثلاثين وكانما خرجت فجأة من سن الشباب الى
سن الرجولة والوقار ! . .

ومع ذلك فقد كنت أحس كلما زرت باريس فى الصيف ان
أفراح ١٤ يوليو كانت تجرى أحيانا فى جو من الكابة والانقباض
بين المواطنين الفرنسيين الذين يحملون دائما عواطفهم على وجوههم ،
بحسب همومهم الاقتصادية والسياسية ، وكأنها ترمومتر حقيقى
لحالة الشعب الفرنسى ، وكانت تجرى أحيانا فى جو من النشوة
والانتصار .

وكنت قبل ثورة ٢٣ يوليو اقرأ سنويا فى الصحف المصرية
عن مشاركة الجاليات الأجنبية فى احتفالات ١٤ يوليو باقامة
الحفلات الراقصة فى نواديهم فى القاهرة والاسكندرية ومنطقة
القنال ، كنوادي الجريج والشوام والأرمن واليهود . وكانت تبدو لى
ابتهاجات مزيفة وغير مفهومة ، فقد كنت أجيد صعوبة فى فهم
ابتهاج اللبناني أو السوري بعيد الحرية فى فرنسا أيام استعمار
فرنسا للبنان وسوريا .

وعلى الجملة فقد كان المصريون قبل الثورة الناصرية يعدون
الأجانب المحليين ، وكانوا نحو ثلاثة أرباع المليون ، من ركائز
الاستعمار الأوروبى فى مصر لأنهم كانوا قابضين على الاقتصاد
المصرى بيد من حديد . ومنذ ثورة ١٩٥٢ وهجرة الأجانب المحليين
الى بلادهم أو الى بلاد الغير انقرضت فى مصر احتفالات ١٤ يوليو
« الشعبية » ولم يبق لها أثر الا فى الاحتفال الرسمى الذى تقيمه
السفارة الفرنسية بالقاهرة سنويا .

وكلما ذكرت الثورة الفرنسية ذكر زوال ذلك الرمز الباقي
فى خيال الأجيال وهو الباستيل ، فسقوط سجن الباستيل أو قلعة
الباستيل فى أيدي ثوار الثورة الفرنسية كان أهم علامة مميزة
لافتصار الثوار وكان البداية الحقيقية لسقوط المجتمع الاقطاعى فى
فرنسا . كذلك ذكرت شعارات الثورة الفرنسية الثلاثة . وهى
الحرية والمساواة والاخاء ، وذكر معا اعلان حقوق الانسان الذى تبلورت
فيه فلسفة الطبقات الاجتماعية الجديدة ، المتوسطة والمتوسطة
الصغيرة والشعبية التى اغتصبت السلطة من أيدي الملكية المطلقة
والطبقة الارستقراطية ورجال الدين ووضعت الحق الطبيعى أساسا
للعقد الاجتماعى بدلا من الحق الالهى .

كذلك ذكرت أسماء عشرات من عمالقة الثوار فى التاريخ مثل
دانتون وروبسبير ومارا وسان جوست وهيبير وديمولان
وكوندورسييه وأندريه شنييه ومدام رولان وبابيف كلهم ماتوا على
المقصلة فى أقل من خمس سنوات ، وذكر معهم عشرات من جهابذة
الخطابة والسياسة حافظ أكثرهم على أعناقهم رغم انهم كانوا فى
مقدمة الثوار حتى انجلى الاعصار فماتوا على فراشهم ، مثل ميرابو
وسيز وتاليران وفوشيه .

وأهم من كل هؤلاء ذكر نابوليون بوناپرت صاحب الغزوات
الكاسحة والعسكرية العسكرية الفذة التى لم يعرف لها العالم نظيرا
منذ تحتمس الثالث ورمسيس الثانى والاسكندر الأكبر ويوليوس
قيصر . فهو الذى صدر الثورة الفرنسية الى العالم بعد ان أنقذها
فى فرنسا من الحكام الفاسدين بمثل ما أنقذها الحكام الفاسدون
من الحكام المجانين . وجد نابوليون بوناپرت أبناء الثورة الفرنسية
يأكل بعضهم بعضا ، فوجه هذه الطاقة البركانية الى الخارج ليأكل
الفرنسيون غيرهم من الأمم . فى البداية فعزل هذا تحت رايات
الثورة فلما استتب له الأمر فعل ذلك تحت رايات فرنسا .

وأهم من هذا وذاك انه كلما ذكرت الثورة الفرنسية ذكر
الناس كيف دخل الشارع الفرنسى طرفا ايجابيا فى تقرير مصيره
لأول مرة فى تاريخه . ومنذ ذلك التاريخ انتقلت العدوى الى كل
ثورات العالم القديم والجديد . ومن يتأمل اليوم اعلام الدول يجد
أكثرها مثلث الألوان على غرار « التريكلور » الفرنسى : الأزرق
والأبيض والأحمر ، رمزا لشعارات الحرية والمساواة والاخاء ، كل
شعب يترجمها الى ألوانه الخاصة بتاريخه ، أو بمفهومه الخاص
لفلسفة الحياة . ولم يكن الشارع الفرنسى يطالب بالخبز وحده
ولكنه كان يطالب أيضا بحقوق الانسان .



وربما كانت أفضل بداية للكلام عن الثورة الفرنسية هي
الكلام عن الباستيل وسقوط الباستيل .

ومنذ سنوات وهناك عشرات الكتب وعشرات البحوث التى
تصدر عن الباستيل ، وأكثرها تقول نفس الأشياء ، ولكن بلهجات
مختلفة ، تبين موقف المؤرخين من الثورة الفرنسية نفسها .

وقد كان آخر كتاب قرأته عن « الباستيل » بقلم كلود كيتيل
Claude Quétel رئيس الجمعية التاريخية الدولية ، وهو ينطوى
على استهانة واضحة بسقوط الباستيل وإحياء بأن الأسطورة فيه
أكثر من الحقيقة . فهو مثلا يجسم دور الباستيل كمعتقل لمجرمى
القانون العام بما يهون من دوره كمعتقل للخوارج السياسيين .
وهو يمعن فى تذكيرنا بأن الآلاف المؤلفة من الجماهير التى استولت
على الباستيل لم تجد فيه الا سبعة أشخاص نصفهم من المجانين .
وواضح من كل هذه البحوث انها منحازة ضد الثورة الفرنسية
متعاطفة مع الارستقراطية الزائلة . وهناك اتجاه واضح بين أبناء
البورجوازية العليا فى فرنسا وبعض شرائح المثقفين المحافظين فيها

الى اداة الثورة الفرنسية جملة بدعوى غزارة ماسفكت من دماء
وبدعوى كثيرة أخرى .

وقد كان فى فرنسا أيام شبابى حزب ملكى كاريكاتورى كان
يرأسه الكونت دى باريس ، وهو طبعا كونت مزعوم ، لان فرنسا
ألغيت فيها الألقاب منذ الثورة الفرنسية . ولكن رغم كل هذه
التحفظات اليمينية فالفرنسيون ، حكومة وشعبا ، لا يزالون فى
مجموعهم يعجبون الثورة الفرنسية كل بحسب الجناح الذى ينتمى
اليه . وقد لاحظت فى العقود الأخيرة اتجاها الى اكتشاف روبسبير ،
« بعبع » الثورة الفرنسية ومعه سان جوست ، « كبير ملائكة الموت »
كما سماه المؤرخ العظيم ميشليه . أما نابوليون ذو الحروب الكثيرة ،
فقد كنت دائما أقرا فى كتب الماركسيين انه « صفى » الثورة
الفرنسية منذ انقلاب ١٨ برومير واستيلائه على السلطة فى فرنسا .

وقد قرأت للرئيس ميتران مؤخرا بيانا عن حقوق الانسان
يقول فيه انه يتمنى ان يأتى اليوم الذى تتحطم فيه كل بساتين
العالم كما قال ميشليه . ان التقدميين الفرنسيين لا يزالون قادرين
على الحلم الكبير .



كتب ميشليه فى كتابه العظيم « الثورة الفرنسية » يقول :
« فى ١٣ يوليو لم تكن باريس تحلم الا بالدفاع عن نفسها . وفى
١٤ يوليو انتقلت من الدفاع الى الهجوم . »

« فى مساء ١٣ يوليو كانت سماءها لا تزال ملبدة بالشكوك .
أما فى صباح ١٤ يوليو فلم تعد لديها شكوك . فى المساء كان هناك
اضطراب وهياج غير محدد الاتجاه . أما فى الصباح فكان يشع فيه
صفاء رهيب . »

« مع الصباح استولت على باريس فكرة ، ورأى الجميع نفس الضياء : فى كل نفس ضياء وفى كل قلب صوت يقول : قم ، وسوف تستولى على الباستيل !

« كان ذلك شيئاً مستحيلاً ، شيئاً جنونياً شيئاً غريباً ان يقال . . ومع ذلك فقد آمن به كل الناس . وقد تحقق » . .

« كانت الساعة الخامسة والنصف ، وارتفعت صيحة من ميدان الجريف Greve « الساحل » . ضجة كبرى تصاعدت : بدأت أولاً بعيدة ، ثم ارتفعت واقتربت بسرعة ، بقعقة العاصفة . صيحة مدوية تقول : الباستيل سقط !!

« وفى تلك القاعة ، قاعة الهوتيل دى فيل Hôtel De Ville حيث دار نقيب التجار (التى أصبحت دار بلدية باريس وفيها مكتب جاك شيراك عمدة باريس الآن ل . ع) دخل فجأة ألف رجل ، يتدافع وراءهم عشرة آلاف رجل . وتفسخت أخشاب الأرضية ، وانقلبت الدكك وازيح الحاجز فوق المنصة وازيحت المنصة فوق رئيس الاجتماع .

« كان كل الرجال مسلحين بأدوات غريبة ، وكان بعضهم يكاد يكون عارياً والبعض الآخر فى ثياب من كل لون . وكانوا يحملون أحد الرجال على الأعناق وقد توجهوا رأسه بالغار . وكان هذا الرجل هو جاكوب ايلي Jacob Elin (وهو صف ضابط قاد الحرس الفرنسى فى الهجوم الأخير على الباستيل ل ع) ومن حول ايلي كانت هناك الأسلاب وكان سجناء الباستيل . وفى مقدمة هذا الحشد ، وسط هذا الضجيج الذى تجاوز هزيم الرعد ، مشى شاب خاشعاً صامتاً وكأنه يصلى ، وقد حمل على سن السونكى رمزا من رموز الكفر ملعونا بالثلاثة ، وكان ذلك لائحة الباستيل .

« كذلك حملوا معهم المفاتيح ، تلك المفاتيح الفضية البشعة الغليظة التي براها استعمال القرون وبرتها آلام البشر . هذه المفاتيح شاءت الصدفة أو العناية الالهية ان تنتهى الى رجل لابد منها طويلا فهو سجين قديم . وقد ضمتها الجمعية الوطنية الى أرشيفها ، فوضعت أدوات الطغاة جنبا الى جنب مع القوانين التي حطمت الطغاة ونحن نحفظ هذه المفاتيح حتى اليوم فى الدولاب الحديدى الذى يحفظ أرشيف فرنسا . آه . ليت هذا الدولاب الحديدى يحفظ مفاتيح كل باستيل فى العالم ! » .

« الثورة الفرنسية » . الكتاب الأول ، الفصل السابع .



كان الباستيل فى الأصل قلعة أو حصنا بنى فى شرق باريس عند باب سانت انطوان Saint-Antoine على مساحة ١٤٥٥٠ مترا مربعا ، أى على مساحة ثلاثة أفدنة واحد عشر قيراطا ، بارتفاع ٣٠ مترا ، وحفر من حوله خندق تجرى فيه المياه عرضه ٢٥ مترا حتى لايجتازه المهاجمون أو ييسادون دون ذلك . وكان يستحيل الدخول اليه أو الخروج منه الا اذا دليت قنطرة خشبية بعرض الخندق كانت معلقة بسلاسل غلاظ ترفع القنطرة وتنزلها بدواليب تدار من الداخل . وكانت الحامية فيه عددها ٨٠ جنديا يحيط بهم ٣٠ من الحرس السويسرى كلهم تحت امرة قومندان القلعة دى لوني De Launay .

أما مهاجمو الباستيل فكانوا اسطوات ضاحية سانت انطوان المتاخمة للقلعة أو السجن . خارج بوابة سانت انطوان ، وكانت حى النجارين والصناعات الخشبية ، ومع هذه الجماهير فصيلتان من الحرس الفرنسى والميليشيا البورجوازية أو ميليشيا المدينة التى

كونها الثوار من أبناء الطبقات المتوسنطة • وكان مع المهاجمين
٣٢٠٠٠ بندقية و ٥ مدافع أخذوها من ثكنات الجيش فى الانفاليه
Invalides فى صباح ذلك اليوم نفسه • وحين استولت الجماهير
على الباستيل حررت منه سبعة سجناء هم :

— تافرنيه Tavernier وكان شريك داميان Damiens
فى محاولة اغتيال لويس الخامس عشر ، وكان مسجوناً منذ ١٧٥٩
أى منذ ثلاثين سنة •

— الكونت وى دى مالفيل Whyte de Malleville وكان المؤرخ
ميشليه يسميه « سيد الشموخ » •

— الكونت دى سولاج Le comte de Solages المعتقل بسبب
« جرائم بشعة » متصلة بالجنس ومضاجعة المحارم •

— ومع هؤلاء الثلاثة أربعة من النصابين المزورين •

كتب ميشليه يقول :

« يجب ان يقال ان الباستيل لم يسقط ولكنه سلم • سلم
لان ضميره المفعم بالذنوب أقلقه الى حد الجنون وجعله يفقد روحه
المعنوية •

« كان بعض من فيه يؤثرون التسليم ، أما الآخرون ، ولاسيما
الحرس السويسرى ، فقد مضوا فى اطلاق النار على الجماهير على
مدى خمس ساعات وهو آمن ، فقد كان بئامن تام من مرمى المهاجمين •
كان الحرس السويسرى يرتب ويصوب فى أتم ارتياح ، وكان يقتل
من يشاء قتله قتلوا ٨٣ رجلاً وجرحوا ٨٨ • وكان عشرون من القتلى
من فقراء الآباء الذين تركوا وراءهم نساء وأطفالاً ليموتوا جوعاً •

« وافضت هذه الحرب التي لا مجازفة فيها ، كما أفضى الاستياء من سفك الدم الفرنسي بأيدي السويسريين دون أى سبب ، الى أن الجنود الفرنسيين ألقوا السلاح . وفى الساعة الرابعة أهاب صف الضباط بالقومندان دى لوني ، بل استعطفوه ان يوقف هذه المذبحة . وكان دى لوني يدرك موقفه ، فما دام معسيره هو الموت فى كل الأحوال ، فقد بدأ له لحظة أن ينسف الحصن بنفسه . وهى فكرة همجية . فلو انه فعل ذلك لدمر ثلث باريس . فبراميل البارود التى كانت فى حوزته وعددها ١٣٥ بزميلا ، كانت كافية لنسف الباستيل فى الهواء وسحق ضاحية سانت انطوان كلها ، وكل حى الماريه Marin « المستنقع » ، وكل حى الارسينال « الترسانة » . . . وأخذ فتىلا من مدفع . فحال دون ارتكاب هذه الجريمة اثنان من صف الضباط : اعترضا طريقه بتقاطع السوولكى فاقفلا طريقه الى البارود . وهنا ادعى الرغبة فى الانتحار فأخذ سكيننا ولكنهما انتزعا منه . »

« فقد القومندان صوابه فلم يعد قادرا على اصدار الأوامر ، وحين وجه الحرس الفرنسى فى الخارج مدافعهم الى الباستيل ، ادرك كابتن الحرس السويسرى بوضوح ان المفاوضات لامناص منها . فكتب ورقة مررها للمحاصرين طلب فيها الخروج مع الاحتفاظ بشرف المحاربين ، فرفض طلبه . ثم طلب الإبقاء على حياته فوعده هولان Hullin وايلي Eliu بذلك . »

« وكانت الصعوبة هى الوفاء بالوعد . . فمن ذا الذى كان يستطيع ان يجمع روح الانتقام التى شحنت بها الجماهير عبر القرون واستفزتها كل هذه المذابح التى قام بها الباستيل فى ذلك اليوم ؟ . لم يكن فى مقدور هذه السلطة الجديدة التى جاءت من الهوتيل دى فيل فى الجريف « دار بلدية باريس التى كانت من قبل دار نقيب التجار وأصبحت منذ قليل مقر لجنة قيادة الثورة » ،

هذه السلطة الجديدة التي لم تكن تعرفها الا مجموعتان صغيرتان من
الطلائع لم يكن في مقدورها ان تحتوى مائة ألف رجل من
المتظاهرين .

« كانت الجماهير غاضبة وعمياء وسكرانة بالخطر ومع ذلك
فلم تقتل في فناء الباستيل الا رجلا واحدا ، ولم تمس احدا من
اعدائها السويسريين الذين حسبته من زيهم من الخدم أو من
المسجونين . بل وجرحت أصدقاءها من جنود الحامية الفرنسيين
واساءت معاملتهم . كانت تتمنى ان تفنى الباستيل ، وحطمت
بالحجارة عقارب الساعة الحديدية ، وصعدت الى قمة الأبراج لتصب
جام غضبها على المدافع المنصوبة . وصب البعض جام غضبهم على
أحجار الحصن فأدموا أيديهم وهم يحاولون اقتلاعها . وبادرت
الجماهير الى الزنازين لتفرج عن المسجونين فأصيب اثنان من هؤلاء
بالجنون : انزعج أحدهما من الضجة انزعاجا شديدا وأراد أن يدافع
عن نفسه ، وذهل حين رأى من كسروا بابه يرتمون فى أحضان
ويبللونه بدموعهم . والآخر الذى كان يحمل لحية تصل الى خصره
سألهم عن صحة لويس الخامس عشر ، فقسمه كان يحسبه لا يزال
جالسا على عرش فرنسا . فلما سألوه عن اسمه أجاب بأن اسمه هو:
سيد الشموخ .

« ولم يتوقف المنتصرون عند ذلك . فخاضوا فى شارع سانت
انطوان معركة أخرى . فحين اقتربوا من ميدان الجريف « الساحل »
واجهوا جماعات أخرى لم تشترك فى القتال ، وعز عليها ذلك فرات
ان تشارك بشئ ما ولو يقتل الأسرى . فقتلوا أحدهم فى شارع
تورنيل وقتلوا آخر على رصيف نهر السين . وتبعت الجمع نسوة
شعورهن محلولة عرفن ان أزواجهن بين من ماتوا فتركوهن باحثات
عن القتلة . وصرخت إحداهن فى الجمع وهى ترقى ان ياتوها
بسكين .

« وسبق القومندان دى لوني يسنده وسط هذا الخطر العظيم
رجلان من الشجعان الأقوياء ، كان احدهما هولان . وفى سانت
انطوان الصغير تجمعت دوامة من البشر انتزعت دى لوني من يد
المرافق الآخر ، اما هولان فتشبث باسيده ، وكان بحاجة الى قوة
هرقل ليصل باسيده حتى الجريف الذى كان على بعد خطوات منه .
لم يعرف ماذا يفعل ، ولكنه لاحظ ان الناس لم تكن تعرف دى لوني
الا لأنه كان عارى الرأس فخطرت له فكرة شجاعة . وهى ان يخلع
قبعته ويلبسه اياها ، وما ان فعل ذلك حتى أخذ يتلقى كل الشرابات
الموجهة الى دى لوني . وأخيرا وصل الى بواكى سان جان . ولو انه
استطاع ان يجعله يصعد الدرج ويدفعه الى السلم لأمكنه انقاذه .
ولكن الجماهير تبينته بوضوح فاشتد ضغطها المجنون . وهنا لم تعد
القوة الجسمانية الهائلة التى كان يستخدمها هذا العملاق هولان
تجدى شيئا . وفى دوامة الكتلة البشرية التى التفت حوله وهصرته
كالافعوان فقد هولان توازنه ودفع يمينه ويسرة وسقط على الأرض
الحجرية . ونهض مرتين . وفى المرة الثانية رأى رأس دى لوني
معلقاً فى طرف حربة » . .

٣ - الباستيل

والآن نبذة عن تاريخ السجن :

كان اسمه الاصلى « الباستيد » La Bastide وليس « الباستيل » بمعنى « الحصن » . وقد بدأ التفكير جدياً فى بنائه مكان السور عند باب سسائنت انطوان لحماية باريس من الشرق وحماية باب سسان دنيس Saint Denis وسان مارتان Saint-Martin بعد هزيمة بواتييه Poirier; واسر الملك جيان الطيب Jean Le Bon عام ١٣٥٦ .

وكان الملك بحاجة الى اموال لبناء هذا الحصن ، فلانقرض على ذلك نقيب التجار ، واسمه اتيين مارسيل Etienne Marcel وكان اغنى رجل فى باريس ،

● نشرت بجريدة الامرام بتاريخ ١٩٨٩/٧/٢٢ .

الثورة الفرنسية - ١٧

مما جعل بعض المؤرخين يصفون هذا الرجل بأنه أب من آباء
الديمقراطية لوقوفه في وجه الملك .

ولكن دوافع هذا الرجل كانت شخصية بحتة ، فقد كان يجهز
لاستيلاء شارل الشرير Charles Le Mauvais على العرش والتوطيد
لنفوذ الانجليز . وقد اغتيل اتين مارسيل في هذه المحاولة
عام ١٣٥٨ عند باب سانت انطوان ، حيث أقيمت قلعة الباستيل
بعد ذلك بأمر من ولي العهد الذي أصبح فيما بعد الامبراطور شرلكان
(شارل الخامس) . وقد وضع عمدة باريس حجر الأساس
للباستيل في ١٣٧٠ . وهكذا بنى الباستيل ابتداء من ١٣٧٨ من
ثمانية أبراج بارتفاع ٢٤ مترا وبسمك ٣ أمتار عند القاعدة ومتر
و ٨٠ سم عند القمة ، واستغرق البناء ١٢ سنة ، مات شرلكان في
١٣٨٠ قبل ان يتم البناء في ١٣٩٠ .

فالاصل في الباستيل اذن انه كان حصنا للدفاع عن باريس
من الشرق . وكان له قومندان يدعى « كابتن الباستيل » ومعه اقل
من ٢٠ من الحراس المسلحين . وكان مخزنا للبارود والمدافع
والأسلحة البيضاء . وفي جرد ١٥٠٤ كان في مخازن الباستيل
٣٦٠٠ بلطة صالحة للاستعمال و ١٠٦٠ بلطة غير صالحة للاستعمال ،
وعدد رهيب من السلاسل لسد شوارع باريس ، وفي السابع عشر
كان فيه عدد رهيب من الأعلام . ومنذ البداية كان للباستيل باب
جانبي يستخدمه الملك للدخول والخروج سرا من باريس ، وقد
اعترضت بلدية باريس على وجود هذا الباب وحاولت الغاءه ، ولكنها
عجزت عن ذلك .

وفي العصور الوسطى كان شيئا مألوفا قبل توحيد فرنسا ان
يتحالف بعض أمراء الاقطاع مع بعض الملوك أو الأمراء الأجانب ضد
ملوك فرنسا أو أمرائها . ومن أشهر هذه التحالفات تحالف ولاية

بورجونيا مع الانجليز . وقد احتل البرجنديون والانجليز الباستيل ، وكان قومندان الباستيل انجليزيا لمدة ١٦ سنة بعد احتلالهم باريس ابتداء من ١٤١٨ حتى أجلوا عن الباستيل في ١٤٣٦ . (والبرجنديون كما هو معروف هم الذين سلموا جان دارك بعد ذلك للانجليز فحاكموها وأحرقوها بتهمة انها ساحرة) .

ولم يكن الباستيل مخزنا للسلاح والذخيرة فقط ، بل كان أيضا من القرن الخامس عشر حتى عهد لويس الرابع عشر مخزنا لجواهر التاج وكنوزه ومقرا لخزانة الدولة . ومما يذكر ان هنري الرابع ملك فرنسا أودع في الباستيل عام ١٦٠٠ مبلغ ١٣ مليون جنيه ذهب استعداده لحربه مع أسبانيا .

والصورة التقليدية عن الباستيل حتى قبل سقوطه في يد الثوار انه لم يكن حصنا للدفاع بقدر ما كان قلعة للطغيان وسجنا جهنميا للتعذيب . ومع ذلك فقد ظهر بين المؤرخين أمثال فونك برينتانو Funck-Brentano من صوره على انه كان سجنا وقصرا لا تعذيب فيه ولا اغتيال ، وهذا طبعا مناقض للصورة التقليدية عن الباستيل وعن وجهة النظر الرسمية في فرنسا منذ ١٨٨٠ ، عام اعلان ١٤ يوليو عيدا قوميا للحرية في فرنسا .

ولم يعتبر الباستيل قصرا الا في عهد لويس الرابع عشر حين أصدر هذا الملك في ١٦٦٧ أمرا ملكيا لقومندان الباستيل باعتبار الباستيل أحد القصور الملكية وأمره بموجب هذا ان يطلق المدافع ابتهاجا بمولد ابنته . وفي عهد لويس الخامس عشر كان الباستيل يطلق المدافع تحية للملك عند دخوله وخروجه من باريس .

وفي عهد لويس السادس عشر امتدت التحية لموكب الكونت دارتوا ، أخى الملك ولفرقة المسرحية ، وهى الكوميدي فرانسيز .

وبحسب أرشيف مكتبة الارسينال (الترسانة) بلغ مجموع السجناء فى الباستيل منذ بنائه نحو ١٤٠٠ حتى سقوطه فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ نحو ٦٠٠٠ سجين ، منهم ٨٠٠ سجين بين ١٤٠٠ و ١٦٥٩ وهى بداية عهد لويس الرابع عشر ، و ٥٢٧٩ سجيناً بين ١٦٥٩ ويوم سقوطه فى ١٧٨٩ .

وكان أول سجناء مدنيين احتجزوا فى الباستيل عام ١٤٢٣ .
اثنان من السحرة جى بهما ليشفيا الملك من جنونه ولكنهما فشلا .
وفى ١٤٢٨ كانت باريس وفرنسا كلها شمال نهر اللوار أيام شارل السابع خاضعة لهنرى السادس ملك انجلترا ووثائق الفترة تقول انه كان فى الباستيل ١٧ سجيناً منهم ٤ من الانجليز وثلاثة من الفرسان وثلاثة من السياس من بريتانى وراهبان وقسيس واثنان من صانعى النسيج و غلام سنه ١٣ سنة .

ومنذ البداية تقريباً تحول الباستيل من حصن عسكري الى سجن لاعداء الملك ولتأديب النبلاء الذين ينحرف سلوكهم فى البلاط .

وبعد مائة سنة من الهدوء النسبى اتسبح الامر ليشمل سجناء العقيدة الدينية مثل البروتستانت واتباع الجانسنية ثم الجزويت ودخلت الباستيل قلة من متهمى القانون العام .

ولم يكن الباستيل هو السجن الوحيد فى باريس ، فقد كان فيها سجن فانسين Vincennes وسجن مون سان ميشيل Mont Saint Michel وقصر دانجيه D'angers ، ولكن الباستيل تميز بأهمية ضيوفه او بشهرة الجرائم التى ارتكبوها .

وقد كان من اعلام السجناء : البرنس كونديه Prince Condé وفوكيه Foucquet وزير مالية لويس الرابع عشر ، والمفكر

الكبير لاروشفوكو La Rochefoucauld ، والمرشال ريشليو Richelieu ابن الكاردينال الأشهر ، وذو القنصاع الحديدى ، وفولتير ، وداميان الذى حاول اغتيال لويس الخامس عشر ، والقائد ديمورين ، Dumouriez بطل معركة فالى Valmy فيما بعد ، والماركيز دي صاد Marquis De Sade ، والساحر الشهير كاليوسترو Cagliostro ، والكاردينال دي روهان Cardinal De Rohan يطل فضيحة جواهر الملكة مارى انطوانيت . أما أشهر الجرائم فكانت قضية السموم أيام لويس الرابع عشر وقضية جواهر الملكة أيام لويس السادس عشر .

وكان لويس الحادى عشر أول موحد فرنسا . وأول من استعمل الباستيل سجنًا للدولة وخصصه للمسجونين السياسيين. المتآمرين عليه لقلب نظام الحكم ولا سيما فى صراعه مع شارل. الجسور والبرجنديين وقد اُضيف لويس الحادى عشر الى الباستيل. « أقفاصا » من قضبان الحديد لا تسمح بالوقوف داخلها . وكان أول من ابتكرها له أسقف فردان الذى زود هذه الأقفاص بسلاسل غليظة تنتهى بكرات حديدية ثقيلة تقيد حركة القدمين . وسجن الأسقف نفسه فيها ١٤ سنة لأنه تآمر على الملك ثم أفرج عنه .

كذلك سجن لويس الحادى عشر الكونت لويس دي لوكسمبورج عام ١٤٧٥ وجاك أرمنياك Armagnac دوق نهور Duc De Nemours حاكم باريس عام ١٤٧٧ ، وبقي كل منهما فى الباستيل عدة أسابيع فقط ريثما يحاكمه البرلمان بتهمة التآمر على الملك ثم خرج لتنفيذ حكم الإعدام فيه علنا فى ميدان السوق (الهال Les Halles) ومنذ عهد لويس الحادى عشر كانت هناك فى الباستيل غرف خاصة بالتعذيب ، لا لاستخلاص الاعترافات ولكن للتحضير للموت .

ومنذ ان تحول الباستيل من قلعة الى سجن كان سجننا « ملاكى » تابعا للملك مباشرة ينفق عليه من أمواله الخاصة ، ويجرى فيه كل شىء بعيدا عن رقابة القانون العام . ولم تكن تجرى فيه الاعدامات ، وانما كان محطة للتحقيق والمحاكمة السياسية عن طريق برلمان باريس ثم التوزيع أما على السجنون الأخرى مثل سجن خانسين وسجن مون سان ميشيل أو أحد سجون فرنسا الأربعمئة ، وفى بعض الأحوال النفى أو الاعتقال مدى الحياة فى الأديرة أيضا على نفقة الملك ، وأما الاعدام فيتم فى ميدان الجريفة أمام بلدية باريس . وكان الاعدام يتم عادة بقطع الرأس ببلطة العشماوى للنبلاء .

وهذا لم يمنع طبعا من احتجاج بعض الشخصيات فى الباستيل بأمر الملك مدى الحياة أو لسنوات مديدة . وفى بعض الأحوال كان الاعدام يتم بتفسيخ جسد المحكوم عليه أربعا فى ميدان الجريفة كما حدث فى حالة الراهب جاك كليمان Jacques Clement قاتل الملك هنرى الثالث عام ١٥٨٩ ورافايالك Ravailac قاتل الملك هنرى الرابع فى ١٦١٠ وداميان Damiens الذى حاول قتل لويس الخامس عشر فى ١٧٥٧ .

ولعل أهم تطور فى تاريخ الباستيل والسجون الفرنسية جاء فى أيام لويس الرابع عشر منذ توليه فى ١٦٥٦ ، فقد كان أكثر المعتقلين بالأمر الملكى من النبلاء والقواد المتآمرين على الملوك . كان الأمر كذلك فى عهد كاترين دى مدسيس ومارى دى مدسيس ، وفى عهد الكاردينال ريشيليو Richelieu والكاردينال مازاران Mazarin . فلما تولى لويس الرابع عشر انشأ منصبا جديدا هو منصب حاكم دار بوليس باريس كانت مهمته حفظ الأمن وتنظيم التموين وحماية الطرق ومكافحة الحرائق والفيضانات والنجدة ووضع لوائح الصناعات والأماكن العامة والمطابع والمكتبات .

وكانت أوامر الاعتقال الملكية تسمى « الخطابات المختومة »
Lettres de Cachet التي يوقعها الملك شخصيا قليلة العدد حتى
بداية حكم لويس الرابع عشر ثم تدفقت كالطوفان في بداية عهده .

وكان أول حاكم دار المبوليس هو لارينى La Reynie
الذي شغل منصبه ثلاثين عاما . وخلفه المركيز ارجنسون
Argenson وقد وصف سان سيمون في مذكراته صاحب هذا
المنصب بأنه وزير سرى شبيه برئيس محكمة التفتيش .

وقد كتب ارجنسون في ١٧٠١ ان يد العدالة بطيئة والعناوين
العام غير كاف لردع المجرمين ، وكان الحل عنده هو خطابات
الكاشيه أي أوامر الاعتقال المختومة الممهورة مباشرة من الملك .
فتوسع ارجنسون في هذه الخطابات المختومة وارسلها الى كل مكان
في فرنسا ، وكان نصيب الباستيل منها نصيب الأسد . وكانت
باريس في أول عهد لويس الرابع عشر مباءة للقتلة والسفاحين
وقطاع الطرق وحين مات ارجنسون رثاه فونتينييل F'ontenelle
أمام أكاديمية العلوم بأنه طهر باريس من الشحاذين والمجرمين
والمصوص والبغايا والقوادين واستعمل الاديرة والمستشفيات لسجن
البغايا والعجزة والمجانين : شارنتون وسان لازار الرجال ، والمادلين
وسانت بيلاجيا للنساء ، وما يماثلها مثل قصر ايف Chateau d'If
أمام مرسيليا ، وهو الذي تدور فيه حوادث الكونت دي مونت
كريستو كما نقرأ في رواية اسكندر دumas الشهيرة .

وابتداء من ١٦٥٩ بدأ الباستيل يحفظ سجلات منتظمة
لسجنائه ، ومنها نعرف ان سجنائه بين ١٦٥٨ وسقوطه في ١٤ يوليو
١٧٨٩ بلغ ٥٢٧٩ سجيناً منهم ٢٣٢٠ أيام لويس الرابع عشر
(٢٠١٦ ذكورا و٢٢٦ اناثا) ، ومنهم ١٤٥٩ أيام وصاية الكاردينال

دى فايرى De Fleury (١٢٣٣ ذكورا و ٢٢٦ اناثا) ، ومنهم ١١٩٤ سجيناً فى عهد لويس الخامس عشر (١٠١٩ ذكورا و ١٧٥ اناثا) ومنهم ٣٠٦ سجيناً فى عهد لويس السادس عشر (٢٧٤ ذكور ٣٢ اناث) ولم يكن تدرج عدد السجناء فى الانخفاض بسبب انخفاض عدد خطابات الكاشيه ، ولكن نفقات الباستيل الباهظة جعلت الدولة تفضل ارسال المعتقلين الى سجون أخرى .

اما نوعية سجناء الباستيل فقد كان منهم ٤٠٠ من رجال الدين ونحو ١٠٠٠ من النبلاء ونحو ٤٠٠٠ من المواطنين العاديين من البورجوازية العليا الى طبقة الاسطوانات - اما نوعية التهم فقد كان منها ٧٠٪ لأسباب سياسية ودينية و ٣٠٪ لجرائم القانون العام . ومن الجرائم المحددة كانت هناك ٢١٪ جرائم سياسية ، و ٢٢٪ مما يسمى جرائم الفكر وتشمل الكتابة والطبع والنشر ونحو ١٤٪ جرائم (!) العقيدة الدينية . وهناك نسبة ١٥٪ من المسجونين بغير تهم محددة أو كتب أمام اسمائهم جرائم ضد الدولة ، مما نشر الاعتقاد بأن هناك عددا من الأبرياء كانوا ضيوقسا فى الباستيل . وكان يكفى للقبض عليك ان تقول كلاما لاذعاً عن مدام دى مانتنون Madame De Maintenon محظية لويس الرابع عشر أو عن مدام دى بومبادور Madame De Pompadour محظية لويس الخامس عشر .

كان الملك هنرى الرابع قد أصدر مرسوم نانت Edit De Nantes الذى أباح حرية العقيدة الدينية للبروتستانت ، ولكن لويس الرابع عشر عاد الى سياسة اضطهاد البروتستانت فأصدر فى ١٦٨٥ مرسوم فونتنبلو Edit De Fontainebleau الذى استنكر فيه مرسوم نانت . وكان البروتستانت قبل ذلك يقرن يسجون حتى الموت . ومثل مرسوم فونتنبلو كان يطلب من البروتستانت التبرؤ من عقيدتهم .

الدينية والاسيخونوا وفي ١٧٨٦ اعتقل منهم ٣٠٠ . منهم ١٠٠ في
الباستيل والباقون في سجون أخرى . وكان البوليس يفتش عربات
السفر ولا سيما لهولندا وبلجيكا ، كما كان يكتشف جوازات سفر
مرورة وبناات متخفيات في زى أولاد . وفي الباستيل وسواه كان
يجرى تحقيق دقيق ، وكانت الدولة ترسل راهبا جزويتيا ليحفظ
البروتستانت ويطالبهم باعتناق الكاثوليكية ، وكان الافراج رهينا
بالتحول . وبعد الافراج كان البروتستانت يراقبون . فمن اكتشف
ثباته على عقيدته اعيد الى السجن وكان أكثر من سجنوا بسبب
محاولة الهجرة المحرمة حيث بلغ عدد المهاجرين ٢٠٠٠٠٠ شخص .
وكان بين المسجونين نبلاء صغار وتجار وأطباء .

كذلك دخل الباستيل وغيره من السجون اتباع مذهب جانسن
Jansenisme (نحو ٤٠٠ في الباستيل خلال قرن منذ
١٦٥٧) ، وهو دعوة للمساواة بين القساوسة اساسها انه لا رتب
في الدين وانه لا عصمة للبابا وبالطبع اغضب هذا الاساقفة والكرادلة
فصدر في ١٦٥٧ منشور باحترام النظام الكنسى يوقعه كل من يدخل
سلك الكهنوت . وكان مركز هذه الحركة الدييمقراطية في الدين دير
بوررويال Port-Royal وابل بباريس وفي ١٧٠٧ اقتحم ارجندسون
دير الراهبات في بور رويال وهدمه فلم يبق فيه حبرا على حجر
وشحن الراهبات كقطيع من البغايا الى الدير الأخرى . وأخلى مقابر
الدير من الموتى . وفي ١٧١٣ حرم البابا الجانسنية رسميا . وفي
وصاية الكاردينال فلورى Fleury بلغ عدد المعتقلين من اتباع
الجانسنية ٢٤٢ راهبا . وفي ١٧٣٦ بلغ نصف المعتقلين من
الجانسنيين ، واصبحوا مركز مقاومة كل اعداء الحكم .

وكان منهم راهب صالح بسيط مات في ١٧٢٧ ولشدة افواه
شاع عنه انه كان يأتى بالمعجزات ، واصبح قبره مزارا للطبقات

الشعبية . وفى ١٧٣٢ اغلقت جبانته بأمر الملك لويس الخامس عشر . وقرأ الناس على قبره لافتة كتبها اعداء الملك تقول :

« بأمر الملك ، ممنوع على الله ان يأتى بالمعجزات فى هذه الناحية » .

لا شك على سبيل السخرية من الملك .

ثم دارت الدوائر على الجزويت الذين كانوا يطاردون اتباع الجانسنية . وكان الجزويت يدعون لسلطة البابا المطلقة بما تهدد سيادة الدولة . وفى ١٧٦٢ انتهى هذا الصراع بحظر الجزويتية فى فرنسا وبطرد الجزويت منها .

ومن الجانسنية خرجت حركة « المرتعشين » أو « المتشنجين » وهى شبيهة بحركة « الكويكرز » Quakers فى انجلترا . وقد رأى لويس الرابع عشر خطرهم فى ١٦٦٢ حين قال عن ثلاثة منهم كانوا معتقلين فى الباستيل ان هؤلاء المرتعشين خطرون ويمكن ان يقتلوا أو يرتكبوا الجرائم باسم عقيدتهم مضحين بحياتهم من أجل « الصالح العام » .

كذلك مر الماسون من الباستيل الى سجون فرنسا الأخرى لانهم كانوا يدعون الى العقلانية واللا دينية . وقد تأسس أول محفل لهم فى فرنسا عام ١٧٢٥ وكان محظورا .

وفى السجلات ان الباستيل وحده عرف ٩٤٦ سجيناً من سجناء المطبوعات (ويدخل فيهم المؤلفون ومحررو النشرات أو الجازئات السياسية والطابعون والكتبية) ، ومن هؤلاء ربعهم سجنوا أيام لويس الرابع عشر وثلاثة أرباعهم حتى سقوط الباستيل فى ١٧٨٩ .

وكان من أشهر الادباء والمفكرين الذين دخلوا الباستيل فولتير
Voltaire « مرتين » ودالمبير D'Alembert ، والأب بريفو L'abbé
Prevost ، وفونتنيل Fontenelle ومونتسكيو Montesquieu
ومارومونتيل Marmontel وهليفتيوس Helvetius وكان من
أهم الكتب المصادرة كتاب «رسائل من الريف Lettres Provinciales
للفيلسوف باسكال Pascal وقد صدر عام ١٧٧٢ ،
وكتاب « رسائل فلسفية » Lettres Philosophiques لفولتير ، وقد
أحرق عام ١٧٣٤ بقرار من البرلمان ، وصودرت في ١٧٧٠ بموجب
الخطابات المختومة (الكاشيه) المجلدات الثلاثة الأولى من «الموسوعة»
الشهيرة (الانسكلوبييا) التي وضعها اقطاب حركة التنوير . وفي ١٧٧٥
أحرق كتاب « فلسفة الطبيعة » Philosophie De La nature
في ميدان الجريفي وكانت المطابع والمطبوعات المصادرة تكندس في
الباستيل حتى اضطروا أن يبنوا لها جناحا خاصا .

وعندما أفرج عن فولتير في ١٧١٨ بعد سجنه في المرة الأولى
في الباستيل لمدة أحد عشر شهرا ، حددت إقامته عند أبيه في منزله
الريفي ، فكتب للوصي على العرش يقول مداعبا : « انى أشكر لك
يا صاحب السمو الملكى رغبتك فى ان تتكفل بى ، ولكنى أرجوك
الا تتكفل بمسكنى » .

ولعل أهم تطور جرى على الباستيل وغيره من سجون فرنسا
الخمسائة كان ان أوامر الاعتقال الملكية المعروفة بالخطابات المختومة
أو « خطابات الكاشيه » ظلت حتى ١٧٠٠ تكتب بخط اليد ويوقعها

الملك شخصيا ، اما لأهمية المقبوض عليهم وأما لأنها خارج مرسوم القانون .

أما بعد ١٧٠٠ فقد صارت لكثرتها تطبع وفيها مكان الاسم « على بياض » وكان ذلك في أواخر عهد لويس الرابع عشر .

ومن المؤرخين من يستبعد أن يكون الملك هو الذى كان يوقع على مئات الآلاف من أوامر الاعتقال الملكية التى وزعت على خمسمائة سجن فى جميع أنحاء فرنسا . وهم يرجعون أن وزراء القصر أو حكامدارى البوليس هم الذين كانوا يختمون أو يقلدون توقيع الملك بتفويض منه أو بغير تفويض فى عهد وصاية الكاردينال دى فليرى ، وفى عهد لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر .

وقد كان هذا التوسع الرهيب فى أوامر الاعتقال هذه من أهم أسباب فشله الثورة الفرنسية وتركيز السخط العام على الزمر الأعظم لهذه السجون أو المعتقلات وهو حصن الباستيل .

٣ - مجلس الطبقات

كان لفرنسا منذ العصور الوسطى برلمان أو - على الأصح - برلمانات ، لأن فرنسا كانت أيام النظام الاقطاعى مكونة من اقطاعيات مستقلة أو شبه مستقلة . ولكن منذ توحيدها أصبح لها برلمان واحد مقره فى فرساي على بعد أميال قليلة من باريس حيث قصر فرساي الذى كان قد شنيهه لويس الرابع عشر ، « الملك الشمس » . كما كانوا يسمونه .

ومنذ ١٧٨٦ كان الاضطراب المالى قد بلغ حدا جعل من اللازم على الملك لسويس السادس عشر ان يعمرى انتخابات جديدة لانتخاب برلمان جديد يشرع لضرائب جديدة تنقذ فرنسا من الفوضى المالية والاقتصادية .

● نسيرت بـ...ريده الأهرام

بتاريخ ١٩٨٩/٧/٢٩ .

فأجريت الانتخابات فى ابريل ١٧٨٩ واجتمع البرلمان فى فرساي
فى ٤ مايو ١٧٨٩ .

وكان البرلمان طبقيا اى مكونا من ممثلين عن ثلاث طبقات
عددهم الاجمالى ١١٥٤ نائبا :

منهم ٢٩١ نائبا عن طبقة رجال الدين ، وكان بعض هؤلاء من
دعاة الاصلاح مثل الأب جريجور l'abbé grégoire وتاليران Talleyrand
وكان بعضهم من انصار النظام القائم « الملكية المطلقة » مثل الأب
مورى l'abbé Maury ومونتسكيو Montesquieu

وكان هناك ٢٨٥ نائبا يمثلون طبقة النبلاء . وكان بعض
هؤلاء يناصر الأفكار الجديدة مثل لافاييت La Fayette والكونت
دى نواى Le Comte De Noailles ودوق اجويون Duc d'aiguillon
ولكن أغلبيتهم كانوا متمسكين بامتيازاتهم الطبقية .

اما ممثلو الطبقة الثالثة فكانوا ٥٧٨ نائبا كان بينهم نواب
افذاذ مثل ميرابو Mirabeau وروبسبير Robspierre وسييز Sicyès
وفولنى Volney وبالى Bailly . الخ .

وفى يوم الافتتاح « ٤ مايو ١٧٨٩ » استمع النواب الألف
والمائتان والملك والملكة ورجال البلاط الى القداس فى كنيسة نوتردام
ثم خرج موكبهم واخترق كل باريس حتى بلغ ضاحية فرساي .
وخرجت باريس كلها الى جوانب الطرقات لتحييتهم واكتظت الشرفات
بالرجال والنساء وكان يملأ الصدور أمل عظيم .

وقال ميشليه : « وعلى رأس الموكب ظهرت أولا كتلة من الرجال،
كلهم فى ملابس سوداء ، وكان هؤلاء هم نواب الطبقة الثالثة وعددهم

خمسمائة وخمسون وكان بين هذا العدد أكثر من ثلثمائة من رجال القانون : محامين أو قضاة ، وكانهم يمثلون تمثيلا صادقا مجيء حكم القانون . كان ملابسهم متواضعا ، وكان خطوهم ثابتا ونظراتهم ثابتة . وكانوا يسيرون معا سعداء بهذا اليوم العظيم الذى انتصروا فيه ، يسيرون معا دون تفرقة بين أحزابهم .

أما المجموعة الصغيرة المتألقة من نواب النبلاء فجاءت بعدهم وعلى قبعاتهم الرياش وفى ثيابهم الدنتيللا وعليها الذهب الموشى . وفجأة اختفى التصفيق الذى ارتفع لتحية الطبقة الثالثة . ومع ذلك فقد كان بين هؤلاء النبلاء نحو أربعين نبيل لا يقلون حماسا للشعب عن نواب الطبقة الثالثة .

ورأى نفس الصمت عندما مرت طبقة رجال الدين . ورأى الناس بالترتيب الآتى جماعة من النبلاء تليهم الطبقة الثالثة ، وبعدهم نحو ثلاثين أسقفا يرتدون قلنسواتهم وارديتهم البنفسجية ، وبعده هؤلاء بمسافة تشغلها جوقة من المرتلين يأتى الرهط المتواضع من القساوسة المائتين فى مسوحهم السوداء .

ولم يكن فى مجموعة النبلاء التى تجسد فيها المجد العسكرى ، قائد واحد مشهور . بل كان قوامها كل المغمورين من اعظم النكرات، الذين كان يتألف منهم اقطاعيو فرنسا . وربما كان هناك استثناء واحد من ذلك هو لافاييت الشاب الذهبى الشعر الذى خالف البلاط. وكان أول من اشترك فى حرب الاستقلال الأمريكية . ولم يكن أحد يتخيل الدور الكبير الذى هياه له القدر فى الثورة .

وكانت الطبقة الثالثة تحمل ملامح المؤتمر الوطنى ولكن من ذا الذى كان يتبينها ؟ من ذا الذى كان يستطيع أن يميز وسط

هذا الحشد المغمور من المحامين شخص رويسبيير الخطير ، ذلك
المحامى من أراس ؟

وكان هناك شيثان ملحوظات : غياب سيبز وحضور ميرابو ،
(تأخر انتخاب سيبز وكان ميرابو هارباً من طبقة النبلاء . ل . ع .)
« الثورة الفرنسية » الكتاب الأول ، الفصل الثانى .

وفى اجتماع ٦ مايو ١٧٨٩ قزر نواب « الطبقة الثالثة » أن
يكون اسمهم الجديد « جمعية العموم » أو « مجلس العموم »
Commune اسوة بمجلس العموم البريطانى ، بدلا من
« الطبقة الثالثة » . ولكنهم عادوا فى اجتماع ١٧ يونيو ١٧٨٩
ورفضوا مبدأ الفصل بين طبقات المجتمع وعلنوا ان اسم البرلمان
الجديد ليس « مجلس الطبقات Etats Généraux ولكن « الجمعية
الوطنية » Assemblée Nationale أى ماكننا نسميه مجلس الأمة »
ووافق أكثر رجال الدين من القساوسة الفقراء على الانضمام الى
ممثلى الشعب أما طبقة النبلاء فكانت تضغط على الملك ليمنع ازالة
الحواجز بين الطبقات الثلاث .

وكان الملك مترددا ، ولكنه نفذ ما أرادته الطبقة الارستقراطية .
ولكى يمنع انضمام نواب رجال الدين الى نواب « الطبقة الثالثة » أمر
بإغلاق قاعة الاجتماع يوم السبت ٢٠ يونيو بحجة تحضير القاعة
لحضوره الملكى يوم الاثنين . كل هذا تم يوم الجمعة ليلا ، وعلق
اعلان بهذا التأجيل فى فرساي فى الساعة الخامسة من صباح
السبت . ولم يعرف بالى Bailly رئيس البرلمان بتأجيل الاجتماع
الا بمحض المصادفة . ولم يتسلم أمر التأجيل الا بعد السابعة
صباحا ١١

وكان جان سيلفان بالى « ١٧٣٦ - ١٧٩٣ » عالم فلك مشهورا ،

وانتخب نائبا في « مجلس الطبقات » الذي انتخبه رئيسا للجمعية الوطنية ، وكان رئيسها حين اعلنت « قسم ملعب التنس » في ٢٠ يونيو ١٧٨٩ ثم انتخب عمدة لباريس في ١٦ يوليو ١٧٨٩ ولكنه اعتبر مستولا عن مذبحه ميدان شان دي مارس Champ de Mars فقد امر بوصفه عمدة باريس باطلاق النار على المتظاهرين المطالبين بخلع الملك لويس السادس عشر بعد محاولته الفرار من فرنسا في ١٧ يوليو ١٧٩٢ للاحتفاء بأعداء بلاده فأعدم بالي على المقصلة في ميدان شان دي مارس .

لم يتسلم بالي امر تأجيل انعقاد البرلمان في صورة خطاب بخط يد الملك موجه الى رئيس مجلس الطبقات كما جرى العرف ، ولكن تسلمه كمجرد اخطار من التشريعات الأولى ، تسلمه في مسكنه ولم يتسلمه في مقر البرلمان بحسب الأصول المرعية .

ولم يكن عند بالي تفويض من الجمعية الوطنية ان يتصرف نيابة عنها . فلما حل موعد انعقاد الجمعية في الساعة الثامنة تجمع بالي وعدد غفير من النواب عند باب القاعة ، فاعترضهم الحرس ، واحتج بالي وأعلن ان الاجتماع قائم .

وحاول بعض النواب الشبان فتح الباب عنوة ، ولكن الضابط المكلف شهر السلاح قائلا : انه لم يؤمر باحترام الحصانة البرلمانية .

قال ميشليه :

« هؤلاء اذن هم ملوكنا الجدد ، يحتجزون ويقفون بالباب وكانهم جماعة من التلامذة المشاغبيين . وهاهم أولاء هائمون تحت المطر وبين الناس على طريق باريس ، الكل مجمع على ضرورة عقد

الثورة الفرنسية - ٣٣

الجلسة وعلى التجمع . قال بعضهم : الى سوق السلاح !! وقال آخرون : الى قصر مارلى ! « حيث كان يقيم الملك . ل . ع » وقال آخرون : بل الى باريس : وكان هؤلاء أكثرهم تطرفا ، لأنهم ارادوا اشعال البارود .

واقترح النائب جيلوتان Guillotin اقتراحا أقل مجازفة . اقترح الذهاب الى فرساي القديمة والاجتماع فى ملعب التنس . . وكان مكانا كثيبا بشع المنظر خاليا من الآثاث رقيق الحال . وكان مناسباً للمقام . فقد كانت الجمعية الوطنية فقيرة ولذا فقد كانت يومها تمثل الشعب اصدق تمثيل ، وظل نوابها واقفين طوال النهار ، فلم يكن لديهم أكثر من مقعد خشبي واحد . . كان هذا الملعب العارى بمنزلة مهد للدين الجديد ، بمنزلة المزود فى «بيت لحم» (الكتاب الأول ، الفصل الثالث) .

وهكذا اجتمعت الجمعية الوطنية فى ملعب التنس برغم ارادة الملك . . ولكن ترى ماذا هم فاعلون ؟

يجب الا ننسى ان الجمعية كانت كلها بلا استثناء واحد ملكية المشاعر . .

يجب الا ننسى ان أعضاءها حين أطلقوا على أنفسهم يوم ١٧ يونيو اسم الجمعية الوطنية هتفوا معا : عاش الملك !! وحين اعطت الجمعية لنفسها حق التصويت على الضرائب معلنة عدم شرعية الضرائب المحصلة حتى ذلك التاريخ ، فان المعارضين على هذا القرار آثروا الخروج من الجلسة على تكريس هذا التحدى للسلطة الملكية بمجرد مشاركتهم فى الحضور .

فى ذلك اليوم لم يكن هناك معارضون . كانت الجمعية الوطنية

فكرا واحدا وقلبا واحدا . وكان أحد المعتدلين . جان جوزيف مونييه Mounier نائب جرينوبل ، هو الذى اقترح على الجمعية الوطنية القسم الشهير وهو : « قسم آدام الله والوطن انه أيا كان المكان الذى نضطر الى الانعقاد فيه ، فان الجمعية الوطنية هى الجمعية الوطنية ولا شئ يمكن ان يحول دون استمرار مداولانها ، وانه حتى وضع الدستور واقراره ، فانها تأخذ على نفسها شئها بالا تفصل أبدا » .

« وكان بالى أول من أقسم : أعلن القسم بصوت واضح مرتفع حتى أن جموع الشعب المتجمهرة فى الخارج سمعت القسم وصفقت له فى نشوة الحماس . . . وارتفع الهتاف : يحيا الملك ، ارتفع من الجمعية ومن الشعب . . . كانت هذه صبيحة فرنسا القديمة المشحونة بالعواطف المتأججة . وقد اختلطت بقسم المقاومة » . (الكتاب الأول ، الفصل الرابع) .

كان جان جوزيف مونييه « ١٧٥٨ - ١٨٠٦ » محاميا فى جرينوبل وانتخب نائب عنها فى « مجلس الطبقات » وكان من المعتدلين المؤمنين بالملكية المقيدة « الدستورية » ، وكان له دور هام فى مدينته قبيل الثورة . ولكنه حين رأى الثورة تنجرف خلال شهر اكتوبر ١٧٨٩ من تطرف الى تطرف ، تملكه الرعب وارسل الى « الجمعية الوطنية » استعفاء من النيابة وانسحب الى جرينوبل ثم عاش لاجئا فى الخارج على الكفاف ، ولكنه عاد الى فرنسا بعد انقلاب ١٨ برومير الذى استولى فيه بوناپرت على الحكم ، وكان محافظا ومستشارا للدولة فى عهد الامبراطورية . هذه فى كلمات قصة مونييه واضع « قسم ملعب التنس » الذى يعده المؤرخون ركنا ركينا من أركان الثورة الفرنسية .

وجاء رد الملك لويس السادس عشر على « قسم ملعب التنس »
وتحديات الجمعية الوطنية لسلطات العرش في فرض الضرائب بعد
ستة أيام جاء في ٢٣ يونيو ١٧٨٩ يوم « شرف » الملك « مجلس
الطبقات » بحضوره والقى في النواب كلمة تفيض بالغرسة وإهانة
الشعب ونوابه .

دفعت الحماقة رجال البلاط ان يلقنوا نواب الشعب درسا
لا ينسى . فرتبوا أن يدخل ممثلو طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين
قاعة المجلس من الباب الكبير ، وأن يدخل ممثلو « العموم » من الباب
الخلفى وكانهم جماعة من الخدم ، بعد ان استبقوهم في عنبر تحت
المطر وراء الباب المغلق وكان الحرس داخل البرلمان ولم يكن هناك
من يقدم نواب الشعب كما جرت العادة . وهنا يصف ميشليه
ماجرى بالتفصيل :

قال ميرابو Mirabeau للرئيس بالي : « قدم الأمة يا سيدي
الى حضرة الملك ! » فدق الرئيس الباب ، فجاء صوت الحرس من
الداخل يقول - بعد لحظة - . . قال الرئيس مخاطبا الحرس :
« أين اذن رئيس التشريعات ؟ » الحرس : « لا علم لنا بهذا » قال
بعض النواب : « فلنصرف اذن » ! وأخيرا استطاع الرئيس ان
يجيء برئيس الحرس الذي انطلق ليعود برئيس التشريعات .

ودخل النواب في طابور فوجدوا في القاعة رجال الدين والنبلاء
قد اتخذوا أماكنهم وبدءوا جلستهم وبدأ عليهم وكانهم ينتظرونهم
ليحاكموهم . . . غير هذا كانت القاعة خاوية ليس هناك ما هو أشد
كآبة من هذه القاعة الضخمة التي أقصى الشعب عنها .

وقرأ الملك ببساطته المعهودة الخطبة العصماء التي أعدها

له ، وبدأت عبارات الطغيان غريبة في فمه . ولم يكن يحس كثيرا بما انطوت عليه من عنف مستفز ، فقد بدا عليه الاستغراب لمنظر الجمعية الوطنية وهي تستقبل كلماته فحين صفق النبلاء للمادة التي تقدس حقوقهم الاقطاعية ارتفعت بعض الأصوات العالية تقول : « صمتا ! » .

وبعد لحظة من الصمت والدهشة ختم الملك كلامه بعبارة خطيرة لا تحتل كانت بمنزلة القاء القفاذ في وجه الجمعية وبدا الحرب . قال : « اذا تخليتم عنى فى هذا المشروع الجميل فسأعمل وحدى على خير شعبى ، وسأعتبر اننى وحدى ممثله الحقيقى » .

وأخيرا قال : « اننى أمركم أيها السادة ان تنفصلوا على الفور ، وان تتجهوا غدا صباحا الى الغرف المخصصة لطبقتكم لتعقدوا فيها اجتماعاتكم » .

وخرج الملك وخرج وراءه النبلاء ورجال الدين . أما العموم فقد ظلوا جالسين فى هدوء وصمت .

وعندئذ دخل رئيس التشريعات وقال بصوت خفيض لبالى ، رئيس الطبقة الثالثة : « انت يا سيدى سمعت الأمر الملكى ، فأجاب : « الجمعية تأجلت بعد الجلسة الملكية ، وأنا لا أستطيع أن أفضها دون أن تتداول » ثم التفت الى زملائه المجاورين قائلا : « يخيّل الى أن إلامة اذا اجتمعت فلا يمكن أن تتلقى الأوامر من أحد » .

وأخذ ميرابو هذه الكلمة بطريقة بارعة ، مخاطبا رئيس التشريعات بصوته القوى المهيّب قائلا فى جلال رهيب : « لقد سمعنا النيات التى أوحى بها للملك . وانت يا سيدى لا يمكن لك أن تكون الناطق باسمه فى الجمعية الوطنية ، وليس لك هنا مكان

ولا صوت ولا حق الكلام ، فأنت لا أهلية لك لتذكرنا بخطابه ..
امض وقل للذين أوفدوك اننا هنا بارداة الشعب ولن نخرج من
هنا الا على اسنة الحراب » ..

واضطرب رئيس التشريفات الشاب بريزيه Brézé
وانحنى الى الأرض : أحس بمقدم الملك الجديد ، بالشعب ملكا ،
وقام نحو هذا الملك الجديد بما يوجبه البروتوكول نحو الملك الآخر
فخرج وهو يتراجع بظهره الى الوراء كما كانوا يفعلون فى حضرة
الملك » .

ربما فعل رئيس التشريفات ذلك تهكما بالملك الجديد . هذا
ما لم يذكره ميشليه .

وكما ذكر المؤرخ ميشيل فوفيل Michel Vovelle
أصبح « قسم ملعب التنس » من الممارسات الأساسية فى الفترة
النورية « لأنه كان يعبر عن التزام الفرد نحو الجماعة كأساس
للحياة المدنية ومنذ ١٧٨٩ أصبح القسم الذى يؤديه رجال الدين
رمزا لتضامنهم مع الشعب أو ما كان يسمى « الطبقة الثالثة » وكان
القسم الذى يؤديه المواطنون فى عيد اتحاد فرنسا الفيدرالى وكان
القسم الذى يؤديه كل من يتقلد منصبا عاما . لقد كان هذا الميثاق
يرمز الى معنيين خطيرين ، أولهما هو سيادة الشعب على نفسه وعلى
ساداته ، والثانى هو أنه حينما وجد الشعب وجدت « الشرعية »
التي تجب كل شرعية عداها ووجدت وحدة الشعب التي لا يجوز
لأية قوة ان تفضيها أو تفرقها ، وهى وحدة باقية حتى يقرر الشعب
مصيره بنفسه .

أما الدكتور جوزيف جيلوتان Joseph Guillotin
« ١٧٣٨ - ١٨١٤ » صاحب اقتراح اجتماع ملعب التنس ، فقد

كان الطبيب الخاص للكونت دى بروفانس ، فكان يدعو الى زيادة عدد أعضاء نواب « الطبقة الثالثة » وانتخب بين نواب باريس عام ١٧٨٩ . وفى يناير ١٧٩٠ اقترح على الجمعية التأسيسية ان تعمم الاعدام بقطع الرأس على كل المحكوم عليهم بالاعدام ، وكان من قبل مقصورا على طبقة النبلاء ، أما المجرمون العاديون فكانوا يعدمون شنقا . واخترع الدكتور جيلوتان آلة ذات حد قاطع لحز الرؤوس بسرعة وبدقة وبدون ألم بدلا من استعمال البلطة . فعين الدكتور انطوان لويس Antoine Louis السكرتير الدائم لأكاديمية الجراحة ليدرس الموضوع ، فكتب تقريرا يزكى فيه هذا الاختراع ، وبالفعل صدر مرسوم يقرر استعمال هذه الآلة . وكان الناس فى البداية يسمون هذه الآلة « لويزون » Louison أى « لويزا الصغيرة » نسبة الى اسم الدكتور انطوان لويس صاحب التقرير . ولكن نشرة رسمية صدرت بعد ذلك وأسمتها « جيلوتين » Guillotine وهى الصيغة المؤنثة من اسم «مخترعها جيلوتن» ، وكأنها بنته الصغيرة . وقد تم ذلك رغم احتجاج الدكتور جيلوتان الذى كان لا يريد أن يقترن اسمه بهذه الآلة المرعبة التى نسميها « المقصلة » .

وقد استخدمت المقصلة لأول مرة فى ٢٥ ابريل ١٧٩٢ لحز رتبة أحد اللصوص . وقد أوشك الدكتور جيلوتان نفسه أن يلقي حتفه على هذه المقصلة التى اخترعها حين قبض عليه فى عهد الارهاب بين المشتبه فيهم سياسيا . ولم ينقذه الا سقوط روبسبير ورجاله فى ترميدور ، واعدامهم فى اليوم التالى .

Comte de Mirabeau

أما الكونت دى ميرابو

« ١٧٤٩ - ١٧٩١ » ، صاحب العبارة الشهيرة « نحن هنا بارادة الشعب ولن نخرج من هنا الا على اسنة الحراب » ، فقد كان من

أخطب خطباء الثورة الفرنسية ، وكان أصلا من طبقة النبلاء ولكن طبقته تبرأت منه لانحيازهم المستمر للجماهير . وكان في شبابه مستهترا امتلأت حياته بالديون والفضائح ، حتى انه اعتقل بناء على طلب أبيه كما جرت العادة بين نبلاء ذلك الزمان حين يعجز أب عن تقويم ولده فيستنجد بالملك ليؤدبه . وفي فترة اعتقاله هرب مع صوفي مونييه Sophie Monnier زوجة قومندان السجن ، وفر الى انجلترا وهولندا ، ثم قضى ٤٢ شهرا في سجن فانسين « ١٧٧٧ - ١٧٨٠ » وعاش بعد ذلك من قلمه في مختلف البلاد الأجنبية يكتب الكتيبات والمنشورات ضد الملكية المطلقة . وفي انتخابات « مجلس الطبقات » رفضته طبقته ، ولكنه فاز فوزا مبينا كتائب عن « الطبقة الثالثة » في اكس ان برفانس ومرسيليا .

وقد استخدم ميرابو بلاغته العظيمة في الدعوة للديمقراطية ، ولكن حدود الديمقراطية عنده كانت الملكية المقيدة أو الملكية الدستورية . وفي مايو ١٧٩٠ اتصل ميرابو سرا بالبلاط فاشتراه القصر الملكي ليدافع عن سياسته مقابل ان يدفع القصر ديونه . ولما مات ميرابو في ٢ ابريل ١٧٩١ ، كان أول من دفن من رجال الثورة الفرنسية في البانتيون « مقبرة الخالدين » ولكن رفاته نقلت في ٢١ سبتمبر ١٧٩٤ عندما أكدت الدلائل تواطؤه مع القصر .

كان ميرابو أهم بطل من أبطال الثورة الفرنسية في عاميها الأولين . كان المواطن الأول وكان الخطيب الأكبر . وقد ظل حتى نهاية الجمهورية الثالثة بطل الثورة الأعظم في ذمة التاريخ يطلق اسمه على الشوارع والميادين والكبارى . ولكن الشعب الذي مجده حتى وفاته هو الشعب الذي نادى بشنقه قبيل وفاته لأن الأخبار ترامت بتواصله مع القصر ، وبأن ماري انطوانيت استدرجته فوق في فخاخها ، ثم تبين انها كانت تتلاعب به وهو الضعيف أمام النساء وأمام المال .

وفي ٩ يوليو ١٧٨٩ قبل سقوط الباستيل بأيام أعلنت
« الجمعية الوطنية » ان اسمها الجديد هو « الجمعية الوطنية
التأسيسية » وان مهمتها هي وضع دستور للبلاد . وكان ميرابو
فيها هو المدافع الأول عن الحريات رغم احترامه للنظام الملكي ،
فدعوة الجمهورية لم تكن قد طرحت بعد ، وهي لم تطرح الا بعد
هرب الملك والملكة للجوء الى أعداء البلاد . .

٤ - ميرابو

كان عمر الكونت دى ميرابو « ١٧٤٩ - ١٧٩١ » أربعين عاما عندما قامت الثورة الفرنسية وسقط الباستيل . وكان فى شبابه متلافا محبا للنساء غارقا فى الديون ، مليثا برذائل طبقته الارستقراطية . وكان يرى فى أبيه صورة للطاغية المنحط الاخلاق لانه كان يحبس عنه المال رغم ثرائه الواسع ، فقد كان من طبقة النبلاء ، ويتحدث دائما عن الفضيلة وهو الذى هجر زوجته من أجل خادمته . بل لقد سجن ميرابو عدة مرات بناء على طلب أبيه الذى استصدر من الملك لويس السادس عشر أمرا باعتقاله فى سجن فانسين لتأديبه حيث قضى ثلاث سنوات ونصف السنة متصلة منذ ١٧٨٠ بموجب « خطاب مختوم » مهور بتوقيع الملك ، كما كانت تسمى أوامر الاعتقال خارج ما رسم القانون فى ذلك

● نشرت بجريدة الاهرام
بتاريخ ١٩٨٩/٨/٥ .

الزمان ، فقد كان النبلاء أحيانا يلجأون الى الدولة لتأديب أولادهم الذين يعجزون هم عن تأديبهم .

فلا غرابة اذن ان يرى ميرابو فى لويس السادس عشر رمزا للملك الطاغية ، وان يتأثر بالأفكار الانجليزية الراضية للملكية المطلقة والقائمة على الملكية الدستورية . وكانت هذه هى الدعوة السائدة بين أكثر المفكرين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، عصر التنوير : نجدها فى فولتير وفى مونتسكيو والمدرسة العقلانية بوجه عام . قال ميشليه : وعندما اجتمع « مجلس الطبقات » . « كان ميرابو حاضرا . وجذب اليه أنظار جميع النواب ، بشعره الضخم المعقوص ، وبرأسه الذى يشبه رأس الأسد ويحمل ملامح دمامة شديدة أدهشت الحاضرين ، بل أكاد أقول أذهبتهم ، فلم يمكن للأنظار أن تتحول عنه . كان من الواضح أن هذا كان رجلا ، وأن الباقين كانوا أشباحا . كان مع الأسف رجلا من عصره ومن طبقته ، مليئا بالردائل مثل أبناء المجتمع الراقى فى زمانه ، مثيرا للفضائح فضلا عن ذلك ، شديد الجلبة ، جريئا فى ردائله ، وهذا ما قضى عليه . كانت على السنة الناس حكاياته ومغامراته وسجنه وغرامياته الهوجاء ، فقد كانت غرامياته عنيفة وجامحة وهوجاء . وكثيرا ما قادت شهوراته الى الحضيض . كن فقيرا بسبب قسوة أسرته فعرف البؤس المعنوى ، فقد اجتمعت له ردائل الفقراء مع ردائل الأغنياء : عرف طغيان الأسرة وطغيان الدولة والطغيان المعنوى النابع من داخله ، من شهواته . فلم يكن هناك من هو أكثر حماسا منه لاستقبال فجر الحرية . . كان يقول لأصحابه انه سيولد من جديد مع ميلاد فرنسا الجديدة . . ورغم ما أصاب وجهه من شحوب وترهل ، كان دائما يمشى رافع الرأس جرى النظرات ، وأحس كل الناس انه كان يمثل صوت فرنسا العظيم » الكتاب الأول ، الفصل الثانى » .

كان يؤمن بضرورة التوازن بين سلطة العرش وسلطة « الجمعية الوطنية » : عرش ضعيف لا خير فيه وبرلمان ضعيف لا خير فيه . ولكنه كان يعمل علنا لتقوية سلطة البرلمان ، ويعمل سرا لتقوية سلطة الملك ، وهذا ما جلب عليه الكوارث فى النهاية عندما افتضح أمره ، ولا سيما بعد وفاته . وازداد الموقف سوءا عندما تأكد انه كان يبيع خدماته للعرش مقابل المال ليسدد ديونه ، وان علاقاته بالبلاط كانت قائمة حتى قبل الثورة ، وقد أصبح ميرابو مستشارا سرى للملك والملكة .

كانت الملكة مارى انطوانيت قد اشترت فى ١٧٨٥ قصرا ملكيا جديدا فى ضاحية سان كلو Saint-Cloud خارج باريس وانتقلت اليه مع زوجها الملك لويس السادس عشر . وكأنا شبه أسيرين فى هذا القصر منذ سقوط الباستيل . فقد كانا يتجولان فى حدائقه ، بل ويقومان ببعض الزيارات الخاصة فى حرية نسبية ، وكان يحيط بهما الحرس الوطنى الذى بقى نسبيا على ولائه لهما حتى أوائل ١٧٩٠ . وكانت الملكة وهى تمر فى مركبتها تسمع بعض نساء الشعب يهتفن ضدها قائلات : « يحيا دوق أورليان ! » . فقد كان فيليب دوق أورليان ، ابن عم الملك وغريمه يتودد الى الجماهير باسم الديمقراطية ، حتى لقبوه « فيليب المساواة ! » Philippe Egalité وقد لعب دورا فى الاطاحة بلويس السادس عشر ، فتمتقع الملكة وتوشك أن تنهات ، ومع ذلك فقد كانت تماسك لشدة غطرستها واحتقارها للرعاع .

وفى ٣ يوليو ١٧٩٠ كانت الجمعية التأسيسية التى تضع الدستور تناقش مادة على غاية ما يكون من الخطورة ، وهى : أيهما يملك الحق فى اعلان الحرب والسلم ، الملك أم الجمعية الوطنية ؟

وفى ٣ يوليو ١٧٩٠ كان هناك موعد مرتب بين ميرابو والملكة مارى انطوانيت فى حدائق قصر سان كلو بعد - ان - تقاضى ميرابو

من القصر مبلغا من المال فى نهاية شهر مايو ، ودافع فى الجمعية التأسيسية عن حق الملك فى اعلان الحرب والسلم ، بما جعل الجواهر تتألب عليه فى حدائق قصر التويلرى فى قلب باريس وتطالب باعدامه شنقا بوصفه عدو الشعب .

وليس هناك بين المؤرخين من عثر على فحوى ما دار بين الملكة وميرابو من مفاوضات وان كان بعضهم يوحى بأن ميرابو طرح على ماري أنطوانيت تصوراته لكيفية انقاذ العرش وحرية الشعب معا ، أما الملكة فلم تفصح عن شيء كثير ، بل احتفظت بأفكارها لنفسها . وعلى كل ففى نهاية المقابلة قال ميرابو للملكة : « يا سيدتى ، عندما كانت جلالة أمك المعظمة تعطى واحدا من رعاياها شرف المشول فى حضرتها ، لم تكن أبدا تصرفه دون ان تعطيه يدها ليقبلها » قدمت ماري أنطوانيت يدها لميرابو فقبلها . وانحنى ميرابو قائلا فى حرارة وشموخ : « سيدتى أن الملكية قد انقذت ! » .

ولكن التاريخ يقول أيضا أن ميرابو الذى خرج من عند الملكة راضيا بما غمرته به من عطف خرج أيضا مخدوعا ، لأن الملكة كتبت لعميلها فى المانيا مسيو دى فلاكسلاندن Flachslanden تقول انهم فى البلاط يستخدمون ميرابو ، ولكن ليس فى علاقتهم به شيء يؤخذ مأخذ الجدة » .

ويوحى ميشنليه ، الذى يضيف دائما جوار رومانسيا على أحداث التاريخ وشخصياته ، ان هناك بعدا عاطفيا فى هذا اللقاء بين ماري أنطوانيت وميرابو الى جانب البعد السياسى المعروف ، فهو يقول ان الملكة اكتشفت فى هذا المهييج السياسى المرعب ، قلب انسان رقيق على طريقته الخاصة .

مات ميرابو بعد شهر من لقاءه هذا بالملكة . كانت صحته فى تدهور مستمر بسبب اسرافه فى ارضاء شهواته ، وبسبب

ضراوة صراعاته مع الغير وضراوة صراعاته مع نفسه . قال ميشليه : « كلا . ان ميرابو لم يمت الا من كراهية الشعب له . كان معبودا ثم كفروا به ، كان له نصره العظيم فى اقليم بروفانس حيث أحس انه يرتاح على صدر الوطن ، ثم فى مايو ١٧٩٠ تظاهر الشعب فى حدائق التويلرى وطالبوا به لشنقه ! . . . وكان هو نفسه يواجه هذه العاصفة بضمير غير نقى ، كان يضع يده على صدره ، فلا يحس الا بالمال الذى تلقاه من البلاط فى الصباح » . . هذا عند ميشليه ماجره الى القبر فى سن مبكرة : انه اكتشف انه كان ضحية خديعة كبرى ، ان الملكة كانت تضمم شيئا آخر غير مصالح الشعب . كانت تحاول تأليب الأقاليم على « الجمعية الوطنية » حتى يمكن حل الجمعية الوطنية وتشكيل جمعية أخرى تقوم بتعديل الدستور الذى وضعته الجمعية التأسيسية .

لقد كانت مأساة ميرابو الحقيقية هى كيف تميز حاجته للمال وكيف تميز ايمانه بضرورة حفظ التوازن بين سلطة العرش وسلطة الأمة بهذا وحده يمكن تفسير تفانيه فى خدمة الشعب والعرش معا . ولكن الملك الأعمى وبلاطه الرجعى وارسنقراطيته المنحطة كانوا لا يرون فى ميرابو الا سمسارا سياسيا . أما القيادات الشعبية فى « الجمعية الوطنية » فقد كانت ترى فيه عميلا للبلاط . وقد ذكر هو ذلك فى خطابه لأصدقائه كما ورد فى كتاب نوجاريه Cbaassinand-Nogaret : « ميرابو » .

كانت أكبر معارك ميرابو الأولى تتصل بقضايا الحرية والمساواة والغاء الامتيازات الطبقية ثم حماية العرش من دكتاتورية الشعب .

وقد تمثلت الأزمة الأولى فى اصرار الملك وطبقة النبلاء على الفصل بين الطبقات فى اجتماعات « مجلس الطبقات » بحيث يجتمع ممثلو كل طبقة على حدة ويجرى التصويت على الضرائب

ومشروعات القوانين فى كل مجلس على حدة ، وبهذا يتأكد مبدأ فصل الطبقات من جهة وينعدم مبدأ المساواة بين المواطنين من جهة ثانية ، وتهدر الأغلبية المرجحة « للطبقة الثالثة » فى السلطة التشريعية من جهة ثالثة ، لأن نسبتها تكون دائما نسبة ١ الى ٢ فى القرار الأخير : أى صوت واحد « للطبقة الثالثة (الشعب) ، ضد صوتين « لطبقة النبلاء » و « لطبقة رجال الدين » .

فقد كان مجموع عدد النواب فى البرلمان أو « مجلس الطبقات » ١١٥٤ نائبا ، منهم ٢٩١ يمثلون رجال الدين ، و ٢٨٥ يمثلون النبلاء ، و ٥٧٨ يمثلون الطبقة الثالثة ، أى « الشعب » . ومعنى هذا انه فى أية محاولة لاعتبار البرلمان وحدة واحدة ، تكون لممثلى الشعب أغلبية دائمة من ٥٧٨ صوتا حتى لو اتحدت كلمة النبلاء ورجال الدين ، ومجموعهم معا ٥٧٦ نائبا .

وقد ازداد الأمر خطورة حين تبين منذ اللحظة الاولى بعد الانتخابات ان طبقة رجال الدين انقسمت على نفسها فانضمت أغليبيتها وهم فقراء القساوسة وعددهم أكثر من مائتين ، الى « الطبقة الثالثة » ولم ينضم الى طبقة النبلاء الا نحو ثلاثين نائبا من صدور الكنيسة كالكرادلة والأساقفة .

فاذا ذكرنا ان بعض نواب النبلاء كانوا فى جانب الشعب بسبب الاستنارة الفكرية أو للخصومات الشخصية أو للمصلحة الخاصة ، كانت الحصيلة النهائية انه فى حالة ادماج الطبقات الثلاث فى برلمان واحد ذى مجلس واحد تكون لنواب الشعب أغلبية دائمة ساحقة قوامها نحو ٨٠٠ صوت وتكون لطبقة النبلاء اقلية دائمة واضحة قوامها نحو ٢٥٠ صوتا . وكان هذا وحده كافيا لتصفية المجتمع الاقطاعى والغساء الامتيازات الطبقية ، كافيا لعجن الأمة الفرنسية فى عجينة واحدة .

وهذا ما أخاف الملك والنبلاء فاعترضوا على هذا الادماج فى احتقار شديد . بل ان الخطبة الملكية لم تتحدث عن تمثيل الملك « لشعبه » بل تحدثت عن تمثيل الملك « لشعوبه » وكأنما له ثلاثة شعوب فى فرنسا هم الارستقراط ورجال الدين والعامه .

وقد كانت الأفكار الانجليزية ، أى مبادئ الملكية الدستورية ، منتشرة فى فرنسا وقت هذا القلق العظيم : وهذا ما حدا بالطبقة الثالثة أولا ان تسمى نفسها « مجلس العموم » فهناك أيضا « مجلس لوردات » . وهذا يتضمن اعترافا صريحا بأن المجتمع مكون من طبقتين لا من طبقة واحدة . وربما كان من الممكن أن تقف الأمور عند هذا الحد لولا تعنت الملك وصلف النبلاء الذين أصروا على انفصال الطبقات الثلاث لا فى القاعات وحدها ولكن فى القرارات نفسها ، حتى التحقق من صحة العضوية والطعون قد أصروا على أن تقوم بها ثلاث لجان منفصلة ، كل طبقة تفحص أوراق ممثلي طبقتها على حدة .

وهذا ما دفع « الطبقة الثالثة » ، ومن ورائها كل هذه الأغلبية الساحقة ان تقفز هذه القفزة الكبرى فتسمى نفسها « الجمعية الوطنية » L'Assemblée Nationale أو حرفيا « جمعية الأمة » ، أو ما نسميه نحن « مجلس الأمة » . ليس فى فرنسا امتان « نبلاء وعامه » وانما فيها أمة واحدة هى الأمة الفرنسية بجميع طبقاتها وفئاتها وكلهم متساوون فى الحقوق والواجبات . بهذا يتحقق مبدأ المساواة .

وفى خارج الجمعية الوطنية كانت جماهير فرساي تظاهر الطبقة الثالثة بالمظاهرات وتهين النبلاء وكانت باريس تغل ومن ورائها الاقاليم . كان سقوط الباستيل رمزا لانتصار الحرية ، وكان انشاء « جمعية الأمة » رمزا لانتصار المساواة .

وكان البطل الثانى بعد ميرابو فى هذه المرحلة هو سيزيز
Sieyes قال سيزيز : « ان الواجب العاجل على كل ممثلى الأمة ،
أيا كانت طبقة المواطنين التى ينتمون اليها ، ان يكونوا بلا تأجيل
جديد جمعية عاملة قادرة على البدء فى مزاولة نشاطها وعلى تحقيق
رسالتها » . وبدأت الجمعية العمل بدعوة الطبقتين الآخرين للنظر
فى صحة عضوية الأعضاء أى صحة تفويضات النيابة .

وكان سيزيز معتدلا مثل ميرابو ، فاقترح ان تسمى جمعية
العموم نفسها « جمعية النواب » أو « مجلس النواب » كما كنا
نقول نحن فى دستور ١٩٢٣ . وكان ميرابو يخشى الانزلاق الى
التطرف فى تجاهل النبلاء والتكلم باسم « الأمة » كلها بما يستفز
الملك الى حل البرلمان « مجلس الطبقات » وبذلك تخسر « الطبقة
الثالثة » كل شئ ويعود النبلاء لحكم البلاد حكما مطلقا من خلال
الملك وتبدأ أعمالهم الانتقامية من « العموم » دون أن يكون لهم
ذلك الشرف البغيض ، شرف جر البلاد الى حرب أهلية » . وبناء
عليه اقترح ميرابو على مجلس العموم ان يسمى نفسه « مجلس
الشعب » *Assemblée du Peuple* دون ادعاء انه يمثل كل
الأمة .

وسئل ميرابو ان كان فى تصويره مكان للمجلس ثان « كمجلس
اللوردات » ، فاجاب : كلا . . فالمجلس لن يعترف « بأى اعتراض
من الطبقات الممتازة ولا بأى حق فى اتخاذ قرارات منفصلة عن
قراراتنا » ، واستقبل الأعضاء خطابه باستياء واضح وازداد
الاستياء عندما أيد عضو اسمه مالويه *Malouet* فقد كان الأعضاء
يشتهون فى ان مالويه كان يعمل لحساب وزير المالية نكر *Necker*
وهاجم ميرابو عضو اسمه توريه *Thouret* مهاجمة عنيفة قائلا
ان كلمة « الشعب » تحمل معنى « الرعاع » لأن كلمة *Peuple*

كلمة غامضة فهي ترادف كلمة Plebe اللاتينية بمعنى « الرعاى » وفى هذه الحالة توافقون على فصل الطبقات » ، أو ترادف كلمة Populus اللاتينية بمعنى « الأمة » وفى هذه الحالة تتجاوزون بكثير مراد « مجلس العموم » .

وطرح عضو مغمور اسمه ليجران Legrand اسم « جمعية الأمة » هذا الذى نترجمه الآن بعبارة « الجمعية الوطنية » . واحتدمت المناظرة بين ميرابو وخصومه الى حد المهاترات وابهام ميرابو بأنه عميل السلطة ، وأخذت الأصوات ففاز اسم « جمعية الأمة » أى « الجمعية الوطنية » كما نترجمها فى العربية ، بأغلبية ٤٩١ صوتا ضد ٩٠ صوتا .

وتحققت مخاوف ميرابو . قال ميرابو : « خسارة ! انهم كانوا يتوهمون انهم فرغوا من كل شىء ، ولكنى لن أدهش اذا جاءت الحرب الأهلية ثمرة لقرارهم البديع هذا » . وبالفعل أصيبت طبقة النبلاء برعب حقيقى وانتابتها حالة سعار لأنها أدركت أنها على وشك أن تفقد كل امتيازاتها الاقطاعية وكانت أول نتيجة لدعوة المساواة ان الملك أدخل « الطبقة الثالثة » الى « مجلس الطبقات » فى فرساي من سلم الخدم .

ولما وقعت الواقعة وبدأ التحدى العظيم وجد ميرابو نفسه مرة أخرى يقود نواب الشعب ثم الجماهير فى كفاحهم وكفاحها من أجل الحرية والمساواة . كتب ميرابو يقول : « ألا يبدو مجافيا للمنطق ان توضع مصالحي مائتى ألف شخص يتمتعون بالامتيازات الطبقية فى موضع التعارض مع مصالحي خمسة وعشرين مليوناً من المواطنين ؟ » (نوجاريه : « ميرابو » ص ١٦٣) .

حين كان ميرابو على فراش الموت فى ربيع ١٧٩٠ ، قال : « أنا أمضى وأحمل معى رفات الملكية ، وسوف تتنازع على انقباضها

«الأحزاب المتناحرة» .. كأنما كان يتنبأ بما سيجرى من أحداث
دموية فى الثورة الفرنسية .

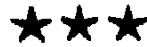
كتب ميشليه يصف لحظات ميرابو الأخيرة :

« وسمع طلقة مدفع فصاح منتفضا : أهذا جناز أقيم قبل
الأوان ؟ » .

وفى صباح ٢ إبريل فتح نوافذ بيته وقال لى « المتحدث هو
طبيبته كاباتيس » أنا سأموت اليوم يا صديقى ، وعندما نصل الى
النهاية لا يبقى أمامنا الا شئ واحد : ان نتعطر وان ننتوج بأكاليل
الزهر وان نحيط أنفسنا بالموسيقى لكى ما ندخل برضا فى النوم
الذى لا صحو منه » . ثم استدعى خادمه الخاص وقال : « هيا
جهاز لحلاقتى ، ولغسلى وتزيينى بالكامل » ..

ومات نحو الثامنة والنصف ..

وكان الحزن عليه عظيما وشاملا فسكرتيره الذى كان يعبد
والذى جرد سيفه عدة مرات من أجله ، أراد أن ينتحر بحز رقبتة ..
وأغلق الناس المسارح بل وفضوا بصياحهم حفلا راقصا كان يفسد
هذا الحزن الحميم .



وفى ٣ إبريل تقدمت محافظة باريس للجمعية الوطنية بطلب
ووفق عليه ، وهو أن تخصص كنيسة سانت جنفييف كمقبرة
لعظماء الرجال ، وان يكون ميرابو أول من يدفن فيها ، وان يكتب
على واجهة الكنيسة : « الوطن عارف بجميل عظماء الرجال » وكان
مذفونا فيها ديكارت ثم لحقه فيها فولتير وروسو . ولكن الآراء

تضاربت فمنها أن في ٤ ابريل كانت أكبر جنازة عرفها العالم
واكثرها شعبية قبل جنازة نابوليون في ١٥ ديسمبر ١٨٤٠ وكان
الشعب وحده هو الذى يحافظ على النظام ، ونجح ذلك نجاحا يدعو
الى الاعجاب فلم يقح حادث واحد في هذا الجمع المتكون من ٣٠٠ ألف
أو ٤٠٠ ألف مشيع . وكانت الشوارع والنوافذ والأسطح والأشجار
ملأى بالمشاهدين .

وعلى رأس الموكب مشى لافاييت يحفه اثنا عشر من رجاله
في صورة حلقة حاجزة . ثم مشى ترونشيه رئيس الجمعية الوطنية ،
وراءه كل أعضاء الجمعية قاطبة دون تمييز بين أحزابهم السياسية .

وبعد أعضاء الجمعية الوطنية مباشرة مشى قبل كل الهيئات
أعضاء نادى اليعاقبة ، مشوا في كتلة متراسة وكانهم جمعية وطنية
أخرى واعرابا عن حزنهم أعلنوا الحداد ثمانية أيام ، وكل عام
للمذكرى السنوية الى ما لا نهاية .

ولم يستطع هذا الجشد الوصول الى كنيسة سان يوستاش
Saint-Eustache الا في الساعة الثامنة والقي سيرونى خطبة
رثائه . وأطلق عشرون ألفا من الحرس الوطنى من بنادقهم وصاصة
الوداع فتكسر زجاج كل النوافذ ، وظن الناس لحظة أن الكنيسة
ستنهار على التابوت .

واستأنفت الجنازة سيرها على ضوء المشاعل وكان الحزن
مهيبا ، فقد كانت هذه أول مرة لا يسمع الناس فيها الا آلتين
موسيقيتين غاية ما يكون في القوة هما النغير والطبلة . وكان
لحنهما متباعدا تماما فهصر القلوب هصرا . وبلغ الموكب كنيسة
سانت جنييفيف في وقت متأخر من الليل .

ومنذ موت ميرابو سارت الثورة فى منحدر سريع مشمت فى طريق غائم يؤدى اما الى النصر واما الى القبر . وفى هذا السبيل افتقدت الثورة رجلا كان رفيق طريقها المجيد ، رجلا كبير القلب ، رجلا بلا مرارة ولا ضغينة ، سخي مع أقسى أعدائه . لقد مضى ميرابو وأخذ معه شيئا لم يكن معروفا من قبله ، ولم يعرف الا بعد أن فات الأوان ، ألا وهو روح السلام وقت الحرب ، والطيبة رغم سيطرة العنف : أخذ معه الوداعة والانسانية .

أما لامارتين Lamartine الذى بدأ كتابه « تاريخ الجيرونديين Histoire des Girondins بموت ميرابو ، فقد قال فيه :

هذا المهيج الجماهيرى العظيم لم يكن أكثر من رجل من رجال البلاط المدعورين الذين يحتمون بالعرش وهم لا يزالون يتشددون بكلمات رهيبة مثل كلمة « الأمة » وكلمة « الحرية » رجل جعله دوره الذى أداه يصاب فى روحه بكل صغار البلاط وبكل أفكارهم المخروقة . ان عبقريته تدعو للثناء حين نراه يصارع المستحيل . لقد كان ميرابو أقوى رجال عصره ولكن أقوى الرجال لا يبدو أكثر من مجنون اذا ما صارع عناصر الطبيعة فى هياجها . ان الانهيار لا يكون جليلا الا اذا سقط المنهار مع فضيلته » .

[الكتاب الأول ، الفصل الثانى]

أما ادجار كينييه Edgar Quinet فيلخص الموقف بقوله : « ان فساد ميرابو هو الذى جاء بروبسبير الذى لا سبيل الى افساده » .

٥ - النظام الاقطاعى

انتصرت الجمعية الوطنية على الملك لويس السادس عشر عندما قررت فى ١٧ يونيو ١٧٨٩ ان تطلق على « مجلس الطبقات » اسم « الجمعية الوطنية » أو « مجلس الأمة » وبذلك ادمجت مجلس النبلاء ومجلس رجال الدين ومجلس الشعب فى مجلس واحد لا طبقات فيه ، أى ادمجت طبقات فرنسا كلها فى أمة واحدة . ثم انتصرت عليه مرة أخرى عندما أمرها ، فى غطرسة الحاكم المطلق ، ان تنفض وتعود للانعقاد فى شكلها الطبقي القديم ، فتمحدثه فى ٢٠ يونيو ١٧٨٩ عندما أقسم أغلبية أعضائها على ميثاق ملعب التنس الا تنفصل أبدا الى طبقات مستقلة ، وعلى ان الجمعية الوطنية سيادة على نفسها وعلى قرارها .

فلم يكن أمام الملك أمام اتحاد أغلبية نواب الأمة الا طريقان :
أما الرضوخ لارادة الأمة بالموافقة على هذا القرار الذى صفى

● نشرت بجريدة الامرام

بتاريخ ١٢/٨/١٩٨٩ .

« النظام القديم » بالغاء مجلس الطبقات المتخلف من عصور الاقطاع ،
وأما التحرك لحل هذا المجلس الثائر وتشيتت أعضائه .

والواقع ان لويس السادس عشر ، منذ أن ثار نبلاؤه على سلطاته
المطلقة قبل ذلك بعامين أصبح مجرد أداة فى يد طبقة النبلاء ،
يحركه اخوة الكونت دارتوا 'omited' Artois وامناله من الرجعيين ،
ولذا اختار الطريق الثانى وسار فى سكة الندامة . اختار التحرك
لحل الجمعية الوطنية الشائرة وتشيتت أعضائها . وفى نفس اليوم
الذى أصدر فيه الملك قراره باندماج الطبقات الثلاث فى هيئة نيابية
واحدة حشد الملك حول باريس وفى ضاحية فرساي Versailles
مقر الحكم (القصر الملكى والجمعية الوطنية) ، جيشا قوامه
٢٠٠٠٠ جندي ، استعدادا لحل الجمعية الوطنية .

وهكذا التهب المشاعر داخل الجمعية الوطنية وفى الشارع
الفرنسى ، فى باريس وخارج باريس . وأخذ رجل الشارع يتحدث
عن « المؤامرة الارستقراطية » . وفى أول يوليو ١٧٨٩ نشر مارا
Jean-Paul Marat منشورا بعنوان « بيان للشعب ، أو « كشف
النقاب عن الوزراء ، جاء فيه : أى أخوتى المواطنين ، راقبوا دائما
سلوك الوزراء لتبذوا عليه سلوككم ان هدفهم هو حل جمعيتنا
الوطنية ، ووسيلتهم الوحيدة هى الحرب الأهلية . ان الوزراء
يشعلون الفتنة ! .. انهم يحيطونكم بجهاز العسكر الخطير وبالحراب .

وفى ٨ يوليو ١٧٨٩ قررت الجمعية الوطنية بناء على تقرير
من ميرابو ، توجيه طلب الى الملك تطلب منه فيه ابعاد الجند الذين
كان أكثرهم من السويسريين والالمان ، جاء فيه : « ما الداعى اذن
ان يستدعى ملك يعبد خمسة وعشرون مليونا من الفرنسيين بضعة
آلاف من الأجانب حول عرشه متكيدا باهظ النفقات ؟ » فرد الملك
فى ١١ يوليو عن طريق حائل أختامه انه ما جمع كل هذا الجند الا

ليبقى تجدد الفتن . وفى نفس اليوم أقال وزير المالية نيكر Necker وعين مكانه وزيرا من الداعيين صراحة الى الثورة المضادة ، هو البارون دى بريتوى Baron de Breteuil واستدعى المارشال دى بروجلى Marechal de Broglie وزيرا للحرب .

وأخس الشعب أن ساعة المواجهة اقتربت وعد المولون وأصحاب ريع الأملاك طرد نيكر بمثابة نذير بافلاس الدولة . واحتج تجار العملة بإغلاق البورصة فى ١٢ يوليو ، وتدهورت الأحوال ، وأغلقت المسارح وانتشرت الاجتماعات والمظاهرات وخطب كاميل ديمولان Camille Desmoulins فى الجماهير فى الباليه رويال Palais Royal ، وفى حدائق التويلرى Tuileries القصر الملكى القديم تصادمت الجماهير المتظاهرة بقوات الأمير لامبيسك Lambesc فدقت النواقيس منذرة بالخطر ونهبت الجماهير دكاكين السلاح .

وفى ١٣ يوليو أعلنت الجمعية الوطنية تقديرها لنيكر والوزراء المقالين وأسفها لاقالتهم ، وتجددت المظاهرات العنيفة والبحث عن السلاح .

وفى ١٤ يوليو كان الزحف الكبير وكان سقوط الباستيل ، وهكذا أنقذت الجماهير الهادرة الجمعية الوطنية من الحل الذى كان رتبته لها لويس السادس عشر . وسحب الملك قواته من المنطقة بناء على نصيحة بعض النبلاء المعتدلين الراغبين فى انقاذ الملكية ، واغتنمت الطبقات المتوسطة ، فرصة انتصار الجماهير فى الباستيل وأقامت فى دار البلدية (الهوتيل دى فيل) مجلس ثورة أسمته كوميونة باريس Commune de Paris وانتخب بالى Bailly عمدة باريس ، وعين لافاييت Lafayette قائدا للمليشيا البورجوازية التى سميت « الحرس الوطنى » .

وتراجع الملك فاعاد نيكرو الى الوزارة فى ١٦ يوليو وقبل أن ينتقل من فرساي الى قصر التويلرى فى باريس تحت ضغط المظاهرات واستقبله العملة بالى فى دار البلدية ، واهداه الكوكارد La Cocarde وهى الشارة المثلثة الألوان رمزا لوحدة الشعب والملك . وقال الملك فى لحظة انفعال : « يستطيع شعبى أن يعتمد على حبل له » .

وسخطت الارستقراطية سخطا شديدا على انهيار الملك أمام أحداث منتصف يوليو ١٧٨٩ ، فبدأت حركة هجرة النبلاء من فرنسا : فى فجر ١٧ يوليو هاجر الكونت دارتوا مع أسرته ومعيته الى هولندا ، وتبعه فورا البرنس دى كوندية Prince Condo وكل أسرته . وهاجر دوق ودوقة بولنيك Polignac الى سويسرا ، وهاجر المارشال بروجى الى لكسمبورج . وتبعهم المئات ثم الآلاف من النبلاء .

.. وكما حدث فى باريس استفادت البورجوازية (أى الطبقات المتوسطة) من ثورات الشعب فى المدن فاستولت على السلطة وسيطرت على المجالس البلدية ونظمت فى كل مدينة ميليشيا بورجوازية تحت اسم الحرس الوطنى .

كان تعداد فرنسا أيام الثورة الفرنسية نحو ٢٥ مليون نسمة (فى تقدير نيكرو ٢٤٧ مليون وفى تقدير سوبول Albert Soboul نحو ٢٧٥ مليون نسمة) بينما كان تعداد انجلترا فى نفس الفترة ٩ ملايين نسمة وتعداد اسبانيا ١٠٥ مليون نسمة . وقد أدى تضخم السكان فى فرنسا الى غلاء أسعار الأغذية ولا سيما فى المدن المتضخمة .

وكان اقتصاد فرنسا قائما على الزراعة بصفة أساسية ، مما جعل الطبقة الحاكمة من كبار الملاك الزراعيين ، ولكن نمو الطبقات

المتوسطة المعروفة بالبورجوازية (الصغيرة والمتوسطة والعليا) عبر القرون غير مضمون المجتمع الفرنسى دون أن يحدث أى تغيير فى الهيكل السياسى أو القانونى أو الاجتماعى التقليدى المتوارث عن العصور الوسطى . فظلت الطبقات المتوسطة رغم استفحالها محرومة من المشاركة فى حكم البلاد . وهذا الصدع الكبير بين الشكل والمضمون مع انتشار حركة التنوير ويقظة الجماهير والضييق الاقتصادى الشديد الى حد الجوع أحيانا هو الذى فجر الثورة الفرنسية .

كان المجتمع الفرنسى حتى الثورة الفرنسية مجتمعا اقطاعيا أسسه من مخلفات العصور الوسطى . وكانت أهم هذه الأسس هي تكون المجتمع من ثلاث طبقات تسودها علاقات قانونية وفعلية قائمة على فلسفة تقول ان اختلاف الوظائف ينبع من فوارق أصيلة بين البشر وبالتالي يحتم انعدام المساواة بين البشر . وقد كرست الكنيسة هذه الفلسفة وهذا النظام لأنهما كانا يدعمان سلطانها وامتيازاتها .

هذا التقسيم الطبقي فى العصور الوسطى جعل الناس كالآتى :

(أ) طبقة من يصلون وهؤلاء هم رجال الدين .

(ب) طبقة من يحاربون وهؤلاء هم النبلاء .

(ج) طبقة من يعملون لاطعام الباقين وهؤلاء هم « الشغالة » Laboratores . وهم الطبقة الثالثة . وقد اغتصب النبلاء الأرض من الشغالة لأنهم كانوا يعيشون بالسيف ولم يمتلكوا الأرض وحدها ولكن امتلكوا ما عليها من الشغالة فجعلوهم رقيقا أو اقنانا وفرضوا عليهم التزامات وواجبات محددة مثل الخدمة العسكرية ، ومثل العمل بالسخرة فى أرض النبيل الذى يوفر لهم الحماية ، ومثل

اقتسام المحصول مع النبيل فيما يزرعون من أرض ، وهو نوع من المزارعة بالأكراه أساسه ان حق الرقبة على الأرض ، أى الملكية ، للنبيل وحق الانتفاع بمقابل للفلاحين الأقنان :

وكان النبلاء يرثون أو يشترون الأرض ومن عليها من اقنان بقوة القانون مما ربط الفلاحين بأرض النبيل وشخصه وحدد حريتهم فى الانتقال وبعد ان كانت هذه الحيازات البشرية مجرد اغتصاب بقوة السيف . أصبحت لها وثائق مسجلة وأسس قانونية . كذلك كانت للنبلاء حقوق على المراعى وما فيها من قطعان وعلى الغابات وما فيها من صيد ، وفى بعض الأحوال . كانت لهم حقوق على نساء الارقاء كما فى حالة فيجارو الشهيرة .

وكان الملوك والنبلاء يقطعون الكنيسة والأديرة أطيانا شاسعة ويهبونها حق جباية العشور ، وهو نوع من الزكاة المسيحية ، تحول الى فرض أتاوات ، لكى تقدر الكنيسة النظام الاقطاعى قائما على القوة القاهرة ، أو على سيف المعز وذهبه كما نقول نحن فى بلادنا ، أصبح يقوم على الحق الالهى . وكان الملك هو الاقطاعى الاول ورأس الطبقة الارستقراطية (النبلاء) ، وكان يملك ويحكم بالحق الالهى .

وكان من حق الارقاء أو الفلاحين الاقنان ان يشتروا قانونا عتقهم أو التزاماتهم أو أثقالهم المالية بالمال بموجب صكوك مسجلة .

وهكذا ولدت الطبقة أو الطبقات المتوسطة التى تسمى البورجوازية انسلخت من طبقة الشغالة . فكان قوام البورجوازية الرجال الأحرار فى المدن أو البنادر ممن يحملون وثيقة تحرير أو اعتناق . وأصبحت البورجوازية فى المدن هى « الطبقة الثالثة » فى المجتمع بعد النبلاء ورجال الدين (حرفيا : البورجوازية هى الطبقة

ساكنة « البورج » و « البورج » هو « البندور » . وكان أكثرها من التجار والحرفيين . وباتساع النشاط التجاري والحرفي منذ القرن الحادى عشر ظهرت مصادر جديدة للثروة المنقولة دعمت البورجوازية وجعلت منها طبقة ذات كيان اجتماعى واضح .

ومنذ تكون فرنسا كدولة بين ٩٠٠ و ١٠٠٠ ميلادية أخذت قوة الملك تتعاطم فسحب الملك سلطات النبلاء السيادية التى كانت تجعل من النبلاء أشباه ائداد له ، ولكنه ترك لهم امتيازاتهم الاقتصادية والاجتماعية ولم يدخل العامة الريفيون « الطبقة الثالثة » الا فى ١٤٨٤ عندما اشتركوا لأول مرة فى الانتخابات . ودرجة درجة تبلور نظام الطبقات الثلاث حتى أصبح نظام الحكم فى الدولة . وفى ١٧٥٦ عرف فولتير الطبقات الثلاث بأنها « أمم داخل الأمة » بالمعنى القانونى فى « بحث فى عادات الأمم وروحها » ولم تكن هذه الطوائف الثلاث مجرد طبقات اجتماعية ، فقد كانت كل طائفة منها تنقسم الى فئات بعضها فى تناقض مع بعضها الآخر .

وفى القرن الثامن عشر كانت البورجوازية (الطبقات المتوسطة) هى التى دأبت للدولة ، وتنشأ دور النبلاء ، فأصبح الواقع الاجتماعى والقانونى لا يتماشى مع الواقع الاقتصادى ، فاندلعت الثورة الفرنسية لأن النبلاء استمروا فى حكم البلاد ، رغم أن الكوادر الوسطى والسفلى من الادارة الحكومية كانت من أبناء البورجوازية هذا هو التفسير الذى يعطيه العلامة البير سوبول Albert Soboul فى كتابه الخطير : « الثورة الفرنسية » . هذا بالإضافة الى الانفجار السكائى وانتشار التعليم وفلسفة « التنوير » وتقدم طرق المواصلات الذى ربط بين اقطاعات فرنسا (اماراتها ودوقياتها وكونشياتها او « سنجقيات ») التى حافظت على نظمها وتقاليدها البالية المتوارثة عن العصور الوسطى بما جعل من فرنسا عدة دويلات تعددت فيها

المقاييس والموازين والمكاييسل وقامت بينها الحواجز الجمركية وتضاربت فيها القوانين ، وبينما حافظ شمال فرنسا على تقاليدهم كان جنوبها يحكمه القانون الرومانى .

وعندما نتحدث عن انحطاط الارستقراطية (أى طبقة النبلاء) منذ ظهور الملكية المطلقة ، انما نقصد ان الملوك الأقوياء ، وكان اخرهم لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥) ، سحبوا من النبلاء اهم مصادر قوتهم السيادية مثل تحصيل الضرائب وتجنيد العسكر وسك العملة وتصريف العدالة ، ولكن ابقوا لهم على امتيازاتهم و « حقوقهم » الاقتصادية وعلى وضعهم الاجتماعى .

وكان عدد النبلاء قبل الثورة الفرنسية ٣٥٠.٠٠٠ نبيل (أى ١٣ من عدد السكان) وكانوا هم الطبقة الثانية تحت النظام الملكى بعد رجال الدين ، ولكنهم ظلوا الطبقة الأولى فى حكم البلاد . وكانوا يملكون خمس اراضى فرنسا ، ولكن نسبة اراضى النبلاء كانت تختلف من منطقة الى منطقة ، ففي الغرب بلغت نحو ٦٠٪ ، وفى بورجونيا نحو ٣٥٪ ، وفى الشمال ٢٢٪ ، وفى بيكاردى وأرتوا ٣٢٪ ، وفى الوسط ١٥٪ . ومن بين هؤلاء النبلاء كان هناك نحو ٤٠٠٠ نبيل كانوا نبلاء بلاط يعيشون فى فرساي فى معية الملك على كرم معاشاتهم وعلى مرتباتهم العسكرية حياة البذخ الشديد . ومن النبلاء من كانوا يتزوجون من بنات البنوك والبورجوازيين المليونيرات .

وكانت للنبلاء بعض الامتيازات الطبقية مثل حق حمل السيف ، وحجز مكان فى الكنيسة ، وحق الافلات من الاعدام اذا لم ينفذ حكم الاعدام شنقا ، وحق الاعفاء من بعض الضرائب المفروضة على عامة الناس ، وحق الاعفاء من سخرة الطرق ، وحق ايواء المحاربين ، وحق الصيد ، وحق الدخول على رؤساء الجيش والكنيسة

والادارة والقضاء . ومن كانت لهم اقطاعيات منهم كان لهم حق جباية بعض الضرائب من الفلاحين ومشاركتهم فى محاصيلهم بدعوى ملكيتهم لحق الرقبة أبا عن جد . وكان هناك نبلاء بلا اقطاعيات كما ان بعض العامة كانوا يملكون اقطاعيات بعض النبلاء .

وكانت طبقة النبلاء منقسمة على نفسها منذ المناوشات البرلمانية التى حاول بها النبلاء الحد من سلطات الملك المطلقة أيام لويس الرابع عشر وفشلوا . وكان نبلاء الريف الرجعيون أكثر النبلاء حرصا على أحياء الاستقلال الاقطاعى ومقاومة الحكومة المركزية . وكان بعض نبلاء البلاط مستنيرين ومتفهمين لمصالح الشعب . أما الطبقة الثالثة بجميع شرائحها فكانت متحدة ضد الامتيازات الارستقراطية وضد معاشات النبلاء .

أما رجال الدين فقد كان عددهم ١٢٠.٠٠٠ وكانوا يلقبون أنفسهم بالطبقة الأولى فى المملكة وكانت لهم امتيازات سياسية وقانونية وضريبية وكانت قوتها الاقتصادية من تحصيل ضريبة العشور dime ، وهى نوع من الزكاة فى الدين المسيحى كانت تدفع غينا أو نقدا أما للكنيسة وأما للنبلاء بحسب الحالة على غلة الأقطان أو ريع العقارات .

وكان رجال الدين (الكنيسة والأديرة والأفراد) يملكون أقطانا وعقارات كثيرة فى الريف والحضر ويحصلون ايجارات تزداد قيمتها مع الزمن . وكانت أملاكهم فى الريف تتجاوز أملاكهم فى المدن . وقد قدر فولتير ريع أملاك رجال الدين بمبلغ ٩٠ مليون جنيه ، أما نيكرو ، وهو معاصر للثورة الفرنسية فقال أنه ١٣٠ مليون جنيه . وكانت أكثر هذه الأقطان قطعنا صغيرة قليلة المحصول ، وكانت مساحتها الاجمالية تقدر بنحو ١٠٪ من مساحة أرض فرنسا ،

متراوحه بين ٢٠٪ و ٥٪ فى مختلف اقاليم فرنسا . وكانت ضريبة « القديم » أى العشور ، نسبة من المحصول أو من البهائم تبلغ نحو ٩٠٪ يدفعها الحائز لصاحب الحق فى العشور . وكانت تختلف من محصول الى محصول بحسب النوع ، وقدر دخلها بمبلغ يتراوح بين ١٠٠ و ١٢٠ مليون جنيه يضاف اليها ريع الأقطان والمقارات ، وهو نفس القدر تقريبا . أما مصاريف الكنيسة فكانت أساسا من رسوم تسجيل المواليد والوفيات والتعميد وشعائر الدفن ومختلف وجوه الحالة المدنية . ومن الاحسان ومن التعليم . وكان عدد الرهبان يتراوح بين ٢٠.٠٠٠ و ٢٥.٠٠٠ راهب ، أما عدد الراهبات فكان ٤٠.٠٠٠ راهبة . أما القساوسة فكان عددهم نحو ٥٠.٠٠٠ قسيس . وفى ١٧٨٩ كان هناك فى فرنسا ٧٤٠ ديرا للرجال و ٢٥٣ ديرا للنساء .

وقد بلغ من فساد الكنيسة أنه كانت هناك اديرة مهجورة ينفق عليها بالاسم فقط . وقد ساءت سمعة كثير من رجال الدين بسبب خراب الذمة حتى داخل الكنيسة نفسها . وكان رجال الدين فيهم الفقراء كالقساوسة والوعاظ وفيهم الاغنياء كالأساقفة والكرادلة . ورغم معاناة أكثرهم وظهور تعاطفهم مع الطبقة الثالثة ظل رجال الدين فى مجموعهم منحازين لطبقة النبلاء .

كانت فرنسا قبيل الثورة الفرنسية لا تزال بلدا زراعيا بصفة أساسية ولذا كانت البورجوازية فيها اقلية واضحة ، أما العمود الفقرى للطبقة الثالثة فكان من الفلاحين واجراء المدينة . وقد قادت البورجوازية الفرنسية هذه الطبقات الشعبية فى الثورة الفرنسية واستفادت منها أكثر مما استفادت الجماهير نفسها ، وهذا معنى قولهم ان الثورة الفرنسية كانت ثورة بورجوازية ، أى ثورة الطبقات المتوسطة ، العليا والوسطى والصغيرة .

وكانت البورجوازية الفرنسية مكونة من :

١ - ذوى الأملاك التى يعيشون على ريعها ، وهذه كانت شريحة سلبية .

٢ - الاسطوات وأصحاب الدكاكين ، وهذه كانت البورجوازية الصغيرة والمتوسطة ، وكانت مرتبطة بالانتاج التقليدى والتوزيع التقليدى ، وهذه كانت تمثل ثلثى حجم البورجوازية .

٣ - رجال الأعمال ، وهم البورجوازية الكبيرة ، وكانت نشيطة تكسب بين ١٠٪ و ٢٠٪ من دخل البورجوازية ، ومعها المقاولون ومديرو المشروعات .

٤ - اصحاب المهن الحرة ، واكثرهم من رجال القانون .

٥ - الموظفون .

٦ - الضباط . (فى جرينوبل مثلاً كان هناك من ذوى الأملاك ٢١٩٪ ومن رجال القانون ١٣٨٪ ومن التجار ١٧٦٪ من حجم البورجوازية) .

أما البورجوازية الكبيرة فكانت بورجوازية المال والتمويل ، وكان منهم البنكيات وموردو الجيش وموظفو المالية ومؤسسو الشركات المساهمة ومقرضو الدولة ، وملتزمو « العهدة » Fermiers Generaux الذين كانوا يشترون من الدولة حق تحصيل الضرائب غير المباشرة .

هذه الشريحة من البورجوازية كانت تصاهر الارستقراطية وكانت احياناً تحصل على الالقاب بقوة المال . وكان ملتزمو العهدة اول من ذهب الى المقصلة فى ١٧٩٣ بسبب تعاطفهم مع الارستقراطية ،

الثورة الفرنسية - ٦٥

رغم انهم ساءروا الثورة فى بداية الأمر ، فلما سيطرت عليها الطبقات الشعبية انقضوا عليها .

وكانت اقوى شريحة فى البورجوازية التجارية هم تجار الجملة فى الموانى المطلة على المحيط الاطلسى مثل بوردو نانت ولاروشيل ، بسبب تجارتهم مع أمريكا (الانتيل وسان دومينجو والمارتنيك) وتجار الجملة فى مرسيليا المطلة على البحر المتوسط ، بسبب تجارتهم مع الشرق ، ولا سيما مع الشام . هؤلاء جمعوا المليارات الفاحشة وكانوا يدعمون قادة « الطبقة الثالثة » فى صراعهم مع النبلاء أول الأمر . فقد كانوا من دعاة الملكية الدستورية ، ثم انحازوا الى الجيرونديين ، وهم الشوار المعتمدون ، فأصابتهم نكبة الجيرونديين عام ١٧٩٣ .

هذه الاجنحة البورجوازية المتعددة فى الثورة الفرنسية ، كانت فى بداية الثورة ، أى فى ١٧٨٩ ، متفقة على شىء واحد وهو ضرورة الغاء الامتيازات الطبقية وتقويض النظام القديم . وما ان تم ذلك حتى ظهر التعارض بين مراميها من الثورة ، وانعكس ذلك فى اتجاهات الثورة المتصارعة كما بين البير سوبول ، وفى غزارة ما أريق من دماء .

٦ - ثورة الفلاحين

فلنتحدث الآن عن فقراء المدينة وفقراء الريف ابان الثورة الفرنسية .

فى ١٧٨٩ كان العامل الفنى يكسب ٢٠ سو Sou يوميا (فى الفرنك مائة سو) ، وقد يرتفع أجره اليومى الى ٣٠ سو و ٤٠ سو . وكان رغييف البعش زنة رطل واحد يساوى ٢ سو . وذلك يعنى أن اجر اليوم كان يساوى عشرة أرطال من الخبز ، أى نحو ٥ كيلو جرام ، فى عام الثورة الفرنسية .

وفى عام ١٧٨٨ عرفت فرنسا أسوأ محصول من القمح مما رفع أسعار القمح حتى فى الريف . وعرف الشعب الفرنسى الجوع والبطالة فى المدينة والريف على السواء ، بينما كانت هناك طبقات انتفعت من ارتفاع سعر القمح كملاك الأتليان الذين كانوا يأخذون

● نشرت بجريدة الامرام
بتاريخ ١٩/٨/١٩٨٩ .

نسيبهم عيننا من المحصول وكجبة العصور والسادة الاقطاعيين والتجار وكان هؤلاء ينتمون الى الارستقراطية او البورجوازية أو رجال الدين .

وفى ٢٧ ابريل ١٧٨٩ قامت المظاهرات العنيفة فى ضاحية سانت انطوان المجاورة لسجن الباستيل احتجاجا على خطب انتخابية القاهما رجل يدعى ريفيون Revellon صاحب مصنع ورق ملون وآخر اسمه هنريو Henriot صاحب مصنع بطاس ، نددا فيها بارتفاع اجور العمال وزعما ان العامل يستطيع ان يعيش مرتاحا على ١٥ سو يوميا . وفى ٢٨ ابريل ازداد الشغب واحرق المتظاهرون بيت كل منهما . واسفرت المصادمات مع البوليس عن سقوط عدد من القتلى وكان هذا اول يوم من أيام الثورة سبق الهجوم على الباستيل ، وكانت أسباب الهياج المباشرة اقتصادية لا سياسية .

وكان فقراء المدينة مثل فقراء الريف يرون ان وقف النبلاء لا يكون الا بتحديد الأسعار جبريا ، بينما كان التجار يرفضون مبدأ التسعيرة الجبرية من أساسه .

وفى عام ١٧٨٩ كان سكان فرنسا نحو ٢٧ مليون نسمة منهم نحو ٥ ملايين يعيشون فى المدن ونحو ٢٢ مليونا يعيشون فى الريف ولم تكن ثورتهم مجرد ثورة اقتصادية وانما كانت أساسا لالغاء الامتيازات الاقطاعية التى كان يتمتع بها النبلاء ورجال الدين . وقد نجحت ثورتهم عندما قررت الجمعية الوطنية الغاء الامتيازات الاقطاعية فى جلسة ٤ أغسطس ١٧٨٩ .

وبوجه عام لم يكن الفلاحون الفرنسيون أسوأ حالا من نظرائهم فى البلاد الأخرى مثل بولندا وروسيا ووسط أوروبا . كان الفلاحون الفرنسيون يملكون نحو ٣٥٪ فى المتوسط من مجموع أراضى فرنسا (ما بين ٢٢٪ فى بعض المناطق و ٧٠٪ فى مناطق أخرى) .

فقد كانوا يكافحون عبر الأجيال ليشتروا حريتهم وجقوقهم
بالمال من النبلاء . ولكن أغلب أراضي الفلاحين كانت لا تدر كثيرا
لأنها كانت تقع فى الغابات وفى الجبال وفى المراعى ولضالة
مساحاتها المفتتة .

ومع وجود هذا الفلاح الحر المالك كان هناك مليون من رقيق
الأرض ، وكان أولادهم لا يرثون متاع الأب الا اذا دفعوا لمالكهم النبيل
فرضة . وفى ١٧٨٩ اتهم الارستقراط بالتآمر لتخزين القمح والغلال
لسحق العامة .

وفى أول يوليو كتب مارا Jean-Paul Marat منشورا بعنوان
« بيان للشعب أو كشف القناع عن الوزراء » يقول فيه : « أى اخوتى
المواطنين ! لاحظوا دائما سلوك الوزراء لتحددوا سلوككم . ان
هدفهم هو حل جمعيتنا الوطنية ، وسبيلهم الأوحده هو الحرب
الأهلية . ان الوزراء ينفخون فى نار الفتنة ! .. انهم يحيطونكم
بجهازهم الضخم من الجنده والحرب ا » .

وعلى غرار ثورة باريس التى انتهت بسقوط الباستيل انتشرت
الفتن فى مدن الاقاليم طوال شهر يوليو فى روان Rouen وفى أوك
وفى بوج Bourge وفى ديجون Dijon وفى مونتبوان
Montauban ثار الناس فى كل بلد وطردوا أعضاء المجلس
البلدى كما حدث فى استراسبورج Strasbourg أو قيسدو
حركاتهم بلجنة موسعة كما حدث فى ديجون وغيرها .

استولت اللجان الثورية على البلديات فى بوردو Bordeaux
ومتز Metz ونانسى Nancy وانجيه Anger ورين Rennes
وفى متز ونانسى وجدت اللجان الثورية مقاومة اجتماعية ، وفى
مونتبوان ونيم Nimes حاد من سيطرة اللجان الثورية العراك بين
البروتستانت والكاثوليك . وفى ليموج Limoges كانت المقاومة

شخصية ، وفى ليون Lyon وتروا Troyes جاءت المقاومة من الثورة المضادة . وفى بعض البلاد لم تحدث ثورة على المجالس البلدية لشقة الأهالى فى أغضائها كما حدث فى تولوز Toulouse ، أو لأن الجيش والمحاكم ساندت الثوار كما حدث فى اكس Aix

وتشبهها بما حدث فى بلدية باريس تكوئت فى كل مكان ميليشيات بوجوازية من الحرس الوطنى لتخدم اللجان البلدية الثورية . وفى تولوز تكون حرس وطنى دون ان تكون هناك ثورة بلديات ، وفى البى Albi أصبحت الميليشيات القديمة هى نفسها الحرس الوطنى .

وايا كان شكل ثورة البلديات ، فالنتيجة كانت واحدة فى كل مكان ، وهى انتهاء سلطة الملكية والحكومة المركزية ، وتسليم البلديات كل السلطات بعد ان كان الحكم المطلق قد قضى عليها . وتوقفت جباية الضرائب . وفى شهادة احد المعاصرين : « لم يعد هناك ملك ولا برلمان ولا جيش ولا بوليس » .

وكان مجدد الاضطرابات فى كل مكان هو قلة القمح وغلاء ثمنه . فبدأت البلديات بفرض التسعيرة الجبرية ، وبجمع التموين ولو بالمصادرة ، ونهب الأهالى تجار الغلال وانتشرت الاشاعات عن غزو أجنبي : قيل ان الانجليز نزلوا فى ميناء برست Brest على المحيط الأطلسى من جهة بحر المانش ، وان مملكة بيدمونت Piedmont فى شمال غرب ايطاليا تتحرك لغزو فرنسا من جهة جرينوبل Grenoble وتحدث الناس عن مؤامرة ارسنقراطية لقمع حركة التحرير الشعبى ، فانتشر الرعب الأعظم فى نهاية يوليو ١٧٨٩ وراقب الأهالى الطرقات ، وكان الحرس الوطنى يحفظ النظام :

ومنذ اعلان الغاء « مجلس الطبقات » وانشاء « الجمعية الوطنية » فى ١٧ يونيو وقسم ملعب التنس فى ٢٠ يونيو وسقوط الباستيل

فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ ، سقطت السلطة تماما فى يد الطبقات المتوسطة التى كانت تتألف منها الطبقة الثالثة ، وسواء فى باريس أو فى الأقاليم سيطرت البورجوازية وحرسها الوطنى على البلديات ومن خلالها على مقدرات فرنسا .

فماذا اصحاب الفلاحون من كل ذلك ؟ لاشىء . فقد بقيت الامتيازات والحقوق والقوانين والاعراف الاقطاعية على حالها ، فلم يبلغ شىء منها .

ولم يكن الريف اقل بؤسا من المدينة فازداد فيه الشحاذون والجوع وانشرت البطالة وعم الغلاء . وكثر اللصوص وقطاع الطرق ، وغدت الطرق غير آمنة . وحتى منذ الربيع بدأ تملل الفلاحين من نير النبلاء يأخذ شكلا ملموسا . فأخذ الفلاحون فرادى وجماعات يقتلون حمام النبلاء ويدمرون ابراجه لأن الحمام كان يلبثهم محصولهم من القمح والغلال . كذلك أخذوا يقتلون أرائب النبلاء التى كانت تخرب محاصيلهم ، وأخذوا يصطادون فى غاباتهم وكانت هذه من الجرائم الكبرى .

وكانت مطالب الفلاحين مركزة على الغاء الامتيازات الاقطاعية . وحين ادركوا ان ثورة باريس والمدن الفرنسية لم تعد عليهم بشىء تصاعد عصيانهم الى تحد سافر للنبلاء . وسرت بينهم اشاعة تقول ان هناك مؤامرة ارسنقراطية لتجويج الشعب بتنظيم عصابات من المجرمين لحرق أجران الفلاحين وتدمير محاصيلهم وزراعاتهم . فساد الرعب الأعظم فى الريف الفرنسى ، وسلح الفلاحون أنفسهم بأدوات الزراعة وهاجموا قصور النبلاء وطالبوا النبلاء بتسليمهم الوثائق المزعومة لامتيازاتهم الاقطاعية لكى يحرقوها فى ميدان القرية ، فمن رفض منهم تسليم هذه المستندات أحرقوا قصره وشنقوه . وتكونت فى ريف فرنسا لجان وميليشيات من الفلاحين . ورغم تحذيرات

بيرابو للفلاحين من تصديق الاشاعات عمت الثورة كل ريف فرنسا باستثناء مقاطعات بريتانى والالزاس واللورين . وعرفت ثورة الفلاحين ومهاجمة قصور النبلاء باسم « جاكيرى » Jacquerie

كل هذا فى أواخر يوليو ١٧٨٩ . فلا غرابة اذن ان اصيبت طائفة من النبلاء بالرعب وعمدت طائفة أخرى الى مكر الثعالب لتفريغ غضب الفلاحين . وكانت ليلة ٤ أغسطس ١٧٨٩ ليلاء انتهت فيها جلسة الجمعية الوطنية فى الساعة الثانية صباحا بقرار شامل بالغاء الامتيازات الاقطاعية و باعلان حقوق الانسان والمواطن ، الذى جعلته الجمعية التأسيسية بمثابة ديباجة للدستور الذى كانت تضعه .

وقد ظهر أول تعارض فى المصالح بين الفلاحين من جهة وبين البورجوازية المدنية والريفية من جهة أخرى فى موقف الجمعية الوطنية والمجالس البلدية والحرس الوطنى من ثورة الفلاحين وحركة « الجاكيرى » لأن البورجوازية كانت تملك الاراضى مثل النبلاء ، ولذا تكفل الحرس الوطنى بقمع حركات الفلاحين بالسلاح .

اما الجمعية الوطنية فقد كانت ترغب فى قمع حركة الفلاحين ومنع استيلائهم على اطيان النبلاء ، لأن اعضاءها كانوا أيضا من ملاك الاراضى . ولكنها خشيت من استعمال العنف وخشيت من تكليف الملكيين والجيش الملكى بقمع ثورة الفلاحين تحسبا من عودة السلطة القديمة الى الحكم فقررت فى جلسة ٤ أغسطس ١٧٨٩ الغاء الامتيازات الاقطاعية رسميا بوصفها امتيازات مغتصبة « ان الجمعية الوطنية تلغى النظام الاقطاعى الغاء كلياً » ولكنها عندما ناقشت « حقوق » النبلاء فى جباية نصيبهم من ربح الأطيان بحجة ملكيتهم لحق الرقبة ، اسندت عملية التحقق من هذه الحقوق الى الدوق ايجويون d'auignon أكبر ملاك المملكة وكان معروفا بميوله الليبرالية ، وبهذا تفرقت

صفوف النبلاء واخذوا يتبارون فى التنازل عن امتيازاتهم فى جلسة
٤ أغسطس .

قدم الدوق ايجويون اقتراحا ندد فيه بالاقطاع وبكى فيه على
الفلاح. وأشار بأن الحل هو ان يتنازل النبلاء عن حقوقهم فى ملكية
أراضى فرنسا وجباية نصيبهم من ريعها على أن « يشتري » الفلاحون
هذه الحقوق وما يترقب عليها بشروط ميسرة أو « متهاودة » .

بدأت جلست ٤ أغسطس ١٧٨٩ بجملته اقتراحاته قدمها
الفيكونت دى نواى Vicomte de Noailles هى :

١ - الغاء كافة الامتيازات الضريبية ٢ - الغاء السخرة وكافة
خدمات العبودية الشخصية « دون شراء أى دون دفع مقابل » .
٣ - شراء الحقوق الفعلية على الأرض وليس الحقوق الوهمية
أو الصورية . وأيده فى ذلك الدوق ايجويون بحرارة شديدة ،
ووافقت على ذلك الجمعية الوطنية . كذلك الغى حق النبلاء فى احتكار
حق الصيد فى الغابات وفى الأنهار كما تقرر تازلة أبراج حمام
النبلاء التى كانت تلتهم غلال الفلاحين ، والغيت حقوق النبلاء فى
اقامة العدالة فى مناطقهم . واقترح أحد النبلاء ان تتنازل الكنيسة
عن العشور التى كانت تجبيها من الفلاحين فأخرج بذلك رجال الدين
الذين ظهروا فى مظهر المتقاعس عن نجدة الشعب الجائع ، فأعلن
أسقف نانسى ان الكنيسة تتنازل عن العشور .

ووصل مائتان من النواب ليطالبوا الجمعية الوطنية بالموافقة
على مشروع قانون بالنص على ضرورة احترام الملكية « بتسكين اللام »
والوفاء بالالتزامات . وكان هذا بمثابة تهديد غير مباشر لحركة احراق
قصور النبلاء « البجاكبرى » ولكن الدوق ايجويون خطب فى حراة
منددا بظلم الاقطاع ، بل وتساءل ان كان الفلاحون محرقو القصور

حقاً مذبذبين . لقد كان الدوق ايجيون كالمليونير الذكى الذى يضحى
بنصف ثروته لينقذ النصف الثانى .

وفى الساعة الثامنة مساء وافقت الجمعية الوطنية على الغاء
الاقطاع بعد ألف سنة من استقراره فى فرنسا .

وبعد ان انتهت كلمات النبلاء اخذ نواب الشعب الكلمة .
ووقف نائب من بريتانى اسمه كيرنجال Kerengal لم يسبق له
ان اعتلى المنصة قبل ذلك ولم يحدث له ان اغتلاها بعد ذلك ، وقرأ
نحو عشرين سطرا اتهم فيها الجمعية الوطنية بالتقصير لأنها لم تنتبه
مسبقا لاحراق القصور ولم تحطم ما فيها من أسلحة مدمرة هى تلك
الوثائق والعقود الفظيعة التى تسوى البشر بالبهايم وتربط الانسان
والحيوان معا فى المحراث قال :

فلنكن عادلين : اتونا بهذه الصكوك هذه الشواهد على همجية
ابائنا .

« من منا لا يضرم النار فى هذه الوثائق الدنيئة من باب
التكفير ؟ » . لاتضيعوا لحظة واحدة فكل يوم من التأخير سوف
يسبب حرائق جديدة ان سقوط الامبراطوريات لا يحتاج لكل هذه
الضجة للاعلان عنه . الا تريدون أن تشرعوا القوانين لفرنسا
المخربة ؟ »

واستقر النذير فى وجدان السامعين .

وقال نائب آخر من بريتانى أن هناك حقوقا اقطاعية عجيبة
وبربرية كحق النبيل فى أن يقرر بطن اثنين من رقيقه كلما عاد من
الصيد وأن يغوص بقدمه فى جسدهما الدامى ! .

ووقف نائب من الأرياف اسمه دي فوكرو De Foucault لينادي
النبلاء وطالبتهم قبل الكلام في التنازل عن امتيازاتهم الإقطاعية أن
يضعوا بمعاشاتهم ومرتباتهم التي يتقاضونها من الملك وهي من دم
الشعب ، وبدلاً من أن يرفعوا ضياعهم يتركونها للخراب حتى يقيسوا
في بلاط الملك في فرنسا وبالفعل استجاب أثنان من النبلاء لدعوته
وأعلنا أنهما على استعداد للتضحية بكل شيء ؟

وتحمس دي بوهارنيز De Beauharnais واقترح أن يسمى
النبلاء وعامة الشعب في العقوبة وأن تكون الوظائف مفتوحة للجميع
وطالب نائب بأن تكون العدالة بالمجان ، وطالب دي روشفوكرو
De Rochefoucauld بمعاملة أكثر انسانية للمعبد من الزوج .
وهكذا .. وهكذا ..

وهنا لاحظ رئيس الجمعية الوطنية أن كل الطبقات تكلمت
معلنة عن تنازلاتها إلا رجال الدين . فتكلم اسقف نانسي باسم
اساقفة فرنسا مطالباً ألا تنزل أموال شراء حقوق النبلاء إلى النبلاء
أنفسهم بل أن تستثمر في مشروعات ذات جدوى . وطالب اسقف
شارتر Chartres بالغاء « حق الصيد » كانت تنازلات الكنيسة
كلها على حساب النبلاء . فقال دوق شاتليه لمن حوله مبتسماً :
« ان الاستغناء يحرمنا من حق الصيد وأنا سأحرره من حقه في العشور
وقد كان .

وحين رفعت هذه الجلسة التاريخية في الثانية صباحاً أعلنت
الجمعية الوطنية أن لويس السادس عشر هو معبد الحرية إلى فرنسا
كل هذا حدث في غمرة الحماس الذي يدعى بسخاء القلب وحب
الحرية والمساواة والاخاء ولكنه في واقع الأمر حدث تحت ضغط
ثورة الفلاحين حتى يعود النظام إلى الريف . ولم يكن خالياً من مكر
الشعالب والمناورة لالتقاط الانفاس .

كل هذا حدث شفويا ليلة ٤ أغسطس ولم تتم صياغة القوانين الا بين ٥ و ١١ أغسطس وعند الصياغة حدثت بعض التراجعات فتاورت الكنيسة لتسحب تنازلها عن العشور . ورغم اتخاذ القرار : ان الجمعية الوطنية تلغى كلية النظام الاقطاعي الا ان الجمعية الوطنية لم تلزم النبلاء باثبات حقوقهم القانونية على الأرض التي يأخذون بموجبها الفرضة من الفلاحين . بعبارة أخرى تحرر الفرنسي في ٤ أغسطس من التزاماته الشخصية ولكن أرضه لم تحرر .

وعندما ادرك الفلاحون ان الاقطاع الغى بالاسم فقط هاجت الخواطر ونظم الفلاحون المقاومة ورفضوا دفع حقوق الانتفاع الوهمية وكان على الفلاحين انتظار الجمعية التشريعية والمؤتمر الوطني ليجنوا ثمار ٤ أغسطس .

وفي جلسة ٤ أغسطس صباحا كانت الجمعية الوطنية قد قررت ان تسبق الدستور ديباجة هي اعلان حقوق الانسان والمواطن » ، وذلك رغم اعتراضات المعتدلين . فالأب جريجوار l'abbé Grégoire مثالا طالب بانتهاء الدستور بوثيقة مماثلة هي اعلان واجبات الانسان وكانت مناقشة المبادئ « بطيئة وعسيرة مثال ذلك مناقشة حرية الرأي والعقيدة ففي موضوع حرية العقيدة طالبت الكنيسة بان ينص على أن يكون للدولة دين رسمي هو المسيحية الكاثوليكية ، ولكن ميرابو عارض هذا بشدة على أساس أن هذا يتعارض مع حرية العقيدة . وكانت مناقشات « حقوق الانسان » متأثرة الى حد كبير بافكار فلاسفة التنوير ، فولتير Voltaire . ديدور Diderot ومونتسكيو Montesquieu ودالمبير D'alembert ألخ وبفلسفة روسو Rousseau ولذا جاءت مبادئ هذا الاعلان لتخاطب الانسانية جمعاء وليس مجرد المواطنين الفرنسيين .

وفي ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ وافقت الجمعية الوطنية على اعلان حقوق الانسان والمواطن « الذي كان « شهادة » وفاة النظام القديم » .

فهل انتهى كل شيء ؟ كلا لم ينته كل شيء على خير لأن الملك رفض التصديق على مشروعات قوانين ٥ - ١١ أغسطس ١٧٨٩ وعلى اعلان حقوق الانسان قائلا: أنا لن أوافق على تجريده كهنتي ونبلائي من ثروتهم . ولم يكن هناك ما يرغبه على التصديق الا اشتغال الفتن من جديد .

واعاد لويس السادس عشر فكر وزير المالية ولكن نكر فشل في اصلاح مالية البلاد لتوقف الناس عن دفع الضرائب وطرح نكر قرضا بمبلغ ٣٠ مليون جنيه ولكن الاكتتاب لم يجمع بعد عشرين يوما الا ٢٥ مليون جنيه .

بدأت مناقشات الدستور بعد اعلان حقوق الانسان واقتراح البعض انشاء مجلس نبلاء على غرار مجلس اللوردات الانجليزي وان يكون للملك حق الفيتو على مشروعات القوانين . ولكن سيز Sieyes اعترض على أى نوع من أنواع الفيتو حق الاعتراض قائلا لا يمكن لارادة فرد أن تتغلب على الارادة العامة . واذا امكن للملك ان يمنع اصدار القانون فان ارادته الخاصة تجعله ينتصر على الارادة العامة . ان اغلبية السلطة التشريعية يجب ان تعمل في استقلال عن السلطة التنفيذية . والفيتو المطلق أو المعطل للقوانين ليس الا خطاب كاشيه ، أى أمر اعتقال موجه ضد الارادة العامة .

٧ - زواج فيجارو أو حق الليلة الأولى

كان بين الامتيازات الطبقية التي يتمتع بها نبلاء فرنسا أو بعضهم قبل الثورة الفرنسية امتياز غريب اسمه « حق الليلة الأولى » Jus Prima Noctis ، وهو حق النبيل في ان يفض بكاراة اية عروس من رقيق أرضه ليلة زفافها . وقد كان من واجبات كل نبيل - الى جانب حماية ارقائه وكسوتهم في ايام الأعياد - ان يدفع « الدوطة » (المهر) لكل من يتزوجون من ارقائه . وبالطبع كان كل زواج لا يتم الا بموافقة النبيل .

وقبيل الثورة الفرنسية عرضت في باريس كوميديا اسمها « اليوم المجنون أو زواج فيجارو Le Mariage de Figaro بقلم بومار شيه Beaumarchais صاحب المسرحية الشهيرة « حلاق اشبيلية » Le Barbier de Seville وقد بلغ من شعبية « زواج فيجارو » ان

● نشرت بجريدة الامسرام
بتاريخ ١٩٨٩/٨/٢٦ .

الموسيقار العظيم موتسارت ألف أو - على الأصح - لحن
اوبرا فى موضوعها باسم « زواج فيجارو » عام ١٧٨٦ ، كما ان شهرة
« حلاق اشبيلية » جعلت الموسيقار الايطالى العظيم روسيىنى يضع
اوبرا « حلاق اشبيلية » عام ١٨١٦ . وفى الاحتفال بمرور مائتى
عام على الثورة الفرنسية فى ١٤ يوليو ١٩٨٩ كانت فرقة الكوميدى
فرانسيز تعرض « زواج فيجارو » فى باريس وفى فرساي معها
بالتبادل .

وحين عرضت « زواج فيجارو » فى باريس قبيل الثورة
الفرنسية واثناها ، كانت بمنزلة فضيحة كبرى للنظام الاقطاعى
وهيجت الخواطر على طبقة النبلاء ، واعنبرت اداة خطيرة لاثارة مشاعر
الناس على الارستقراطية المنحلة ، تماما كما كانت تفعله فى بلادنا
الافلام والروايات التى كانت تصور استغلال بعض الباشوات فى
عهد الملكية لمالهم وسطوتهم فى افتراس اعراض الفلاحات الفقيرات
فى عزبهم وضياعهم . ولذا فقد لاقت « زواج فيجارو » منذ تأليفها
صعوبات كثيرة من السلطة حالت دون عرضها مرارا بل واستدعت
اجراء تعديلات فيها حتى باذن الرقيب بتمثيلها .

اما مؤلفها - وهو بومارشيه فقد ولد - فى باريس عام ١٧٣٢
وتوفى عام ١٧٩٩ عن سبعة وسبعين عاما . وكان اسمه الاصلى بيير
او اغسطين كارون . Pierre-Augustin Caron وكان الأب يعمل
ساعاتيا من طبقة الاسطوات ، وبعد ان تعلم ولده تعليما عاما بدأ
يعمل فى دكان ابيه فى ١٧٤٥ . وفى ١٧٥٣ اخترع بيير او غسطين
جهازا لضبط الساعات عرضه على لابوت Lepaute ساعاتى الملك
لويس الخامس عشر فتقدم هذا به لأكاديمية العلوم على انه اختراع
من صنعه ، ولكن الأكاديمية اعترفت فى العام التالى (١٧٥٤) ان

الاختراع كان من عمل بيير أو غسطين كارون . وهكذا اشتهر اسمه
فتلقى طلبات عديدة من البلاط الملكي ، وقدموه الى ملكة فرنسا .

وفى ١٧٥٥ تعرف بومارشيه الى أسرة فرانكيه Franpuet
وكان فرانكيه هذا يعمل مراقبا فى مكتب الخاصة الملكية فباع لكارون
وظيفته لاشتداد وطأة المرض عليه . فلما مات فرانكيه فى العام التالى
(١٧٥٦) تزوج كارون من ارملة ، وغير اسمه فسمى نفسه كارون
دى بومارشيه Caron de Beaumarchais على اسم ضيعة بومارشيه
التي كانت تملكها زوجته ، وليندس فى مجتمع الارستقراط الذين
كانوا غالبا ما يحملون لقب اقليمهم أو مكان ضياعهم وفى ١٧٥٧
ماتت زوجته .

وفى ١٧٥٩ دعى بومارشيه لتعليم الموسيقى لبنات الملك لويس
الخامس عشر ، وعلمهن العزف على آلة الهارب التي كان يتقنها .
وفى نفس العام تعرف الى البنكير بارى ديفرنى فاتخذة شريكا له وفتح
له هذا باب الثراء . وفى ١٧٦١ اشترى وظيفة سكرتير ومستشار
للملك ، وبذلك دخل رسميا فى طبقة النبلاء وسمح له رسميا بان
يحمل لقب دى بومارشيه . ثم اشترى وظيفة «مدير الصيد» وكانوا
فى تلك الأيام يشترون الوظائف العامة . وفى أواخر عهد لويس
الخامس عشر سجن فترة وجيزة هو والدوق دى شون لشجارهما
على صداقة احدى الممثلات . وكذلك جرد فترة وجيزة من حقوقه
المدنية لمحاولته رشوة قاض كان ينظر فى نزاع مدنى بينه وبين
أحد شركائه حول استغلال احدى الغابات . وفى أوائل عهد لويس
السادس عشر عرضت له الكوميدي فرانسيز « حلاق اشبيلية »
فى ١٧٧٥ .

وفى الفترة من ١٧٧٦ الى ١٧٨٠ قام بومارشيه بنشاط تجارى
مكثف مع أمريكا كان محوره توريد السلاح للثوار الأمريكين فى

وحقق العرض الأول أكبر إيراد في تاريخ المسرح الفرنسى وهو ٦٥١١ جنيها .

وهنا بدأ فصل جديد في هذه السيرة العاصفة لكوميديا « زواج فييجارو » . فشارت المناقشات الحامية في الصحف وحرم كبير اساقفة باريس مشاهدتها أو قراءتها على المؤمنين كما حرم عليهم قراءة فولتير .

وفي ٦ مارس ١٧٨٥ نشر بومارشيه خطابا مفتوحا في « الجورنال دى بارى » Journal de Paris يرد فيه على احد نقاده واسمه سيوار Suard وهو عضو في الاكاديمية فرانسيز ، قائلا : انه لن يرد على الحشرات بعد أن استطاع قهر السباع والتمور . ونجح سيوار في اقناع السلطات بأن السباع والتمور التى يقول بومارشيه انه قهرها هم أكبر رهوس في البلاد ولاسيما الكونت دى بروفانس حفيده لويس الخامس عشر الذى أصبح لويس الثامن عشر بعد سقوط نابوليون في ١٨١٤ . فسجن بومارشيه في سان لازار لمدة خمسة أيام فقط عومل فيها معاملة المجانين أو الشباب الفاسد لتأديبه وقام خادم بضربه على عجزه حسب التقاليد .

وهنا كتبت الصحافة عن طغيان السلطة وطالب بومارشيه بمحاكمته فتراجع الملك ليعتذر دون ضياع لهيبته فمنح بومارشيه ٨٠٠٠٠٠ جنيه تعويضا له عن خسارته في تجارته مع ثوار أمريكا . كذلك قدمت له قصر التريانون مسرحية « حلاق اشبيلية » ، ومثلت فيها الملكة ماري انطوانيت دور روزين ومثل فيها الكونت دارتوا شقيق الملك الأصغر دور فييجارو . وفي ١٨ أغسطس ١٧٨٥ قدمت الكوميدي فرانسيز « زواج فييجارو » بعد ان توقف عرضها

منذ ٧ مارس وفي ١٧٨٧ قدم العرض المائة لها ، كما عرضت «زواج فييجارو» في عدد من مدن فرنسا الكبرى .

وهذا لم يمنع أن برلمان يوردو قرر في ٩ مارس ١٧٨٥ منع عرض « زواج فييجارو » وان هذا المنع استمر اربع سنوات أى حتى قيام الثورة الفرنسية في ١٧٨٩ . وكانت « زواج فييجارو » تعرض في لاهاي ولندن ووارسو كما انها ترجمت الى الهولندية والانجليزية والبولندية والروسية . وفي ١٧٨٦ قدمت أوبرا موزارت الشهيرة « زواج فييجارو » Les Noces de Figaro في فيينا .

فلما سقط الباستيل في أيدي الثوار في ١٤ يوليو ١٧٨٩ خرج بومارشيه في خمسة وعشرين رجلا مسلحا في اليوم التالي واقتحم الباستيل ثم تم تكليفه في الشهر التالي (أغسطس) بالاشراف على هدمه . ولكنه في نفس الشهر استبعد من الجمعية الوطنية من ممثلي كميونة باريس بسبب بعض الاتهامات ، غير أنه لم يلبث أن استرد عضويته في الجمعية الوطنية في سبتمبر بعد أن فند هذه الاتهامات . وفي ١٧٩١ قبلت الكوميدي فرانسيز مسرحية بومارشيه « الأم المذنبه » ولكنها لم تعرض الا في ١٧٩٢ .

وفي ١٧٩٢ توسط بومارشيه في توريد صفقة سلاح لحكومة الثورة من الخارج مكونة من ٦٠.٠٠٠ بندقية ولكنه لم ينجح في اتمام الصفقة واتهم بومارشيه في الجمعية الوطنية باحتكار صفقة السلاح بناء على اتهام وجهه اليه شابو Chabot وقبض على بومارشيه عدة أيام في أغسطس ١٧٩٢ ، ثم أفرج عنه وبذلك نجا من مذابح سبتمبر ١٧٩٢ وغادر فرنسا في نهاية سبتمبر مع تكليف بان يشحن من هولندا الى فرنسا صفقة السلاح وتردد بومارشيه بين هولندا وانجلترا وفي نوفمبر ١٧٩٢ وجه اليه المؤتمر الوطنى

شبقه • ولأنها تعلم أن فيجارو لن يستطيع الزواج من سوزان الا اذا وافق الكونت على هذا الزواج فهي لا تعتمد الى التحدى الذى يمكن أن يغضب الكونت وانما تلجأ الى الحيلة •

وترتب الكونتيسة مع سوزان وفيجارو مكيدة صغيرة توقع الكونت فى شر أعماله وتكون أقرب الى الملهاة منها الى المأساة : يرتب فيجارو عن طريق خطاب مدهسوس على الكونت تحديد موعد لقاء غرامى مع سوزان عند المساء قبل أن تبدأ أفراح العرس فى حضور الفلاحين والفلاحات •

ويحدد الكونت مبتهاجا ومشوقا موعدا فى مكان قصى من القصر تحيط به غابة من أشجار أبو قروة • وتلبس الكونتيسة ثياب سوزان وتصفف شعرها على طريقة الخدم ، وتلبس سوزان ثياب الكونتيسة وتصفف شعرها على طريقة النبيلات • وعندما يأتى المساء تلتقى الكونتيسة بزوجها فى الظلام وهي تصطنع صوت سوزان ولهجتها فى الحديث بينما يختبئ الباكون وراء الأشجار وبعد مطارحات الغرام يدخل الكونت بزوجته فى ذلك الجناح البعيد من القصر متوهما طول الوقت انه مع سوزان ولا يكتشف حقيقة الأمر الا بعد أن ينتهى كل شيء • وهنا تعنفه الكونتيسة على حنثه بقسمه القديم أيام غرام شبابهما انه قد تنازل نهائيا عن حق الليلة الأولى مع عرائس فلاحيه ، فيندوب خجلا ، ويبارك زواج فيجارو من سوزان ويعيش الكل فى « تبات ونبات » •

هذا تلخيص مغل لكوميديا « زواج فيجارو » وهو مغل لأن الكوميديا تقول أكثر من هذا فى الأحداث والأقوال • انظر مثلا الى مونولوج فيجارو فى الفصل الخامس (المشهد الثالث) ذلك المونولوج الذى أغضب لويس السادس عشر كثيرا • يقول فيجارو وهو يجول فى الظلام انتظارا لموعد الكونت مع سوزان •

« كلا يا سيدي الكونت . انك لن تغفر بها . . . لن تغفر بها أنت تظن انك عبقرى كبير لانك سيد كبير ! . . . شرف المحتد والثروة وعلو المقام ، كل هذا مدعاة للفخر فماذا فعلت حتى تستحق كل هذه النعم ؟ كل مجهودك انك ولدت ، لا أكثر من ذلك . وفي كل ماعدا ذلك أنت رجل عادى . أما أنا ، أنا الضائع فى الجماهير المغمورة ، فبحق السماء أنا بذلت من المعرفة والحساب الجرد البقاء على قيد الحياة أكثر مما بذل طوال مائة عام لحكم اسبانيا أو غيرها من الممالك . . . » الخ .

هذه التساؤلات الخطيرة حول شرعية الامتياز الطبقي الموروث كانت الألغام التى بثتها البورجوازية أو الطبقات المتوسطة فى طريق الارستقراطية وفى طريق العاطلين بالوراثة . نجدها فى بومارشيه الضاحك الباكي ونجدها فى كل كتابات الثوار الذين مهدوا للثورة الفرنسية .

وقد تابع العالم بكثير من التفكه تلك المبالغات الساذجة التي قامت بها السيدة مارجريت ثاتشر رئيسة وزراء انجلترا لتفسد أفراح الفرنسيين في احتفالاتهم بمرور مائتي عام على الثورة الفرنسية ، وخلصتها ان الثورة الفرنسية لم تأت بجديد بعد الماجنا كارتا Magna Carta « ١٢١٥ » و « قانون الحقوق » Bill of Rights « ١٦٨٨ » ، وهي مبالغات أوحث بها العنجهية الأنجلو سكسونية .

نص الاعلان

ان ممثلى شعب فرنسا - مشكلين فى هيئة جمعية وطنية ، وقد رأوا أن الجهل والاهمال واحتقار حقوق الانسان هى الأسباب الوحيدة للمصائب العامة ولفساد الحكومات - قد قرروا أن يطرحوا فى اعلان مهيب هذه الحقوق الطبيعية الثابتة التى لا يجوز الانتقاص منها : ان هذا الاعلان ، وهو مائل على الدوام فى أذهان أعضاء الهيئة الاجتماعية ، يجعلهم دائما يقظين الى حقوقهم وواجباتهم وان قرارات وتصرفات السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية فى الحكومة وهى خليفة بأن تعد فى كل لحظة مساوية للغاية من المؤسسات السياسية ، مما يوجب المزيد من الاحترام لها ، وكذلك لأن مطالب المواطنين فى المستقبل التى تمليها مبادئ بسيطة لا تقبل الاعتراض عليها لكى تنحو دائما نحو الحفاظ على الدستور وعلى سعادة الجميع .

لذلك كله فان الجمعية الوطنية تعترف وتعلن أمام الكائن الاسمى ، راجية بركته وتأيده ، الحقوق المقدسة التالية للانسانية وللمواطنين :

١ - يولد الناس ويظلون دائما أحرارا ومتساوين فى الحقوق . وبناء عليه فالامتيازات المدنية لا يمكن أن تبنى الا على المنفعة العامة .

٢ - ان غاية كل التنظيمات السياسية هي الحفاظ على حقوق الانسان الطبيعية التي لا يجوز المساس بها ، وهذه الحقوق هي الحرية ، والملكية « بكسر الميم » ، والأمن ومقاومة الطغيان .

٣ - الأمة في جوهرها هي مصدر كل سيادة ، ولا يجوز لاي فرد أو مجموعة من الأفراد أن تزاوّل أية سلطة ما لم تكن نابعة من الأمة صراحة .

٤ - تقوم الحرية السياسية على القدرة على عمل أى شيء لا يضر بالآخرين . ومباشرة أى انسان لحقوقه الطبيعية لا حدود لها الا الحدود اللازمة لضمان مباشرة أى انسان آخر لنفس الحقوق مباشرة حرة . وهذه الحدود لا يقررها الا القانون .

٥ - لا يجوز للقانون ان يحرم شيئاً ما لم يكن فيه اضرار بالمجتمع . ولا تجوز عرقلة شيء لم يحرمه القانون ، كما لا يجوز اكراه انسان على شيء لم يتطلبه القانون .

٦ - القانون هو التعبير عن ارادة الجماعة . وكل المواطنين لهم حق المشاركة في وضع القانون أما بأشخاصهم أو عن طريق ممثليهم . ويجب أن يكون القانون واحداً مع الجميع سواء في الحماية أو في العقاب . وحيث ان الجميع متساوون أمام القانون ، فالجميع متساوون في حق التكريم وتولى المناصب والوظائف بحسب قدراتهم المختلفة ولا امتياز لأحد على أحد الا بالفضائل والموهبة .

٧ - لا يجوز أن يتهم انسان أو يقبض عليه أو يعتقل الا في الأحوال التي حددها القانون وبحسب الطرق التي رسمها القانون . ويجب عقاب كل من أصدر أو سعى الى اصدار أو نفذ أوامر تعسفية أو تسبب في تنفيذها . وكل مواطن استدعى بالقانون أو قبض

للفقراء وانما صنع للأغنياء وللمضاربين وللمتعاملين في
البورصة ١١ » .

وربما كانت خير وسيلة لمعرفة هذه القوى البورجوازية
المحركة للثورة الفرنسية هي دراسة الأفكار الأساسية التي كانت
تملا أدمغة بعض زعماء الثوار في بداية الثورة الفرنسية عن مكونات
« الطبقة الثالثة » وآلامها وآمالها وغاياتها في الحياة . وقد تبلورت
هذه الأفكار الأساسية في الكراسة التي نشرها الأب سيبيز
L'abbé Sieyès « ١٧٤٨ - ١٨٣٦ » بعنوان « ما هي الطبقة
الثالثة ؟ » في يناير ١٧٨٩ وقد بيع منها عند صدورها ثلاثون ألف
نسخة في ثلاثة أسابيع مما يبين حالة الغليان التي كانت فيها
فرنسا . وقد كان سيبيز أصلا من رجال الدين ولكنه نحا منحى
فلاسفة عصر التنوير ولاسيما لوك Locke وكوندياك Condillac
قال سيبيز في « ما هي الطبقة الثالثة ؟ » :

« ان تخطيط هذه الرسالة بسيط للغاية فلدينا ثلاث مسائل
نفكر فيها » :

- ١ - ما هي الطبقة الثالثة ؟ كل شيء .
- ٢ - ما وضعها في النظام السياسي حتى الآن ؟ لا شيء .
- ٣ - ماذا تطلب ؟ ان تصبح شيئا .
- الطبقة الثالثة هي أمة كاملة .

ما هو الضروري لاعاشة أمة ولرخائها ؟ . الأعمال الخاصة
والوظائف العامة .

والاعمال الخاصة يمكن ان تقسم الى أربعة أقسام :

١ - الأرض والماء يعطيان المواد الأولية لاحتياجات الانسان .
والفئة الأولى فى هذا النظام هى جميع الأسر المرتبطة بالعمل فى الحقول .

٢ - من أول بيع للمواد حتى استهلاكها أو استخدامها تضيف الصناعات اليدوية المختلفة الى هذه المواد الأولية قيمة ثانوية قليلة أو شديدة التركيب بحسب الأحوال . فالعمل البشرى ينجح فى ترقية السلع الطبيعية ويضاعف قيمة المواد الخام مرتين ، بل عشر مرات ، بل مائة مرة . وهذا عمل الفئة الثانية .

٣ - وبين الانتاج والاستهلاك وكذلك بين مختلف مراحل الانتاج هناك عدد غفير من الوسطاء النافعين للمنتجين وللمستهلكين جميعا ، وهؤلاء هم التجار . . وهذه المجموعة النافعة هى الفئة الثالثة .

٤ - وبالإضافة الى هذه الفئات الثلاث من المواطنين المنتجين المشتغلين بـ مواد الاستهلاك والاستخدام ، يحتاج المجتمع الى مجموعة من الأعمال الخاصة والخدمات التى تنفعنا مباشرة أو تمتع أشخاصنا . وهذه الفئة الرابعة تضم كل شئ من أجل المهن الحرة والأعمال العلمية الممتازة الى أضال الخدمات المنزلية شأننا . هذه هى الأشغال التى تقيم عماد المجتمع . ومن هم القائمون بها ؟ هم أبناء الطبقة الثالثة .

« وبالمثل فان الوظائف العامة فى النظام القائم يمكن تبويبها تحت الفئات الأربع المعترف بها ، وهى : السيف وروب القضاء والكنيسة والادارة . ومن المفيد أن نمر فيها تفصيلا لتوضح كيف أن الطبقة الثالثة تمثل $\frac{1}{3}$ من هذه الوظائف مع الفرق التالى ،

وهى انها مسئولة عن كل ما هو مجهود وشاق وكل الخدمات التى ترفض الطبقة الممتازة القيام بها . أما المناصب المجزية والتشريفية فيشغلها أعضاء الطبقة الممتازة . فهل نجدهم أهلا لذلك ؟ .. هذا يمكن تبريره لو ان الطبقة الثالثة رفضت أن تشغل هذه المناصب أو انها كانت ناقصة فى القدرة على أداء وظائفها . وحقيقة الأمر معروفة ، ومع ذلك فقد اجترأوا على أن يضعوا الطبقة الثالثة فى موضع المحظورين . قالوا لأبنائها : أيا كانت خدماتكم وأيا كانت مواهبكم فلن تتقدموا الا الى مدى معين لا تتجاوزونه . فليس من الخير لكم ان يسبغ عليكم التشریف .. اذا كان هذا الحرمان جريمة اجتماعية فهل يمكن تسويغه بقولنا انه يخدم الصالح العام ؟ .. فلنقل ردا على ذلك : أليست آثار الاختكار معروفة ؟ فاذا كان الاختكار يحبط المحرومين ، أليس أيضا يحرم اصحابه من الخبرة ؟ أليس معروفا ان كل عمل يحرم من المنافسة الحرة سيكون أكثر تكلفة وأقل اتقاناً ؟ ..

واضح من كلام سيبز انه يعبر عن أفكار الطبقات المتوسطة من المشتغلين (١) بالزراعة (٢) بالصناعة (٣) بالتجارة (٤) بالمهن الحرة وبالحرف . وكل من يشارك عن طريق « العمل » فى انتاج خامات الطبيعة وتطويرها وتوزيعها للاستهلاك بين أبناء المجتمع .

هؤلاء هم أبناء الطبقة الثالثة وهم عنده « كل » الأمة . ومع ذلك فهم محرومون من تولى المناصب العليا ومن حكم البلاد ، لأن هذا وتلك كانا وقفا على الطبقة الارستقراطية التى توارثت الامتيازات العنقوية استنادا الى حق الفتح بالسيف الذى يدعيه أجدادها الأول أو الى شراء الألقاب كالنبلاء المحدثين . فحتى مناصب القضاة كان يشتريها النبلاء من البلاط ، وأبناء الطبقة الثالثة كانوا العمود الفقرى فى سلك الجندية وفى سلك القضاة وفى سلك الكهنوت

وفي ادارة الحكومة ولكنهم كانوا يشغلون كل المناصب الدنيا لأن المناصب العليا كانت حكرا لطبقة النبلاء . ولم يكن دورهم في السلطة التشريعية « أى فى مجلس الطبقات » أفضل من دورهم فى الحياة العامة .

والحل عند سيبيز هو سقوط كل الحواجز الطبقيّة الموروثة وأيلولة الحكم والمناصب العامة الى « الأمة » فى كل مرفق من مرافق الحياة . وهكذا ترجم سيبيز الفلسفة الاقتصادية للمدرسة « الفيزيوقراط » « الطبيعية » الى فلسفة سياسية أساسها أن « العمل أساس القيمة » بعد موارد الطبيعة كما كان يقول آدم سميث . رسول الاقتصاد البورجوازي . الحل عند سيبيز كان حلول الحق الطبيعي محل الحق الالهي والحقوق الموروثة . الحل عند سيبيز كان الحكومة النيابية التي تجعل « الأمة مصدر السلطات » .

كان سيبيز مع ميرابو هما أكبر زعيمين للثورة الفرنسية فى مراحلها الأولى . وهما اللذان قادا الجمعية الوطنية الى وضع دستور للبلاد . فلما جنحت الثورة الفرنسية الى التطرف انزوى نسبيا لأنه رفض راديكالية اليعاقة ورفض مصالحات الجيروندي مع الارستقراطية الفرنسية وظل يشغل مكانة وسعطا حتى ١٧٩٩ حين تمكن بوصفه زعيم « حزب السهل » من التآمر مع نابوليون بوناپرت . ليعود من حملته المصرية ويجري انقلاب ١٨ برومير الذي استولى به على السلطة فى فرنسا ، وهذا وحده كاف للتدليل على أهميته فى تاريخ فرنسا . ورغم انتصار اليعاقة فى ١٧٩٣ وشحوب نجم سيبيز ، كان سيبيز من القلائل فى الثورة الفرنسية الذين حافظوا على رؤوسهم ومناصبهم طوال عشر سنوات بين ١٧٨٩ و ١٧٩٩ .

وكان أهم ما قام به سيبيز فى تلك الفترة هو :

١ - دعوته للتدريب العسكري العام لكل المواطنين .

٢ - اعادة التنظيم الادارى لفرنسا للقضاء على التقسيمات
الاقطاعية القديمة . .

٣ - هيمنة الدولة على الدين وعلى التعليم بعد ان كانت
الكنيسة هي المسئول الاول عن التعليم في فرنسا .

وبموجب دستور نابوليون فى السنة الثامنة من الثورة كان
سييز أحد القناصل ، أى المستشارين ، الثلاثة الذين تولوا حكومة
الادارة فى ظل نابوليون" القنصل الاول . وبالطبع انكشف ضياؤه
أمام ضياء نابوليون ولكن بقيت له هيئته طوال عصر الامبراطورية .
فلما سقط نابوليون عام ١٨١٤ وعادت الملكية نفى سييز ، ولكنه
عاد الى فرنسا بعد ثورة ١٨٣٠ وعاش منسيا ست سنوات حتى
مات فى ١٨٣٦ .

والآن كلمة عامة عن « عرائض الشكوى » Cahiers de
Doléances التى تقدم بها نواب « الطبقة الثالثة » الى « مجلس
الطبقات » فى انتخابات ١٧٨٩ بقصد تقديمها لملك لويس السادس
عشر بقصد اصلاح احوال البلاد ، فكانت بمثابة نواة دستور للثورة
الفرنسية ، ومنها نعرف حالة الراى العام قبل الثورة الفرنسية
مباشرة . وقد كان من هذه العرائض نحو ٢٠.٠٠٠ عريضة بعضها
تقدم به رجال الدين ، وهم الطبقة الاولى ، وبعضها تقدم به النبلاء ،
وهم الطبقة الثانية ، وبعضها تقدم به ممثلو « الطبقة الثالثة » .
ومن هذه العرائض نحو ٦٠٠ عريضة تمثل شكاوى عامة ، والباقي
مجرد شكاوى فردية . ولعل أهم « كراسة » شكاوى هى الكراسة
التي تقدم بها نواب « الطبقة الثالثة » عن دائرة فرساي الانتخابية ،
وهذه خلاصة محتوياتها عن التظلمات والمقترحات والمبادئ العامة .

« مترجمة عن « مقدمة للحضارة المعاصرة فى الغرب » (جامعة
كولومبيا ج - ١) .

فيما يتصل بالدستور : ان سلطة تشريع القوانين هي حق،
لدملك وللأمة عن طريق نوابها الذين تتكون منهم الجمعية الوطنية ،
ولا يعتد بقانون ما لم تضعه الجمعية الوطنية ويصدق عليه الملك .

حق وراثه العرش في النسل من الذكور وحق الابن البكر
حقوق قديمة قدم النظام الملكي ويجب أن تحصن بقانون غير قابل
للالغاء .

القوانين الصادرة عن مجلس الطبقات والمصدق عليها من الملك
يجب أن تكون ملزمة لجميع طبقات المواطنين ولجميع أقاليم المملكة .
يجب أن ينعقد مجلس الطبقات على الأقل مرة كل سنتين أو
ثلاث .

يتمتع النواب بالحصانة فلا تجوز محاكمتهم في القضايا المدنية
أثناء فترة نيابتهم ، ولا تجوز للسلطة التنفيذية مساءلتهم عن أية
أقوال يدلون بها داخل الجمعية الوطنية ، وتكون مسئوليتهم أمام
مجلس الطبقات وحده .

يجب اقرار الحرية الشخصية وحقوق التملك وأمن المواطنين
بطريقة واضحة ودقيقة ولا مساس بها . ويجب الغاء كل « الخطابات
المختومة » (أى أوامر الاعتقال) الى الأبد .

يجب ادخال نظام المحلفين في القضايا الجنائية والمدنية
للتثبت من الوقائع وذلك للحيلولة نهائيسا دون الاضرار بحقوق
المواطنين الشخصية وبممتلكاتهم .

يجب الافراج بكفالة خلال أربع وعشرين ساعة عن كل من
يقبض عليه في تهمة لا توجب عقوبة الاعدام ، كما يجب أن يصدر
قرار الافراج عن المحلفين .

كل من يقبض عليه اشتباها ثم تثبت براءته يستحق أن يتقاضى تعويضا من الدولة ، اذا أثبت ان القبض عليه مس بشرفه أو بمصالحه .

يعطى المزيد من حرية النشر بشرط أن يعلن الكاتب هويته ويتحمل المسؤولية عما يكتب ولا تعد الكتابة قذفا الا بقرار من اثنى عشر محلفا منعا لاساءة القضاة والسلطات لحق المساءلة على ان ترسم الحدود بقانون .

لا يجوز فتح الرسائل .

يجب الغاء جميع الفوارق في العقوبات بالنسبة للطبقات المختلفة فالكل سواسية أمام القانون . والعقوبة شخصية ولا يجوز أن تنصب على أقرباء الجاني .

يجب أن تتناسب العقوبة مع الجريمة ، ويجب ابطال كل أنواع التعذيب . ولا يجوز تطبيق عقوبة الاعدام الا على الجرائم الوحشية .

يخضع العسكريون للقانون العام في جرائم القانون العام كسائر المواطنين .

كل ضريبة لا يقرها نواب الشعب ويصدق عليها الملك تعد غير قانونية . ولا يجوز أن تكون هناك امتيازات طبقية في الضرائب ، فالشعب الآن يتحمل العبء الأثقل بالقياس الى النبلاء .

في حالة الحرب أو الظروف الاستثنائية لا يجوز فرض ضرائب جديدة أو عمل قروض الا بموافقة نواب الأمة .

يجب إعادة النظر في نظام المعاشات « كان رجال البلاط ينهبون الخزانة بمعاشاتهم » .

لما كانت الدولة متكلفة بالمخصصات الملكية فيجب نزع ملكية أملاك الدومين « الأملاك الأميرية » من يد الملك وبيعها بعد تقسيمها الى مساحات صغيرة لأعلى مشتر بالمزاد العلني .

الوزراء مسئولون عن تصرفاتهم أمام مجلس الطبقات ويمكن محاكمتهم بموجب قانون يوضع لذلك .

لا يجوز تغيير العملة الا بموافقة مجلس الطبقات كما لا يجوز إنشاء بنك الا بموافقته .

يعاد تقسيم أقاليم فرنسا « مقاطعاتها » .

يجب أن تتمشى دساتير مقاطعات فرنسا مع دستور مجلس الطبقات الرئيسى فى فرساي حيث الحكومة المركزية ، وان تخضع المقاطعات بلا تحفظ للقوانين التى يصادق عليها الملك .

يجب أن يكون جميع أعضاء المجالس البلدية والقروية منتخبين .

يجب أن تكون الوظائف المدنية والدينية والعسكرية مفتوحة أمام الجميع على قدم المساواة .

كل أجنبى يستوطن فرنسا ثلاث سنوات يكون له الحق فى اكتساب جنسيتها .

يجب إلغاء كل ما تبقى من الرق فى الأرض والرق الشخصى .
ويحل مجلس الطبقات على تحرير الزوج والرق فى المستعمرات .

يجب الفصل بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية .

• يبطل نهائيا بيع مناصب القضاء ، وتلغى محاكم النبلاء .
• يلتزم القضاء بنص القانون دون تصرف من عندياتهم . وتلغى كافة الامتيازات الطبقية .

• تلغى السخرة ويلغى معها اثنا عشر نوعا من الضرائب والرسوم التي كانت تثقل كاهل المواطنين . كما تلغى الحواجز الجمركية بين مختلف مقاطعات فرنسا بحيث لا يتبقى الا الجمارك عند الحدود .

• الا تدخل البنات الدير دون سن ٢٥ سنة ، وألا يدخل الرجال الدير دون سن الثلاثين .

• توزع الموارث بالتساوي بين الورثة من الجنسين ومن جميع الأعمار بغض النظر عن الحالة الاجتماعية . ولا يجوز شراء الألقاب ولا اكتسابها بالمناصب .

• الحرية التامة للتجارة والصناعة .

• التعليم العام مجاني .

مائة مادة ومادة في عريضة شكوى الدائرة الانتخابية في فرساي ، ولكن أهمها جميعا كان المطالبة بادماج الطبقات الثلاث في طبقة واحدة هي « الأمة » وان التصويت يكون بالفرد وليس بالطبقة أو الفئة ، وان رجال الدين من كبير الأساقفة الى أصغر قسيس لا يعيشون على الاتاوات أو الاحسان من المؤمنين بل يتقاضون من الدولة المرتبات الكافية ، وأنه نظرا لكفالة الدولة لنفقات الكنيسة والأذيرة تباع أملاك الكنيسة وأوقافها وتؤول حصيلتها الى خزانة

الدولة ، وانه من المحظور على رجل الدين في فرنسا أن يرجع الى بابا روما في التعيينات أو الترقيات أو الفتاوى أو الاستثناءات الدينية أو استصدار قرارات الحرمان أو صكوك الغفران ، باعتبار ان كل أسقف في فرنسا يملك كافة السلطات الروحية في منطقتة .

ومكذا وقف الفرنسيون في ١٧٨٩ على أعتاب عهد جديد . وقد اثبتت الأحداث ان اللاتفاهم الكامل بين النظام القديم والنظام الجديد جعل كل حوار منتج في حكم المستحيل

٩ - الملكة رهينة

انتهت ثورة الفلاحين فى الريف الفرنسى بعد ثورة باريس فى ١٤ يوليو حتى اوائل اغسطس ١٧٨٩ بانتشار الرعب الاكبر بين النبلاء بسبب اقتحام الفلاحين قصور النبلاء وقيامهم باحراق الوثائق والصكوك الملكية الوهمية والحقيقية وكافة المستندات القانونية التى كانت تثبت حقوق النبلاء على الأرض وعلى رقيق الأرض وكافة العلاقات الاقطاعية احرقوها فى الميادين العامة وفى أفنية القصور . وكذلك لتوقف الفلاحين عن دفع ايجارات الأتليان والضرائب والعشور .

وانزعجت الجمعية الوطنية لانتشار الفوضى والعنف فى الريف وسعت للتدخل لوضع حد لها ، ولكنها فى الوقت نفسه خشيت من الاستعانة بالسلطة الملكية لقمع حركة « الجاكوى » فاكثفت باعلان ان كل ما يجرى فى الريف من شغب يجرى خارج

● نشرت بجريدة الامرام بتاريخ ١٩٨٩/٩/٩ .

نطاق الشرعية • خشيت الجمعية الوطنية وأكثر أعضائها من ملاك الأراضي المتوسطى الحال ، ان ينتهى الاستيلاء على أملاك النبلاء بالاستيلاء على أملاك البورجوازية نفسها ، ولهذا عينت الجمعية الوطنية الدوق ايجويون ، وهو أحد كبار النبلاء المتعاطفين مع الفلاحين لفحص مسألة الصكوك لفرز ما هو قانونى فعلا وما هو مغتصب •

وفى ظل الرعب الأكبر كانت ليلة ٤ أغسطس ١٧٨٩ التى ألغيت فيها كافة الامتيازات الطبقيّة الموروثة وألغى النظام الاقطاعى نهائيا وصدر « اعلان حقوق الانسان والمواطن » الذى قدس حقوق كافة البشر فى الحرية والمساواة ، ولكنه قدس معها أيضا حق الناس فى التملك • ولأن أبحاث الدوق ايجويون ولجنته لم تسفر عن شيء فى تحديد ما هو مغتصب وما هو شرعى من حقوق النبلاء على أرض فرنسا كان من الممكن لألبير سوبول ان يقول بعد مائة عام فى كتابه عن « الثورة الفرنسية » ان « اعلان حقوق الانسان والمواطن » حرر فلاحى فرنسا كمواطنين ولكنه لم يحرر أرضهم من ربة النبلاء • لقد كان واضحا ان جلسة ٤ أغسطس كان فيها من العواطف السبخية أكثر مما كان فيها من النوايا الصادقة • وكانوا يفتخرون ان مزايدات النبلاء كانت مناورة لكسب الوقت حتى يستجمعوا قوتهم من جديد •

وقد احتاج الأمر الى ستة أيام بين ٥ و ١١ أغسطس لصياغة قرارات ٤ أغسطس فى صيغة قوانين أرسلت الى الملك لويس السادس عشر ليصدق عليها • ولكن الملك رفض التصديق وكان رفضه تعبيرا عن ثورة النبلاء فى سبتمبر ١٧٨٩ • رفض الملك التصديق على قوانين إلغاء النظام الاقطاعى وعلى « اعلان حقوق الانسان والمواطن » قائلا : « أنا لن أوافق على تجريد كهنتى ونبلائى من أموالهم » ••

بدأت ثورة النبلاء أثناء مناقشات لجنة الدستور في الجمعية الوطنية ، وقد بدأت اللجنة أعمالها بعد اعلان حقوق الانسان مباشرة ، وكان لها مقرران هما مونييه Mounier ولى - تولاندال Lally-Tollendal اللذان اقترحا انشاء مجلس للنبلاء على غرار مجلس اللوردات في انجلترا ، يكون تابعا للملك مباشرة لأنه يعين أعضائه على ان يكون للملك حق الفيتو المطلق على قرارات الجمعية الوطنية ، وبهذا يكون مجلس النبلاء بمثابة قلعة للارستقراطية . واعترض سيبز بشدة قائلا : « ان ارادة فرد لا يمكن ان تعلو على الارادة العامة » واعترضت جماعة « الباليه رويال » Palais-Royal وهو قصر الدوق فيليب دورليان Philippe d'Orleans ابن عم الملك الذي اشتهر باسم « فيليب المساواة » Philippe Egalité واتخذت قرارا بأن « الفيتو ليس بحق رجل واحد ، بل حق ٢٥ مليون مواطن » وفي ٣١ أغسطس أرسلوا وفدا الى « الهوتيل دي فيل » (بلدية باريس) مطالبين بدعوة جمعية عمومية لجميع اقسام باريس « لمنح الجمعية العمومية من ايقاف مداولاتها في موضوع الفيتو حتى تبدى الأقسام والأقاليم رأيها في الموضوع » .

وفي الجمعية الوطنية قاد زعماء الحزب الوطنى وهم بارناف Barnave ودى بور Du Port والكساندر Alexandre وشارل دى لامبيت Charles de Lambeth معارضة انشاء مشروع مجلس النبلاء أو مجلس الأعيان . وفي ١٠ سبتمبر رفض هذا المشروع بأغلبية ٨٤٩ صوتا ضد ٨٩ صوتا في الجمعية الوطنية ، وامتنع غلاة اليمين عن التصويت . وفي ١١ سبتمبر اقترح بارناف الموافقة على ان يكون للملك حق الفيتو لا بصفة مطلقة ولكن لتعليق القوانين حتى يعاد النظر فيها ، ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح بأغلبية ٥٧٥ صوتا ضد ٣٥٢ صوتا . وكان هدف

الوطنيين من هذه المهادنة اقنصاع الملك بالتصديق على قوانين أغسطس .

غير ان الملك أصر على رفض التصديق وهنا رأى الزعماء الوطنيون تأليب الجماهير حين استحكمت الأزمة . وبدأت هجرة النبلاء بأموالهم الى الخارج ، فزاد ذلك من الضيق الاقتصادي وتأثرت صناعات الترف في باريس وانتشرت البطالة وشح الخبز ، فظهرت الطواير أمام أفران الخبازين ، وتظاهر العمال مطالبين بزيادة الأجور أو للشكوى من البطالة .

وباستعداد أزمة الخبز كتب مارا Marat في جريدته « صديق الشعب » L'Ami du Peuple يضع المسئولية على لجنة التموين في بلدية باريس « الهوتيل دى فيل » :

« اليوم » الأربعاء ١٦ سبتمبر « أحس الناس من جديد بغضاعة الضنك ، فالمخابز محاصرة والشعب لا يجد الخبز . كل ذلك برغم ان المحصول كان وفيرا للغاية . وفى وسط هذه الوفرة نوشك ان نموت من الجوع . فهلبقى لدينا شك فى اننا محوطين بخونة يريدون لنا الخراب ؟ . فهل جاءتنا هذه الكارثة من سعار أعداء الشعب ومن جشع الاحتكاريين ومن عدم أمانة الإداريين ؟ » .

وأصبح الباليه روائال مركز قيادة الكفاح السياسى وانتشرت الصحف الثورية مثل « رسالة باريس الى فرساي » Courrier de Paris à Versailles لجورساس Gorsas و « ثورة باريس » Révolution de Paris للوستاليه Loustalet و « صديق الشعب » L'Ami du Peuple لمارا Marat « سبتمبر ١٧٨٩ » و « الوطنى الفرنسى » Le Patriote Français لبريسو Brissot وانتشرت المنشورات والكتيبات وكلها تتحدث عن مؤامرة الارستقراط على

الحرية وعن ضرورة تطهير الجمعية الوطنية من كبار رجال الدين ومن النبلاء الذين فقدوا مبرر تمثيلهم لطبقاتهم بعد انتهاء مجلس الطبقات . وأصدر كاميل ديمولان Camille Desmoulins « حديث المصباح الى أهل باريس Discours de la Lanterne aux Parisiens وهو يقصد صراحة عمود المشنقة في ميدان جريف Place de Greve بجوار بلدية باريس حيث كانت المشنقة قائمة . وشاعت المطبوعات المجهولة المؤلفين .

وفي نهاية سبتمبر بدا وكان الثورة أجهضت ، فالملك رفض دائما التصديق على قوانين أغسطس بإلغاء الاقطاع والامتيازات الطبقية وعلى « اعلان حقوق الانسان » ودخل في مرحلة الهجوم فحشد الجنود في فرساي . وتيقن النواب اليساريون انه لا مفر من صراع عنيف مع النظام القديم . ودعا مارا أهل باريس للتحرك قبل حلول الشتاء « صديق الشعب » (في ٢ أكتوبر) وحدوث « كرباج الوطن » Fouet national التي انشئت في سبتمبر ١٧٨٩ . أهل باريس من الاستقراط المتأهبين لاعادتهم للأصفاد . ولمرة الثانية أنقذ الشارع الفرنسي « الجمعية الوطنية » .

وكانت حوادث أكتوبر ..

فجرها ان ضباط الحرس الملكي أقاموا في فرساي وليمة لضباط فرقة فلاندرز ، وفي هذا العشاء سكروا وداسوا بالأقدام الكوكارد La Cocarde « شارة الثورة المشاشة الألوان : الأزرق والأبيض والأحمر » في حضور الأسرة المالكة ، ووضعوا الشارة الملكية البيضاء ، فهاجت الخواطر في باريس . قالت « الكرباج » في برواز : « منذ يوم الاثنين والباريسيون الطيبون لا يجدون الخبز الا بصعوبة ولن يأتبهم بالخبز الا السيد عامود النور (يقصد مشنقة ميدان جريف ل . ع) ومع ذلك فالباريسيون يأنفون من اللجوء

الى هذا السيد الوطنى المخلص » (بقصيدة شسنىق الارستقراط
على عامود النور) كما يقول النشيد الثورى المعروف : « سنعلق
الارستقراط على عامود النور » .

وفى ٥ أكتوبر تجمعت نساء من سائت انطوان ومن الهال
Les Halles (سوق باريس) أمام الهوتيل دى فيل « بلدية
باريس » وطالبن بالخبز . وكان عددهن بين ٦٠٠٠ و ٧٠٠٠ امرأة .
وقررن الزحف الى فرساي تحت قيادة رجل يدعى ماريار Maillard
كان أحد فاتحى الباستيل ومعه بعض مكافحى ١٤ يوليو
منظمين عسكريا . ونحو الظهر دق الناقوس فتجمعت ميليشيا
الحرس الوطنى فى ميدان جريفي ، واضطر المريكيز دى لافاييت
Marquis de Lafayette ان يقود هذه الميليشيا وسط الهتافات
الى فرساي . ونحو الخامسة مساء سار الى فرساي نحو ٢٠.٠٠٠
مواطن ، وفى نفس الوقت وصلت نساء باريس الى فرساي وأرسلن
وفدا الى الجمعية الوطنية ثم للملك الذى وعد بالخبز والقمح .
ووصل الحرس الوطنى بعد العاشرة مساء . وأبلغ الملك الجمعية
الوطنية بتصديقه على قوانين أغسطس ١٧٨٩ لتهدئة الحالة من باب
المناورة لكسب الوقت . وهكذا أنقذ الشوارع الباريسى الجمعية
الوطنية مرة جديدة .

وفى فجر ٦ أكتوبر اقتحمت جماعة من المتظاهرين قصر فرساي
حتى الغرفة المؤدية الى مخدع الملكة ماري انطوانيت ، وحدثت
مشاجرة مع حرسها الخاص فضها الحرس الوطنى الذى أدخل القصر
من المتظاهرين . وقبل الملك والملكة ان يظهر فى الشرفة مع
ولى العهد ومع الجنرال لافاييت ، وبعد تردد صفقت له الجماهير
هاتفة : « الى باريس » ، ووافق الملك . وفى الجمعية الوطنية قرر
الأعضاء ان البرلمان لايفصل عن الملك .

وهكذا انتقل الملك والملكة من قصر فرساي الذي يبعد
١٤ كيلو مترا جنوب غربى باريس الى قصر التويلرى Les Tuileries
فى قلب العاصمة « بجوار ميدان الكونكورد » .

وأصدر كاميل ديمولان جريدته « ثورة فرنسا وبلجيكا »
Révolution de France et de Brabant وفى العدد الأول منها أعرب
عن تفاؤله بانتقال الملك من فرساي الى التويلرى لانه بداية تواصل
كل المواطنين مع ملكهم ، وبداية عهد جديد من الازدهار . ولكن
بعض الزعماء كانوا محترسين من التفاؤل اليسير . ونموذج هذا
مارا الذى كتب يقول فى « صديق الشعب » (العدد ٧) : « هذا
عهد الباريسيين المخلصين ان يمتلكوا أخيرا ملكهم : فحضرة
الملك فى باريس سوف يغير وجه الأشياء سريعا . والشعب البائس
لن يموت جوعا بعد الآن ، ولكن هذا الهناء سوف يتلاشى قريبا وكأنه
حلم اذا لم نوطد بقاء الأسرة المالكة بيننا حتى يتم وضع الدستور
والصديق عاينه نهائيا . ان « صديق الشعب » تشارك مواطنيها
الآن افراحهم ولكنها لن تستسلم للنوم » .

بعبارة أخرى ، لقد أصبح الملك بانتقاله من قصره بضاحية
فرساي ، الى قصر التويلرى فى قلب باريس رهينة فى يد جماهير
باريس وزعمائهم المتطرفين .

كانت أحداث أغسطس هزيمة ساحقة للارستقراط من جهة
والديمقراطيين المعتدلين من أمثال مونييه Mounier ومالويه
Malouet ممن كان حزبهم يسمى « المونارشيان »
Les Monarchiens وفيها معنى « كلاب الملك » فانسحب حزبهم
من الصراع ، وتبع الفوج الثانى من المهاجرين الارستقراط رغم
انهم كانوا من دعاة الملكية الدستورية . كان عليهم ان ينتظروا حتى
اعلان القنصلية ليعودوا الى فرنسا فيجدوا النظام الذى يريدونه ،

كانوا دعاة ملكية دستورية فلما رأوا الثورة تنجرف الى الشوارع تخللوا عنها . وقد أثبتت أحداث أكتوبر ١٧٨٩ انه كانت هناك علامة استفهام كبيرة حول مستقبل الملكية فى فرنسا .

والآن فلنر كيف وصف ميشليه أحداث ٥ و ٦ أكتوبر ١٧٨٩ فى كتابه العمدة « الثورة الفرنسية » (الكتاب الثانى ، الفصلان الثامن والتاسع) . قال :

« فى ٥ أكتوبر كان هناك جمع من البؤساء الذين لم يذوقوا الزاد منذ ثلاثين ساعة . وكان منظرهم المحزن يفطر القلوب ، ومع ذلك لم يفعل أحد شيئا لمعالجة الموقف . كان كل الناس يتوارون فى بيوتهم ويشكون قسوة الزمان . وفى مساء الأحد ٤ أكتوبر كانت هناك امرأة شجاعة لم تحتمل رؤية الجوع أكثر من ذلك ، فجرت من حى سان دنييس الى البالية روابال « حيث كان يسكن الدوق دورليان وتجمع المعارضة ل . ع » ، وبرزت بين الجمهور الصاحب الذى كان يلقي الخطبة الرنانة ، وجعلتهم ينصتون اليها . كانت هذه المرأة فى السادسة والثلاثين من عمرها ، حسنة المظهر ، طيبة القلب ، ولكنها كانت قوية البنية والشكيمة . وطالبت الجماهير ان تذهب الى فرساي وهى على رأسهم . وسسخر منها بعضهم فصفعتم أحد الساخرين . وفى اليوم التالى سارت فى مقدمة الجموع شاهرة فى يدها سيفا وأخذت من المدينة مدفعا واعتلت المدفع كما يعتلى الجواد وجروه الى فرساي وكانت فتيلته مشتعلة .

(وكان بين الحرف المنقرضة من العهد القديم حرفة الحفر على الخشب لديكور المنازل والكنائس ، تحترفها كثيرات من النساء فأصابتهن البطالة) ومن بين هؤلاء ، كانت هناك فتاة اسمها مادلين شابرى Madeleine Chabry وجدت نفسها عاطلة فاشتغلت ببيع الزهور فى حى البالية روابال واشتهرت باسم لويزون

Louison وكان عمرها ١٧ سنة وكانت جميلة ذكية الفؤاد .
وبالقطع لم يكن الجوع هو الذى ساق هذه الفتاة الى فرساي .
لقد تبعت التيار العام لطيبة قلبها ولشجاعتها . ووضعتها النساء
فى مكان القيادة وجعلن منها خطيبتهن .

« وكان هناك غيرها ممن لم يحركهن الجوع . كانت هناك
تاجرات وبوابات ومومسات تعاطفن مع الجياع بقلب سخى ، كما
هو شأنهن فى كثير من الأحوال . وكان بينهن عدد غفير من نساء
العمال فى سوق باريس . وكانت هؤلاء النسوة من المتحمسات
للملكية ، ومع ذلك فقد كن راغبات فى اقامة الملك فى باريس بدلا
من فرساي . وحين راين الملك فى فرساي قلن : « ياله من رجل
مسكين ! حبيب الى القلوب . . ياله من أب عطوف » . أما الملكة
فقلن لها فى جهامة : « ياسيدتى ! ياسيدتى ! افتحى لنا صدرك . .
فلنفتح قلوبنا ولا نخفى شيئا ! لنقل بصراحة كل ما ينبغى علينا
قوله .

« ونساء الأسواق لسن من النساء اللواتى يشكون كثيرا من
البؤس لأنهن يتاجرن فى ضروريات الحياة . . ولكنهن يرين البؤس
أكثر مما يراه غيرهن ويشعرن به . ولأنهن يقمن دائما فى السوق
فليست تفوتهن كما تفوتنا مشاهد البؤس . وليس هناك من يرثى
للبؤس أو يعطف عليهم أكثر منهن . وهن بأجسادهن الغليظة
وكلامهن الخشن العنيف كثيرا ما يتميزن بقلوب من ذهب وطيبة
لا حد لها .

وفى ٥ أكتوبر فى الساعة السابعة سيعن النداء فلم تستطعن
المقاومة . أخذت فتاة صغيرة من رجال الحرس الترمبيطة ودقت
عليها دقات المارش . وكان ذلك يوم الاثنين ، وخلت السوق .
وخرجن وراءها . جميعا قائلات : سوف نعود بالخبز « أى الملك »

والخبازة « أى الملكة » . . . ونسعد بالاستماع الى خطبة صاحبتنا
ميرابو الصغيرة .

وسار وراء مظاهرة النساء ٢٠٠٠ رجل . ولما احتشدوا
حول قصر فرساي وافق الملك على التصديق على قوانين الغاء الاقطاع
وعلى اعلان حقوق الانسان ووعد بالخبز والقمح . وفى فجر اليوم
التالى « ٦ أكتوبر » تجمهر المتظاهرون من جديد وتسلقوا أسوار
قصر فرساي ، ومنهم من اتجه الى مخدع الملكة بنوايا عدوانية ومنهم
من اتجه الى جناح الملك ، ونادت الجماهير بانتقال الملك والملكة الى
قصر التويلرى بباريس واستغرقت المعارك داخل القصر حتى الواحدة
بعد الظهر ، ووافق الملك على مغادرة فرساي التى لم يعد اليها بعد
ذلك أبدا :

« وتقدم النهار فاقتربت الساعة من الواحدة . . لا بد من
الرحيل . . لا بد من مغادرة فرساي . . وداعا للملكية القديمة !

« كان حول الملك مائة من النواب وكان حوله جيش كبير ،
وجموع الشعب . وخرج من قصر لويس الرابع عشر الذى لم يعد
اليه بعد ذلك أبدا . . »

« وكان كل هذا الجمع مضطربا وهو عائد الى باريس ، قسم
منه يتقدم الملك وقسم يسير من ورائه . »

« انطلق الرجال وانطلقت النساء كل بحسب اجتهاده : على
الأقدام ، على ظهور الخيل ، فى عربات الحنطور ، وعلى عربات
الكارو وعلى المدافع المجرورة ، وفى الطريق صادفوا بابتهاج قافلة
عظيمة تحمل الدقيق ، الخير والبركة للمدينة الجائعة .

ورفع بعض النساء على اسنة الرماح أرغفة الخبز ، ورفعت
الأخريات أغصان أشجار الحور الذابلة من خريف أكتوبر . . . وكن

فى فرح عظيم يتحدثن فى مودة ، فيما خلا بعض الالهات الموجهة الى الملكة ، قائلات : لقد عدنا بالخبازة وبالعجان الصغير « يقصدون ولى العهد » .

« وكن يتصورن جميعا انهن لن يمتن من الجوع مادام الملك معهن . وكن جميعا من انصار الملكية وفى ابتهاج عظيم لانهن سيضعن هذا « الأب العطوف » فى أيد أمينة ، فقد كان محدود التفكير عاجزا عن التعبير ، ولكن ذلك كان بسبب زوجته . وحين يصل الى باريس سوف يجد العديد من النساء الطبيبات لينصحنه النصيحة النافعة .

« كل ذلك كان مبهجا وحزينا وعنيفا ومفرحا وملبدا فى وقت واحد » .

كان يوما مائتا بالأملى ، ولكن السماء لم تشترك فى هذا الأمل . كانت السماء قد أمطرت فمشى الناس ببطء فى الأوجال . ومن وقت لآخر أطلق البعض الأعيرة النارية من بنادقهم اما ابتهاجا واما لمجرد افراغها .

« وتقدمت المركبة الملكية ومن حولها الحرس ولافاييت عند بابها وكأنها نعش يتقدم .

وكانت الملكة قلقة . ترى هل كان واثقا من وصولها الى باريس ؟ وسألت لافاييت رأيه فى ذلك ، فسأل لافاييت مورو دى سان ميرى Moreau de Saint-Méry الذى كان الرئيس فى بلدية باريس أيام الباستيل الشهيرة وكان يعرف الموقع معرفة جيدة ، فأجاب هذه الاجابة ذات الدلالة : « أشك فى ان الملكة يمكن ان تصل بمفردها الى قصر التويلرى ، ولكن اذا وصلت الى دار البلدية « الهوتيل دى فيل » ، فعودتها ممكنة » .

هذا هو الملك في باريس في المكان الوحيد الذي كان ينبغي
ان يكون فيه ، في قلب فرنسا نفسه عسى ان يكون خليقا بمكانه
في القلب .

لقد كانت ثورة ٦ أكتوبر ضرورة طبيعية وشرعية رغم أنها
كانت تلقائية تماما وغير منتظرة وشعبية بكل معنى حقيقي ، وكان
الفضل فيها لنساء باريس كما كان الفضل في ١٤ يوليو لرجال
باريس . الرجال استولوا على الباستيل والنساء استولين على الملك .

لقد كان ١ أكتوبر يوما أفسدته نساء فرساي « يوم ديست
الشارة المثلثة الألوان بالأقدام » .

وكان ٦ أكتوبر يوما أصلحته نساء باريس «

ملاحظة : شاع في تلك الأيام وردد بعض الساسة ان
انتفاضة ٥ و ٦ أكتوبر ١٧٨٩ كانت بايعاز أو تدبير من فيليب
دوق أورليان ابن عم الملك لويس السادس عشر والطامع في عرشه ،
ولكن المؤرخ ميشليه يبرئه من كل علم سابق بما كان يجري . .

١٠ - عيد الاخاء الفيدرالى

لمدة عام كامل - تقريبا - برز الماركيز دى لافاييت كاهم : أقوى رجل فى فرنسا وأكثر الزعماء شعبية ، بين انتفاضة أكتوبر ١٧٨٩ والاحتفال الاسطورى بالاخاء الفيدرالى فى باريس فى ١٤ يوليو ١٧٩٠ . ثم أفل نجمه فجأة فى اغسطس ١٧٩٠ بعد مذبحه نانسى . أفل نجمه كما أفل نجم ميرابو من قبل بعد ان كشف الناس علاقاته الخفية بالبلاط الملكى وارتشائه منه لى يدعم سلطة الملك على حساب سلطة الجمعية الوطنية .

فلافاييت هو الذى قاد الحرس الوطنى من بلدية باريس الى قصر فرساي يوم زحف نساء باريس على فرساي فى ٥ أكتوبر ١٧٨٩ . ولافاييت هو الذى عاد بالملك مخفورا من قصر فرساي الى قصر التويلرى فى قاب باريس فى اليوم التالى (٦ أكتوبر ١٧٨٩) .

● نشرت بجريدة الامرام

بتاريخ ١٩٨٩/٩/١٦ .

ولا فاييت هو الذى أنقذ الملك والملكة من غضب المتظاهرين والمتظاهرات الذين اقتحموا أسوار فرساي واقتحموا جناح الملكة وجناح الملك وقيل ان منهم من أراد أن يفتك بالملكة ماري انطوانيت . وفى هبة ٥ أكتوبر صدق الملك على قوانين الغاء الاقطاع وعلى اعلان حقوق الانسان . وفى هبة ٦ أكتوبر قبل الملك ان يقيم فى قلب باريس وسط شعبه الجائع .

كان لافاييت ، مثل ميرابو ، من النبلاء الأحرار المؤمنين بالملكية الدستورية ، أى أن « الملك يملك ولا يحكم » . ولذا كانت سياسته - مثل سياسة ميرابو - سياسة الحلول الوسط والمصالحة بين الأضداد ، وقد فشلت هذه السياسة . كان المثل الأعلى عند لافاييت ، كالمثل الأعلى عند ميرابو ، هو نظام الحكم فى انجلترا الذى استقر منذ « الثورة المجيدة » . ثورة ١٦٨٨ ، ثورة « الحل الوسط الأعظم » بين الأحرار والمحافظين .

كان الخطأ فى سياسة الحل الوسط أو المصالحة الطبقيّة هو تصور ان الوضع فى فرنسا كان شبيها بوضع انجلترا فى ١٦٨٨ . ولكن الأمر كان مختلفا تماما . فانجلترا كانت قد سبقّت فرنسا فى ثورتها البورجوازية على حكم الملكية المطلقة وحكم الارستقراطية بنحو مائة وخمسين سنة ، أى منذ ثورة البرلمان الانجليزى فى ١٦٤٠ على الملك المستبد شارل الأول ونبلائه والحرب الأهلية بقيادة كرومويل واعداء شارل الأول فى ١٦٤٩ .

١ - كانت الامتيازات الضريبية قد ألغيت فى انجلترا وكان نبلاء انجلترا يدفعون الضرائب كسائر أفراد الشعب الانجليزى ؛

٢ - كان النبلاء فى انجلترا قد انتهوا - كطبقة عسكرية - بينما كان نبلاء فرنسا لا يعرفون لهم حرفة الا حرفة القتال وكانهم

طبقات من المالك يعيشون بالسيف وحده ولا ضمان لرزقهم واستقرارهم الا امتيازاتهم الطبقيّة وخيرات الأرض المقتصبة وعرق رقيق الأرض وخدمات العبودية المتوارثة بين اقنانهم .

٣ - كان نبلاء انجلترا قد تحولوا الى رجال أعمال وصاهروا البورجوازية العليا ، وبذلك شاركوا في التجارة والانتاج الصناعى فأصبحوا جزءا من نسيج الأمة ، بينما ظل نبلاء فرنسا متمسكين بمهنة الجنديّة ، فمن زاول منهم التجارة أو الصناعة فقد اعتبره الاجتماع وسقطت عنهم نبالة الأرض والدم الأزرق . وقد ساعد نبلاء انجلترا على هذا التحول البورجوازي التوسّع الاستعماري بانتصاراتهم في حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) مع بروسيا على فرنسا والنمسا فانفردوا بكندا والهند ولوزيانا دون الفرنسيين .

هذه الفوارق الأساسية الثلاثة هي التي جعلت موقف لويس السادس عشر ونبلاء فرنسا موقفا يائسا شبيها بموقف شارل الاول ونبلائه في انجلترا قبل الحرب الأهلية واحبط كل المصالحات الطبقيّة وسياسات الحلول الوسط .

كان لافاييت معبود البورجوازية الثائرة لأنه حماها من اليمين « الارستقراطية » ومن اليسار « الطبقات الشعبية » . والواقع ان لافاييت أصبح في انتفاضة ٥ و٦ أكتوبر ١٧٨٩ منقادا رغم أنه فحين علم في ٥ أكتوبر بخروج مظاهرة الخبز الى فرساي ودعى لقيادة الحرس الوطنى بوصفه رئيسا له قبل ذلك على مضض لأنه وجد نفسه في موقف المواجهة للشعب وللملك أو فلنقل في موقف الحارس للشعب وللملك معا .

وبانتقال الملك الى التويلرى انتقلت معه الجمعية الوطنية بناء

على اقتراح من ميرابو . وكانت تعقد اجتماعاتها فى « قاعة الألعاب » Salle du Manège « مراجيح اللونا بارك » ، بعد اعدادها . وكان النبلاء يجلسون فى يمين القاعة ، وكانوا يسمون « بالسود » Les Noirs على غرار الحزب الارستقراطى فى السنيورىه بفلورنسا أيام دانتي اليجييرى . وكان « الوطنيون » Les Patriotes وهم مجموع أنصار النظام الجديد ، يجلسون فى يسار القاعة . ومنذ ذلك التاريخ استقر اصطلاح « اليمين » للدلالة على المحافظين وأنصار القديم واصطلاح « اليسار » للدلالة على الأحرار والشوار وأنصار الجديد بصفة عامة . ولم تكن هناك تجمعات أخرى . ولكن درجة درجة ظهرت الأحزاب المتعددة ، وكان من حق أصحاب العرائض ان يراقبوا أعمال الجمعية الوطنية من وراء درابزين الجمعية .

وكانت أغلبية « الوطنيين » تسمى نفسها « الدستوريين » Les Constitutionnels تحت قيادة لافاييت ، وكانوا جميعا مؤمنين بقوانين ١٧٨٩ التى انتزعت من الملك انتزاعا . ويمثلون البورجوازية . وكان أشهرهم ميرابو وسييز . أما اليسار فكانت له قيادة ثلاثية مكونة من : بارناف Barnave وديبور Du Port ودى لاميت de Lameth ولكن هؤلاء الزعماء كانوا يجنحون الى الملك . وعندما أفل نجم لافاييت فى نهاية ١٧٩٠ حلوا محله كمستشارين للملك . وفى أقصى اليسار كان هناك ثالث آخرهم : بيزو Ruzot وبتيون Pétion وروبسبير Robespierre وكانوا يدافعون عن مصالح الجماهير ويطالبون بالتصويت العام .

أخذت الحياة السياسية فى فرنسا الثائرة تتكون درجة درجة فتعددت « النوادى السياسية » التى كان يجتمع فيها نواب « الطبقة الثالثة » أو نواب « الجمعية الوطنية » . فبدأوا منذ مايو ١٧٨٩

يجتمعون في « النادي البريتون » Club breton لمناقشة قضاياهم السياسية ، ولكنهم بعد أحداث أكتوبر ١٧٨٩ أخذوا يجتمعون في « نادى اليعاقبة » Club jacobin في شارع سانت أونوريه Saint-Honoré « وهو دير القديس سان جاك أى القديس يعقوب » بعد ان استأجروا قاعة الطعام فيه لاجتماعاتهم . وكانوا يسمون أنفسهم « جمعية أصدقاء الدستور » Société des Amis de la Constitution وكان هذا النادي يتراسل بانتظام مع فروع له في كل مدن فرنسا ، مما جعله بمنزلة المركز العصبى لاجورجوازية الثائرة المناضلة .

وفى ابريل ١٧٩٠ افتتح نادى الكوردلييه Club des Cordeliers الذى كان يجتمع فى دير الرهبان الفرنسيسكان ويسمى نفسه « جمعية أصدقاء حقوق الانسان » ، وهو ناد ديمقراطى كان أبرز من فيه دانتون Danton ومارا Marat .

ومن نادى اليعاقبة انفصل « نادى الفوليان » Club des Feuillants برياسة لافاييت عندما أعلن اليعاقبة فى ١٧٩١ بعد هرب الملك ومذبحة شان دى مارس Champ de Mars اتجاههم الديمقراطى الشعبى بقيادة روبسبير وكان الفوليان يجتمعون فى نادى الرهبان البندكتين Benedictines ، وكان ناديهم يضم النبلاء الأحرار وأبناء البورجوازية العليا « كبار الرأسماليين » المتمسكين بالملك وبالدستور بدرجة متساوية . وقد ضاعف الفوليان رسوم اشتراك ناديهم ليستبعدوا من عضويته أبناء البورجوازية المتوسطة .

والغريب ان كل هذه التجمعات السياسية كانت تختار مقارا لاجتماعات خارج الجمعية الوطنية أبنية الأديرة ، وكانهم « رهبان الليل وفرسان النهار » ، أو كأنهم كانوا يحسون فى أعماقهم انهم

بسبيل صياغة دين جديد . وربما ساعد على ذلك خراب العديد من أديرة فرنسا التي هجرها رهبانها فلم يبق من حياة الرهبانية المسيحية الا واجهات ظاهرية بغير مضمون دينى حقيقى .

وقد عبر كاميل ديمولان Camille Desmoulins عن هذا المعنى الغربى فى عدد ١٤ فبراير ١٧٩١ من جريدته « ثورات فرنسا والبرابانت » (بلجيكا وهولندا) بقوله : « ان نادى اليعاقة هو كنيسة اليعاقة ، ويبدو انه مدعو لنفس القيادة التى تتولاها كنيسة روما فى نشر المسيحية ، وذلك فى نشر الوطنية ، أى حب البشر . . وفى قلب نادى اليعاقة تأتى من كل جهة شكاوى المظلومين قبل عرضها على الجمعية الوطنية الموقرة » .

فى الظاهر ، فى الظاهر فقط . كان انتقال لويس السادس عشر من قصر فرساي الى قصر التويلرى انتصارا لشعب باريس . أما الحقيقة فهى ان الملك سرعان ما استرد بعض قوته بسبب سياسة الحل الوسط التى كان يمثلها لافاييت وميرابو ودعاة الملكية الدستورية ، رغم ان كلا من الرجلين كان يكره الآخر كراهية عميقة .

كان ميرابو يطمح فى ان يكون وزيرا فاخذ يناور بين الملك والجمعية الوطنية . وأفسد عليه لافاييت مخططه فاستصدر فى ٧ نوفمبر ١٧٨٩ قرارا من الجمعية الوطنية يحظر على أعضائها تقلد منصب فى السلطة التنفيذية أثناء فترة تمثيلها للأمة . وهنا اتصل ميرابو سرا بالبلاط الملكى ليحل مشاكله المالية . واستخدم الملك لافاييت ميرابو ليدافع فى لجنة الدستور عن حق الملك فى اعلان الحرب والسلم ، فاستصدر ببلاغته الرهيبية قرارا بذلك من الجمعية الوطنية ، فدعم بذلك مركز الملك بخراب ذمته ، بل أسبغ الشرعية على تحركات الملك ليتواصل سرا مع الدول الأجنبية لخصار فرنسا وغزوها .

كان مييرابو يكره لافاييت ويسخر من عسكريته لأنه استمد كثيرا من شهرته من مشاركته في حرب الاستقلال الأمريكية ، وكان يسميه « جيل سيزار » Gilles César بدلا من Jules César .
أي « قيصر الصغير » .

ولم يهدأ نبلاء فرنسا بل استمروا في تأليب انصارهم في الاقاليم على الثورة . وكان سلاحهم الخطير في ذلك هو تقوية الروح الاقليمية لتمزيق اوصال البلاد والاستفادة من التقسيمات القطاعية التقاليدية الى امارات ودوقيات وكونتيات كانت لها برلماناتها وكان لها ما يشبه الاستقلال الذاتي ، لتحريض الاقاليم على الحكومة المركزية في باريس وعلى الجمعية الوطنية وقوانينها الجديدة . وكان هدفهم الغاء الجمعية الوطنية واعادة « مجلس الطبقات » ، والغاء قوانين الغاء القطاع ، والغاء « اعلان حقوق الانسان والمواطن » . كذلك كان من اسلحتهم الخطيرة منع نقل القمح والمواد التموينية والسلاح من اقليم الى آخر لتجويع الشعب وشل قدرته على المقاومة .

ورد الشعب على ذلك بحركة واسعة المناهضة الاقليمية ، عرفت في التاريخ باسم حركة الاخاء الفيدرالي التي كان شعارها :
« فرنسا فرنسا لا اقليمية بعد اليوم ! » .

(تذكروا قصة « رابطة أبناء الصعيد » في أوائل ثورة ١٩٥٢ و « الصعايدة وصلوا » في عهد الرئيس مبارك ، و « جمهورية زفتي » جمهورية المنيا « بعد ثورة ١٩١٩ ») .

بدأت حركة « الاخاء الفيدرالي » في جنوب فرنسا بالتقاء فرق الحرس الوطني من ١٤ قرية زيفية حول مدينة جرينوبل عاصمة مقاطعة الدوفينية Dauphiné بجنوب شرق فرنسا في

٢٩ نوفمبر ١٧٨٩ ، وتماهدوا على ان ينسوا اقليميتهم وألا يذكروا الا « الوطن » وان يكونوا أمناء على مبادئ الثورة . وكان ذلك ردا على موقف نائبهم مونيه Mounier الذى كان يشير فيهم عنجهية اهل الجنوب ، واستقال من « الجمعية الوطنية » فى ١٠ أكتوبر ١٧٨٩ بعد ما رآه من أحداث أكتوبر ونيقته من فشل سياسة الحل الوسط التى كان يتبناها النبلاء الأحرار من دعاة الملكية الدستورية وقد انضم مونيه الى معسكر الارستقراطية والثورة المضادة ثم هاجر من فرنسا مع النبلاء فى ٢٢ مايو ١٧٩٠ .

واتسعت هذه الحركة واتسعت حتى شملت جميع أقاليم فرنسا فى ربيع ١٧٩٠ من بريتانى وبورجونيا والفلاندرز حتى البرانس فى جنوب غرب فرنسا . عشرات الآلاف من رجال الحرس الوطنى المسلحين يتحركون تلقائيا ليلتقوا بعشرات الآلاف من نظرائهم فى الأقاليم المجاورة ليقتسموا معا يمين الاخوان الوطنى والولاء لمبادئ الثورة واخيرا عقدوا مؤتمرهم العام فى ١٤ يوليو ١٧٩٠ بساحة - الشان دى مارس - فى باريس حيث شارك فى احتفال « الاخاء الفيدرالى » نحو ٢٠٠.٠٠٠ شخص جاءوا ليشهدوا بين باسى وشايو تجمع نحو ٥٠.٠٠٠ يحملون اليمين ، منهم ١٤.٠٠٠ من رجال الحرس الوطنى من الأقاليم يضاف اليهم الحرس الوطنى الخاص بباريس وممثلو الجيش والبحرية وأكثرهم قطعوا مئات الكيلو مترات سيرا على الأقدام ليحتفلوا بوحدة فرنسا .

وأمام المدرسة العسكرية اقيمت منصة عالية جلس عليها الملك والملكة وأقيم شيء اسمه « مذبح الوطن » اجتمع حوله مائتان من القساوسة بقيادة تاليران Talleyrand أسقف أوتان Autin الذى كان يزك فى سيره وقد تحزموا بأحزمة من قماش مثلثة الألوان ، وكان لافاييت على صهوة جواده الأبيض فترجل ليتلقى

أوامر الملك . وألقى لافاييت على المحتشدين من الحرس الوطنى ومندوبى الأقاليم الذين رددوا وراءه هذا القسم :

« نحن نقسم ان نظل على ولاء دائم للأمة ولل قانون وللملك ، وان نحافظ بكل ما نملك من قوة على الدستور الذى تصبده الجمعية الوطنية ويوافق عليه الملك ، وان نحمل - بموجب القوانين - الأشخاص والممتلكات وتداول الغلال والمواد التموينية داخل المملكة والذرائب العامة أيا كان شكلها وان نظل متحدين مع الفرنسيين كافة بعزى الاخاء التى لا تنقسم أبدا » .

هذا هو القسم الذى أقسمه رجال الحرس الوطنى ومندوبو الأقاليم بصوت عال فى ساحة « الشان دى مارس » وأقسمه الملك أمام المذبح بصوت خفيض لم يسمعه الا الكهنة . وفى هذا الوقت بالذات كانت تجرى المذابح فى جنوب فرنسا بترتيب من الملكيين والنبلاء وكان معوث الملكة مارى انطوانيت الخاص يستقبل فى نيس مدير المذابح ويهنئه على نجاحه فى ترتيبها وكانت جيوش لبوبولد الثانى امبراطور النمسا منذ ١٧٩٠ ، تدق أبواب فرنسا .

وحين شاعت الأخبار فى فرنسا هاجت الخواطر واستعد الفرنسيون للدفاع عن وطنهم . كان فى فرنسا ٣ ملايين مواطن مسلح هم الذين أوفدوا الوفود التى حلفت يمين « الاخاء الفيدرالى » فى « الشان دى مارس » وكان هؤلاء يفوقون عددا كل ما يمكن للملك أوروبا ان يحشدوا من جيوش . وتطوعت أقاليم السين Seine وشارانت Charente والجيروند Gironde وغيرها وغيرها ان ترسل كل منها الى الحدود فرقة من ٦٠٠٠ مقاتل متكفلة بتسليحها وتموينها . وفى مرسيليا بالذات - باب الجنوب - أقسم أبناؤها الا يعودوا اليها الا منتصرين وهكذا خرج جنودها زاحفين على نشيد

المارسيليز La Marseillaise الشهير الذي وضعه روجيه دى ليل
Roger de Lisle وأصبح منذ ذلك الوقت نشيد فرنسا القومي .

وفى الداخل تفاقمت المشاكل حيث تفجرت داخل الجيش
نفسه فكثرت التحرشات بين الضباط الموالين للنبلاء وجنودهم
الموالين للنورة ، وانتهت هذه التحرشات بكارثة تعرف بمذبحة
نانسى .

طلبت فرقة جنود الملك فى نانسى وهم من الفرنسيين - من
ضباطهم ان يدفعوا لهم استحقاقاتهم ، فكان لهم ما أرادوا وأرادت
الفرقة السويسرية ان تقلدهم فطبقت عليهم الأحكام العسكرية
وقوانين الاقطاع السويسرى معا وعوقب عدد منهم عقابا وحشيا .
وحاولت الفرقة الفرنسية حماية السويسريين فاستصدر لافاييت
من الجمعية الوطنية فى ٦ اغسطس ١٧٩٠ قرارات رادعة . وكلف
ابن عمه الماركيز دى بوييه Marquis de Bouillé قائد عام
الموز Meuse والموزيل Moselle ان يفرض النظام .

وبد فعل بذبح نصف الفرقة السويسرية وشنق العشرات ونفى
العشرات ، وكان الضباط الفرنسيون يتشفون فى ضحايا هذه
المذبحة ويهتفون بضباط الفرقة الألمانية التى أطلقها بوييه على
السويسريين بأمر من لافاييت ، وكانما كان النبلاء يتشفون فى
أخماد ثورة العبيد .

لقد كانت الفرقة السويسرية التى ابست ، وهى فرقة
شاتوفيو Chateaufieux ، هى الفرقة التى كانت تقيم فى الانفاليد
يوم الباستيل وكرمت ثوار الباستيل ينهبون آلاف البنادق وبعض
المدافع فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ . ياله من انتقام رهيب هز الضمير
الثورى فى فرنسا .

شيء آخر خطير حدث خلال العام التالي لسقوط الباستيل ، هو ان توقف المواطنون عن دفع الضرائب العامة في وقت افلاس الخزانة العامة وهجرة النبلاء بثرواتهم على نطاق واسع ، وفشل نيكر في طرح قرض وطني جديد ، زاد موقف الدولة المالي تازما . الى حد ان الملك نفسه اضطر الى ارسال الاواني الملكية الذهبية الى دارسك النفود . وفي ٢٩ سبتمبر قررت الجمعية الوطنية ان تسلم الكنائس للخزانة كل الاواني الفضية غير الضرورية حقيقة للطافوس الدينية ، وفي ١٠ أكتوبر ١٧٨٩ اقترح تاليران ، استنف اوتان ، وضع املاك الكنيسة تحت تصرف « الأمة » ، قائلا في بيانه للجمعية الوطنية :

« ان رجال الدين ليسوا ملاكا مثل الملوك الآخرين . . . ونحن نعلم ان ذلك الجزء من املاك الكنيسة والاديرة اللازم لضمان معاشهم هو الوحيد الذي يخصهم . اما الباقي فهو ملك للفقراء . فلو ان الأمة ضمنت لهم هذا المعاش ، فان ملكية المنتفعين لن تمس . فالأمة اذن تستطيع أولا الاستيلاء على املاك الهيئات الدينية التي تستحق الالغاء مع ضمان معاش للأفراد الذين تتكون منهم هذه الهيئات ، وتستطيع ثانيا الاستيلاء على المنافع التي لا وظيفة لها . وتستطيع ثالثا تخفيض جزء ما من الايرادات الفعلية التي يتقاضاها أصحابها ، بالاضطلاع بالمسؤوليات المرتبطة بهذه الاموال التي نزعتم ملكيتها من حيث المبدأ » .

وثار في الجمعية الوطنية مناقشة عاصفة حول هذا الموضوع فأكد الأب موري Maury والأب كازاليس Casals ان حق التملك حق مصون ومقدس بموجب نصوص « اعلان حقوق الانسان » وبالتالي لا يجوز المساس به ، فرد ميرابو والأب سيبز بأن المادة ١٧ من اعلان حقوق الانسان تبين للدولة نزع الملكية اذا كان ذلك يخدم المصلحة العامة ، بشرط دفع التعويض العادل . كذلك بين ميرابو

وسيجز ان الكنيسة فى حقيقتها ليست « مالكة » وانما هى مجرد
مديرة لأملاكها لتنفق ريعها فى سبيل الخير ، على المستشفيات
والمدارس والملاجئ . وبما ان الدولة قد أصبحت مسئولة عن علاج
المواطنين وتعليمهم وعن ايواء العجزة والايتام وعن اغائة المحتاجين
فلا مناص من ان تنتقل اليها أملاك الكنيسة والأديرة .

وقد كان ٠٠ فى ٢ نوفمبر ١٧٨٩ أصدرت الجمعية الوطنية
قانونا بمصادرة أملاك الكنيسة والأديرة بأغلبية ٥٦٨ صوتا مقابل
٣٤٦ صوتا ، مع تكفل الدولة بمعاش القساوسة وباغائة المعوزين .
وهكذا بيعت أملاك الكنيسة والأديرة ابتداء من مارس ١٧٩٠
فاشترها أبناء البورجوازية « الطبقات المتوسعة » والفلاحون
الميسورو الحال ، وكذلك بيعت أملاك الدومين الملكى . ومن قبل
ذلك كانت الجمعية الوطنية قد ألغت الأديرة فى فرنسا بقانون صدر
فى ١٣ فبراير ١٧٩٠ . واستدعى كل ذلك اعادة تنظيم الكنيسة
فاصدرت الجمعية الوطنية فى ١٢ يوليو ١٧٩٠ « الدستور المدنى
لرجال الدين » .

ورغم ان أعضاء الجمعية الوطنية أعلنوا مرارا ان محرکہم
لاصدار هذه القوانين لم يكن أى عدا للدين ، وانما كان رغبةهم فى
انقاذ الدولة ، الا ان مصادرة أملاك الكنيسة أضافت مزيدا من الوقود
لأشعال فتنة الثورة المضادة .

١١ - لافاييت الماركيز المذبذب

كانت للماركيز دي لافاييت (١٧٥٧ - ١٨٣٤) Hilbert Marquis de La Fayette مأساة في الثورة الفرنسية شبيهة بمأساة ميرابو ، فهو مثله قد دخل مسرح الأحداث صغيرا فقد كان في الثانية والثلاثين من عمره عام ١٧٨٩ ، عام سقوط الباستيل . وهو مثله خرج من مسرح الأحداث خروجا مشينا بعد عامين أو ثلاثة في ١٧٩٢ ، فوجد نفسه في قائمة الخونة الذين تطلب الثورة رأسهم ، مرفوضا من زعمائها مرفوضا من أعدائها .

لم يمت لافاييت في شبابه أو رجولته الباكرة ، بل عاش حتى بلغ ٧٧ عاما . وشارك في خلع ملكين ، هما لويس السادس عشر عام ١٧٩٢ ، وصديق شبابه شارل العاشر (الكونت دارتوا) في ثورة ١٨٣٠ التي جاءت بلويس فيليب ملك الفرنسيين ، كما حدثنا

● نشرت بجريدة الأهرام
بتاريخ ١١/١١/١٩٨٩ .

رفاعة الطهطاوى الذى شاهد هذه الثورة ووصفها لنا فى « تخلص
الابريز » .

ومثل ميرابو كان لافاييت من طبقة النبلاء ومثل مرابو كان
النبلاء من أعداء الثورة يصفونه بأنه خائن لطبقته ، بينما كان
الكثيرون من الثوار يرون فيه منذ البداية خطرا على الثورة وانتهازيا
يمتطى الجماهير ، أحرق ، قليل الكفاءة ، عاشقا للدعاية لنفسه .
أما هو فقد كان فى شيخوخته يقول عن نفسه انه كان دائما جمهوريا
ولكن كراهيته للعباقبة جعلت اتباع روبيستير يبغضونه .

ويبدو ان نشأة لافاييت كانت لها صلة بشخصيته المعقدة
المحيرة التى تميزت بالتمرد والذبذبة بين المتناقضات . فقد ولد
لافاييت فى قصر شافانياك Chavaniac من أعمال مقاطعة
الاوفرنى Auvergne ، ولم يكن واسع الغنى ولا من نبلاء الدرجة
الأولى ، وكان من الصعب عليه أن يثبت نبالة أسرته قبل عام ١٤٠٠
مثل آل زوهان Rohan وآل نواي Noailles وآل لاروشفوكو
La Rochefoucauld ، وبالتالي فلم يكن فى إمكانه أن يلتحق بالبلاط
الملكى فى فرساي ، حيث كانت هناك لغة خاصة وعادات خاصة
وسلوك خاص ، بل ومشية خاصة أشبه بالترحلق ، وحيث رُضا
الملك ضرورى للترقية السريعة . كانت هناك ثلاث طبقات من
النبلاء : نبلاء البلاط ونبلاء الريف ونبلاء القضاء المعروفين بنبلاء
الروب ، وكان هؤلاء أغنياء ، ولكن كان يحترقهم غيرهم من النبلاء .

كان جيلبر لافاييت ابنا لواحد من نبلاء الريف ، مات أبوه
الضابط بقذيفة انجليزية فى ١٧٥٩ دون أن يرى ابنه جيلبير ، فتشأ
لافاييت الذكر الوحيد فى محيط من النساء فى قصر شافانياك ،
وسرعان ما تركته أمه فى ١٧٦٠ وعاشت فى باريس ، فكفلته جدته
لأبيه ، وكانت سيدة متدينة من الطراز القديم ، تصحب حفيدها دائما

الى الكنيسة كره منه ، ولكنه توقف عن اصطحابها عندما استطاع ذلك . أما دخل الأسرة فكان ٢٥٠٠٠ جنيه سنويا (فى الجنيه وقتئذ ٢٥ فرنكا بالأسعار الحالية ، أى ان دخل الأسرة سنويا كان ٦٢٥٠٠٠ فرنك بأسعار ١٩٨٣ عام نشر كتاب أوليفيه برنيه Olivier Bernier « لافاييت » فى طبعة مايو Payot ، ولم يكن هذا المبلغ كافيا للسطوع فى بلاط فرساي ، أو حتى لشراء الأورطة التى كان يقودها أى ضابط فى الجيش ، حتى ١٧٨٩ كان الملك يمنح الرتب العسكرية ، ولكن كان على النبيل ان يشتري الكتيبة التى يقودها .

وفى ١٧٦٨ ، حين كان لافاييت فى الحادية عشرة من عمره ، أرسلت أمه فى طلبه ليقيم معها فى باريس . وكانت تقيم فى جناح بقصر لوكسمبورج حيث كان يقيم آل لاريفير La Riviere ، وهم أسرة لافاييت لأمه ، وقد كانوا من نبلاء الطبقة الأولى ، نبلاء البلاط ، وكانوا يعودون بنسبهم الى سنة ١٠٠٠ ميلادية ، وكان منهم مارشال فى القرن الخامس عشر ، وكانت منهم محظية الملك لويس الثالث عشر ، ومؤلفة أول رواية فى اللغة الفرنسية . وقد ساعدت أم لافاييت أباه الضابط ان يحصل على رتبة كولونيل قبل مقتله فى ١٧٥٩ .

وكان غرض الأم من استقدام ابنها الى باريس هو ادخاله المدارس الراقية وتقريبه من المجتمع المتمدن ومن مركز السلطة وتعريفه بصدور الدولة . وكان لافاييت يشعر بشعور الريفى وسط كل هؤلاء الارستقراط المتمدنين ، ففى باريس لا أحد يعرف شيئا عن آل لافاييت . وحين صدر تقويم الأعيان فى ١٧٧٧ لم يرد فيه ذكر لآل لافاييت .

وكانت أمه شابة فى الثلاثين ، وأدخلته كلية دى يليسبس College Du Plessis بجوار السوربون ، وكان كل زملائه أرفع

منه ارستقراطية ، فاحس بالغربة ولم يخالط أحدا ونشأ صموتا ومنزويا وربما ماكرا يظهر ما لا يبطن ، أو على الأقل مزدوج الشخصية مذبذبا متأرجحا بين المتناقضات . هذه النشأة بذرت فى نفسه بذور التمرد على طبقته وحب الحرية والمساواة والاحساس بحقوق الانسان من جهة ، دون تفريط فى النبالة والامتياز من جهة أخرى .

وفى ١٧٧٠ مرضت أمه وماتت فى سن الثانية والثلاثين ، ثم تبعها جده لأمه وعم له بالزواج . وبهذا أصبح لافاييت من أغنى الشباب فى فرنسا لأنه كان الوريث الوحيد لكل هؤلاء وهو فى سن ١٢ سنة : ورث أطيان جده فى بريتانى وعلى نهر اللوار ، وأصبح دخله ١٢٠.٠٠٠ ر. جنيه سنويا أى نحو ٣ ملايين فرنك بالإضافة الى ما كان قد ورثه عن أبيه . واشترى له جده رقبة ملازم فى الأورطة التى كان أبوه يقودها . وبدأ لافاييت خدمته العسكرية فى ١٧٧١ وهو فى سن ١٤ سنة . ولكنه استمر فى الدراسة عاما آخر .

وكانوا فى تلك الأيام يخطبون للشباب وهم بعد صبية ، فرتب له جده قبل ان يموت ان يزوجه من أدريين Adrienne بنت الدوق أيان Duc Dayen قائد الحرس الملكى وحفيده المارشال الدوق نوادى Duc De Noailles كانت دوطتها ٤٠٠.٠٠٠ ر. جنيه أى ١٠ ملايين فرنك . والتحق لافاييت بأكاديمية الفرنسان فى سن ١٦ سنة ، وكان نجم الأكاديمية هو الكونت دارتوا ، ووجد لافاييت نفسه فجأة فى البلاط الملكى تحت جناح عديله الفيكونت دى نواى . وتزوج لافاييت فى ١٧٧٤ قبل ان يبلغ الثامنة عشرة من عمره . وفى هذا العام ارتقى لويس السادس عشر ومارى انطوانيت عربة فرنسا . وفى عمر ١٨ سنة رقى لافاييت الى رتبة كابتن ، ثم أحيل الى الاستبداع فى سن ١٩ سنة . وكان شقيا فى حياة

البلاط فقد وجدها موزعة بين الرقص والأزياء والترنرة التافهة
الذكية والخيانة الزوجية والنفاق ، الخ . . فاعرض عنها وتركزت
أحلامه في الجندية .

وفي ١٧٧٧ سافر الى أمريكا ليقا تل مع الثوار في حرب
الاستقلال الأمريكية تحت إمرة واشنطن ، وكان برتبة لواء وغم
انه كان لا يزال في العشرين من عمره ، فقد كانوا في تلك الأيام
يشترى الرتب . ومع ذلك فقد أبلى بلاء حسنا في حرب الاستقلال
الأمريكية ، وكان آخر عمل عسكري قام به في أمريكا عام ١٧٨١
مساعدة واشنطن على الانتصار في يوركتاون Yorktown
وبعدها عاد الى فرنسا متوجا بأكليل الغار وسمى يومئذ ببطل
العالمين ، القديم والجديد . وصفح عنه الملك لأنه قام بمغامرته
الأمريكية ضد إرادة الأسرة وضد الأمر الملكي ، واستقبله بالحفاوة
الكبرى لأن مغامرته الأمريكية جعلت منه نجما في صالونات باريس
وفرساي وشخصية رومانسية تسحر خيال الشباب والنساء
والجماهير .

وبعد عودته الى باريس انتخب ممثلا للنبيلاء في مجلس
الطبقات ، فكان من أوائل الدعاة لإعلان حقوق الإنسان . وفي يوم
الباستيل اختير قائدا للحرس الوطني . وبلغ قمة مجده في عيد
الآباء الفيدرالي (١٤ يوليو ١٧٩٠) . ولكن نجمه أفل بعد مذبحة
ناتسي وسقط كزعيم سياسي ولم يبق منه الا « الجنرال » المستول
عن جانب من الجبهة عندما غزيت فرنسا . وفي محاولة هرب الملك
كان له دور غريب في محاولة انقاذ الملك والملكية ، فتألبت عليه
كافة القوى الديمقراطية وصدر قرار من الجمعية التشريعية في
١٠ أغسطس باتهامه بالخيانة فُلجأ الى النمساويين الذين اعتلقوه
وعاد الى فرنسا بعد انقلاب ١٨ برومير (١٧٩٩) الذي استولى به

بونابرت على السلطة واعتكف فى الريف فى ظل الامبراطورية لأنه لم يجد له مكانا فى نظام نابوليون .

كان لافاييت دائم التودد للجمعية الوطنية ، وكأنه يريد ان يقنع الجميع بأن قاعدته مدنية وليست عسكرية . وفى ١٩ يونيو ١٧٩٠ اقترح على الجمعية الوطنية الغاء جميع الألقاب فأغضب الملك ، ولكنه لم يلبث ان اعتذر للملك عن ذلك فى ٢٧ يونيو . وهذا هو نفس الرجل الذى اقنع الجمعية الوطنية باتخاذ اجراءات رادعة مع الحامية المتمردة على ضباطها الارستقراط فى نانسى ، فأسفر ذلك عن مذبحه نانسى الرهيبة فى أغسطس ١٧٩٠ .

وبعد مذبحه نانسى قامت مظاهرات الاحتجاج فى التويلرى ففرقها لافاييت برصاص الحرس الوطنى بأمر من بالى عمدة باريس وبقرار من الجمعية الوطنية التى كانت تخشى اشتراك العامة فى الحياة السياسية . ومنذ ذلك الحين شحبت نجمة عند الجماهير . ورغم ان لافاييت حذر الحرس الوطنى من الخطر على « النظام العام » من « الفوضى » و « الحرية المعربرة » فقد أخذت الجماهير تستمع لكلام زعماء « اليسار » : مارا Marat وبريسسو Brissot ودانتون Danton . وفى عدد ١٣ سبتمبر ١٧٩٠ من « صديق الشعب » هاجم مارا « ذلك الرجل » واتهمه بأنه جلد الحرس الباريسى بالعمسار بموافقته على « مذبحه الوطنيين فى نانسى » . ولم يوزع هذا العدد ولكن بعد وقت نشر كاميل ديمولان Camille Desmoulins مقالا يقول فيه ان لافاييت ليس من قماش واشنتون فهو ينتظر اللحظة التى يمكنه فيها أن يقوم بدور الجنرال مونك Monck وهو الجنرال الذى أعاد الملكية فى انجلترا عام ١٦٦٠ بعد جمهورية كرومويل .

وفى صيف ١٧٩٠ أصدر مارا منشورا بعنوان « ما يفعلونه بنا » قال فيه ان حشودا من القوات الأجنبية بقيادة الكونت دارتوا تستعد .

لغزو فرنسا ، ولكن لا أحد يتكلم عن ذلك خوفا من الوزراء ومن يالى
عمدة باريس ، ومن قائد الميليشيا الباريسية الذى تربطه مع البلاط
روابط تدعو للأسف الى الانزعاج ، ودعا مارا الشعب ليزحف الى
ضاحية سان كلو Saint-Cloud حيث يقضى الملك والملكة أجازة
الصيف ويعيد الملك الى باريس ويضع النمساوية فى السجن
ويقبض على قيادة الجيش ، واختتم بقوله : « خمسمائة أو ستمائة
رأس يفصم وتكونون قد ضمنتم بها أمنكم وحریتکم وسعادتکم .
ان الرحمة الزائفة قد شلت سواعدكم وأوقفت ضرباتكم ، وهى
ستكلفكم حياة الملايين من اخوتكم . فلو نجح اعداؤكم لحظة لسالت
دماؤكم أنهارا ، لذبحوكم بغير رحمة ، وبقرؤا بطون زوجاتكم ،
ولا تنتزعوا بأيديهم الدموية قلوب أطفالكم من أحشائهم لكى يشفوكم
تماما من حب الحرية » .

وفى صباح ١٨ ابريل ١٧٩١ أراد لويس السادس عشر
وأسرته ان يغادروا قصر التويلرى ليقضوا عيد القيامة فى قصر
سان كلو ، فمنعه الحرس الوطنى من مغادرة التويلرى . لقد كان
واضحا ان الاسرة المالكة كانت سيجينة التويلرى ، واستقال لافاييت
من قيادته الحرس الوطنى ، ولكنه عاد وسحب استقالته .

وفى ٢٠ يونيو ١٧٩١ هرب الملك وأسرته من قصر التويلرى
قاصدين حدود فرنسا الشرقية ليكونوا فى حماية ليوبولد الثانى ،
امبراطور النمسا شقيق ماري انطوانيت ، وجيوشه المتأهبه مع
حلفائها لغزو فرنسا وتثبيت لويس السادس عشر على عرشه واعادة
النظام الاقطاعى وسحق كل مكاتبات الثورة الفرنسية .

ولم يعرف لافاييت بهرب الملك الا فى اليوم التالى (٩) وبدأت
ورطة حقيقية لان الخبر كان على كل لسان والخواطر هائجة .
فاجتمع لافاييت فورا ببالي Baily عمدة باريس وبالكساندر دى
بوهارنيه Alexandre De Beauharnais الذى كان رئيس الجمعية

الوطنية ، وسألها : ما رأيكما هل القبض على الملك وأسرته ضرورى لتجنيب البلاد الحرب الأهلية ؟ » فاجابا بالايجاب . فقال لافاييت : « اذن ستأخذ على عاتقى هذه المسئولية » .

وكتب لافاييت على ورق الحرس الوطنى :

« أمر : بما ان أعداء الثورة قد اختطفوا الملك ، فحامل هذا مكلف باخطار المواطنين الصالحين ، وهو مكلف باسم الوطن الذى يكتنفه الخطر . باستخلاص الملك من أيديهم واعادته الى قلب الجمعية الوطنية ، وهى سوف تجتمع ، ولكنى آخذ على عاتقى كل المسئولية عن النظام الحالى » . وأرسل لافاييت الرسل وراء الملك الهارب .

وفى ٢١ يونيو أعلنت الجمعية الوطنية نبا خطف الملك وبعض أفراد أسرته بأيدي « أعداء الشعب » للتأمر على الحرية الفرنسية ، وكان كل هذا الكلام غبيا لأن الملك ترك وراءه فى التويلرى وثيقة تندد بالثورة ولكل أعمالها ، ولأن الكونت دى بروفانس ، ولى العهد ، كان قد هرب أيضا . وفى أثناء تغيير الجياد فى فارين Varennes قبض على لويس السادس عشر وأسرته وأعيدوا مخفورين الى باريس فوصلتها فى ٢٥ يونيو ١٧٩١ .

وفى باريس خطب دانتون فى نادى اليعاقبة قائلا : لقد حلف لنا القائد العام للحرس الوطنى برأسه ان الملك لن يغادر التويلرى ، ونحن الآن نطالب بشخص الملك أو برأس القائد العام . واعترض الكسساندر دى لاميت De Lameth على هذا الاقتراح فرفض .

لم يصدق أحد هذه الكذبة الغبية ، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة التى أنفذ بها لافاييت والجمعية الوطنية الملك والملكية فى

فرنسا مؤقتا ، فلو انهم تحدثوا عن هرب الملك الى معسكر الأعداء
لكان من الواجب خلعهم ومحاكمته واعدامه ، بل وعلان الجمهورية .
واكتفى بإيقافه عن وظائفه . وقد نجح الملكيون الدستوريون بقيادة
لافاييت فى وقف المد الجمهورى واستمرار لويس السادس عشر على
عرش فرنسا .

وفى ١٦ يوليو ١٧٩١ قامت المظاهرات فى شأن دى مارس
تطالب بخلع الملك ووقعت العرائض التى أعدها اتبباع فيليب
أورليان لذلك . وفى ١٧ يوليو بدأ الشعب فى الشأن دى مارس .
وكانت أغلبية الجمعية الوطنية ضد الدوق أورليان وضد النظام
الجمهورى ، فطالبت باقرار النظام وأغلقت نادى الكوردلييه وعطلت
صحف اليعاقبة وطالب بالى عمدة باريس لافاييت باستخدام قوة
الحرس الوطنى ، وأعلنت الأحكام العرفية وجرت محاولة فاشلة
لاغتيال لافاييت . ورغم نجاح لافاييت فى قمع المظاهرات الا ان هذه
كانت نهاية شعبيته وسيطرته على جماهير باريس ، وقد سمى
بالسفاح لأنه أطلق الرصاص على الجماهير فاردى خمسين قتيلاً كذلك
انتهت سلطة الجمعية الوطنية ، ولم يعد لأحد سلطة فى باريس
الا اليسار ، وهم اليعاقبة والجيروند . وفى سبتمبر ١٧٩١ أعيد
الملك الى عرشه . وفى ١٣ سبتمبر أعلن العفو العام بناء على اقتراح
الملك . وفى ١٨ سبتمبر صدر الدستور المنقح . وفى ٣٠ سبتمبر
انفضت الجمعية الوطنية بعد ان أصدرت قانونا يحرم على أعضائها
الاشتغال بالسلطة التنفيذية . فاستقال لافاييت من قيادة الحرس
الوطنى الذى أهدها سيفاً مقبضه من ذهب . وسكت الجمعية
الوطنية له ميدالية بصورته .

كانت مذبحه الشأن دى مارس (١٧ يوليو ١٧٩١) بداية
صفحة جديدة فى تاريخ الثورة الفرنسية ، فقد أفضت كذبة
« اختطاف الملك » الى تبرئة لويس السادس عشر عن تهمة الخيانة

العظمى ، وبذلك استرد سلطاته الدستورية وعاد الى الجلوس على عرشه والى قيادة الارستقراطية فى المناورة للاطاحة بكافة مكاسب الثورة الفرنسية . وكانت وسيلتهم الى ذلك اشعال الحرب الخارجية وفتح الطريق امام الجيوش الأجنبية بقيادة النبلاء المهاجرين التى كانت تدق أبواب فرنسا لتثبيت الملك على عرشه واعادة النظام الاقطاعى الى البلاد .

كذلك كانت وسيلتهم الثانية هى اشعال الفتن الداخلية بالاستعانة برجال الدين الغاضبين بسبب مصادرة أملاك الكنيسة والأديرة وبسبب قطع كل صلة بينهم وبين بابا روما والفاتيكان وتحويلهم الى كنيسة قومية ينظمها دستور مدنى .

كذلك كانت وسيلتهم الثالثة هى الاستفادة من مخاوف الجمعية الوطنية ثم الجمعية التأسيسية حامية مصالح البورجوازية . أى الطبقات المتوسطة المالكة ، بعزل الطبقات الشعبية عن المشاركة فى الحياة السياسية بحرمانها من حق الانتخاب ومن الاشتراك فى الحرس الوطنى .

وقد ساعد لافاييت على تدهور الموقف بسياساته المذبذبة بين الارستقراطية والجماهير .

ولم يكن الملك ونبلاؤه وجنرالاته وحدهم دعاة حرب ، بل كان الثوار المعتدلون من الجيرونديين وبعض المتطرفين من اليسار دعاة حرب أيضا أملا فى أن يلهبوا بالاشتعال الوطنى روح الثورة فى مواجهة الملك ونبلائه ، فاعلنت الحرب على النمسا فى ٢٠ ابريل ١٧٩٢ ووقف روبسبير وحده يندد بالحرب .

وفى أول مايو ١٨٩٢ خطب روبسبير فى اليعاقبة يقول :
« كلا ! أنا لا أثق بتاتا فى الجنرالات ، فباستثناء قلة منهم شريفة

فانى أقول انهم جميعا على وجه التقريب أسفون على ضياع النظام القديم وعلى ضياع المزايا التي كان البلاط يغدقها عليهم . كلا . انا لا أعتد الا على الشعب ، على الشعب وحده » لقد كان روبسبيير يخشى خيانة الجنرالات . قال روبسبيير : « حطموا لافاييت تنقذوا الأمة » أما دانتون فقال في اليعاقبة في ١٨ يونيو ١٧٩٢ : « ليس من شك في ان لافاييت هو زعيم أولئك النبلاء المتحالفين مع كل طغاة أوروبا » .

وكان لافاييت يقود الجيش في الحدود الشمالية الشرقية (بلجيكا) وكان ظهيره الجنرال روشامبو Rochambeau وكان الجنرال لوكنز Lackner يقود جيش الراين قرب متز Metz . وكان لافاييت وضباطه النبلاء مشغولين بالسياسة أكثر من اشتغالهم بالحرب ، ثائرين للحصار الذي فرضه اليعاقبة في باريس على الملك الهارب ، قاثاروا روح التمرد في جنودهم . وكان لافاييت يخطط للزحف على باريس ليقوم مذبحه لليعاقبة . كما كتب هو في خطابه للجمعية التشريعية في أول أكتوبر ١٧٩١ . وفقا للدستور ١٧٩١ :

« أفلا نرى يجب أن نحارب الأجانب الذين يتدخلون في خلافاتنا فهل يعفينا هذا من انقاذ وطننا من الطغيان الداخلي ؟

« يجب ان تبقى سلطة الملك غير متقوضعة لأن الدستور يضمنها يجب ان تكون مستقلة ، فاستقلال سلطة الملك دعامة من دعائم حريتنا . يجب ان يكون الملك موقرا لأن الملك يجسد الجلالة القومية . يجب ان يتمكن الملك من اختيار وزارة لا تقيدها اصفاة أى حزب من الأحزاب . فان وجد متآمرون فيجب ان يهلكوا بالسيف وحده » (خطاب لافاييت الى الجمعية التشريعية في ١٦ يونيو ١٧٩٢) .

اما أولئك المتآمرون الذين كان يتحدث عنهم لافاييت فى خطابه فهم « حزب اليعاقبة الذين يشيرون كل القلائل . انه الحزب الذى اتهمه بصوت مرتفع . هو الحزب المنظم وكانه امبراطورية مستقلة داخل العاصمة وفى فروعه المختلفة ، يقوده قيادة عمياء بعض الزعماء بدافع من طموحهم الشخصى . هذه الطائفة تشكل نقابة واضحة داخل الشعب الفرنسى » .

بل ان لافاييت تركه مكانه فى جبهة القتال وعاد الى باريس ، ليردد بشخصه نفس الكلام امام الجمعية التشريعية فى ٢٨ يونيو ١٧٩٢ فاستمعت الجمعية التشريعية لخطابه فى فتور واضح ، فقفل راجعا الى ميدان القتال ، وبدأت الجمعية التشريعية تتشكك فى ولائها جنرالاتها للثورة . وتوالى الهزائم العسكرية فى جبهة القتال .

وفى ١٥ يوليو ١٧٩٢ اقترح النائب باسير Basire ادانة لافاييت بتهمة الخيانة فرفضت الجمعية التشريعية اقتراحه .

وفى ٢٠ يوليو طالب روبسبير مرة اخرى بالقبض على لافاييت . وفى ٤ اغسطس ١٧٩٢ ايدت لجنة اقتراح روبسبير ، ولكن الجمعية التشريعية رفضت اقتراح روبسبير بأغلبية ٢٠٦ اصوات ضد ٢٤ صوتا . وبعد ستة ايام اقتحمت الجماهير الثائرة قصر التويلرى من جديد فلجأ الملك الى الجمعية التشريعية ليحتسب بها . وبعد مناقشة طويلة قررت الجمعية اعتقال الاسرة المالكة وارسلتها مخفورة الى السجن - وعيدت القائد ديموريز Dumouriez بطل معركة فالى Valmy الذى أمر باعتقال لافاييت ، ولكن لافاييت هرب من سيدان Sedan التى اقام فيها مقر قيادته الى معسكر الأعداء مع ثلاثين من ضباطه فى ١٩ اغسطس ١٧٩٢ .

هذا ما فعلته خمرة العقائد أو الطموح الشخصى أو المصالح

الطبقية يجندى باسل خرج منذ خمس عشرة سنة ليحرر الأمريكيين من ربة الانجليز ، ولكن أمره انتهى بعجزه عن تحرير وطنه من ربة النمساويين والجيش المتحالفة . أليس فى مأساة لافاييت وجه شبه من مأساة كريولانوس فى شكسبير ؟

لم يقاتل لافاييت بسبب مبادئه ، فى صفوف أعداء بلاده النمساويين والبروسيين كما فعل غيره من نبلاء فرنسا المهاجرين ، بل أثر ان يعيش معتقلا فى بلاد الأعداء حتى أفرج عنه القائد المظفر نابليون بونابرت عام ١٧٩٧ على الا تطأ قدماه أرض فرنسا ، ولكن هذه قصة أخرى .

قال لافاييت . بالسيف سوف تهلكون . وقال الثوار : بالمقصلة سوف تهلكون لقد انتهت حرب الكلام وبدأت حرب النضال . لقد أدخل لافاييت الثورة الفرنسية فى مرحلتها الدموية .

١٢ - فارين : هروب الملك واعدامه

عندما هرب الملك لويس السادس عشر من باريس مع أسرته ليلحق بجيش النبلاء وبجيش الاعداء المرابط على حدود فرنسا الشمالية الشرقية « بلجيكا » ، أعلن لافاييت ومن بعده الجمعية الوطنية ان اعداء الشعب « اختطفوا » الملك والعائلة المالكة ، لأن اعلان « هرب » الملك كان بالضرورة يستدعى محاكمة لويس السادس عشر وخلعه وربما اعدامه ، ولو غيايبا ، واعلان الجمهورية باعلان دستور جديد غير دستور ١٧٩١ الذى كان مؤسسا على مبدأ الملكية المقيدة وهذه حقيقة ما حدث :

فى ليلة ٢٠/٢١ يونيو ١٧٩١ ، نحو منتصف الليل خرج لويس السادس عشر من باب جانبى بقصر التوليرى تصحبه أسرته ، وكان الملك متخفيا فى زى خادم خاص . وكان لافاييت فى الوقت

● نشرت بجريدة الامرام
بتاريخ ١٩٨٩/١١/٢٥ .

نفسه ينفق الحراسة على أبواب القصر لكنه منذ وقت طويل تد
ترك بلا حراسة أحد أبواب القصر ، ليسمح للكونت اكسيل فيرسن
Axel Fersen صديق الملكة ماري انطوانيت بالدخول والخروج عند
الملكة كما يريد . وكان يشاع عنه أنه عشيق الملكة .

وكان الكونت اكسيل فيرسن سويدي الجنسية ، وكان سفيرا
لبلاده في باريس مقربا ولامعا في البلاط الفرنسي بسبب وسامته
وولائه لماري انطوانيت ، فلما انتهت مدة سفارته آثر ان يقيم في
البلاط الفرنسي بسبب صداقته للملكة وبسبب مباحج الحياة في
فرساي .

وكان اكسيل فيرسن قد أعد خصيصا للهرب مركبة ضخمة
يمكن للأسرة المالكة أن تتكدس فيها ومعها حقائب أكثر من المعتاد .
تحت ستار ان المركبة كانت تحمل خزائن من العملات الذهبية
المرسلة الى الجنرال بوييه Bouillé لتمويل حاميته في نانسي
وضعت نقط حراسة من الفرسان على طوال الطريق من باريس الى
سانت منيهو Sainte-Menchould عن طريق سستالون
Chalons-Sur-Marne وأرجون Argonne وهكذا كان من المقرر
أن يبلغ لويس السادس عشر مونميدي Montmédy وكانت تحف
بها من الجانبين كوكبة من الفرسان . وتأخر رحيل العربة الملكية
من قصر التويلري خمس ساعات .

ولما تأخر وصول العربة الملكية الى شالون انصرف الفرسان في
نقط الحراسة التالية لشالون . ووصل الملك الى فارين Varennes
في ليلة ٢١/٢٢ يونيو ، ولم يجد فرسان الحراسة ، وتوقف فيها
ليغير جيار عربته في فندق في سانت منيهو كان يديره صاحبه واسمه
درويه Drouet يديره كمحطة لتغيير الجياد . وفي سانت منيهو
تعرف ابن صاحب الفندق على الأسرة المالكة حيث كانت العربة

واقفة . وأقام المتاريس على كوبرى بنهر اير Aire ليمنع مرور
العزبة . ولما أراد الملك العبور وجد الكوبرى مسدودا . ودق ناقوس
البلدة فتنجم الفلاحون فى حالة استنفار وانضم اليهم الفرسان
نفسه يتفقد الحراسة على أبواب القصر لكنه كن منذ وقت طويل
الهوسار ممن كانوا يحرسون العربة متضامين معهم .

وفى صباح ٢٢ يونيو عادت العائلة المالكة فى طريقها الى
باريس فى حراسة بارناف Barnave وبيتون Pétion تحفها
من الجانبين كوكبة من الحرس الوطنى جاءوا من كل القرى المجاورة
وعومل الملك والملكة معاملة السجناء الفارين . وعرف الجنرال
بوييه بالأمر ولكنه وصل بعد رحيل الملك بساعتين . وفى مساء
٢٥ يونيو دخل الملك باريس وسط الصمت الرهيب ، يخف به من
الجانبين الجنود حاملين بنادقهم مقلوبة الى أسفل ، وكانهم يسرون
فى « جناز الملكية » .

كان البيان الذى كتبه لويس السادس عشر موجها الى الشعب
الفرنسى وتركه فى قصر التويلرى قبل هروبه واضحا تماما فى
اعرابه عن نوايا الملك : فقد أعلن انه ينوى اللحاق بالجيش النمساوى
المربط فى بلجيكا . وانه ينوى العودة الى باريس ليحل الجمعية
الوطنية والنوادر السياسية وليوطد الحكم المطلق . وقد كانت
جميع سياسات لويس السادس عشر السرية تستهدف تدخل اسبانيا
والنمسا لصالحه . ومنذ أكتوبر ١٧٨٩ كان قد أرسل مبعوثا سرا
من رجال الدين هو الأب دى فونبرون L'abbé de Fonbrune
الى كارلوس الرابع ملك اسبانيا ليحرض أمراء الازناس على فرنسا .

كلا . . لم يكن لويس السادس عشر ذلك الرجل البسيط
الذى يصوره لنا بعض المؤرخين لاعفائه من المسئولية عما حدث .

بل كان على شيء من الذكاء وقد سخر ذكائه لخدمة عناده الكبير وإيمانه المطلق باسترداد سلطته المطلقة ولو كان فى ذلك خيانة لأمته ..

فماذا كانت نتائج هرب الملك الى فارين ؟

فى الداخل انقسمت الأمة الفرنسية الى قسمين لامهانة بينهما : الديمقراطيون المتجهمون زعماءهم فى نادى الكوردلييه ، وقد طالبوا الجمعية باعلان الجمهورية او على الاقل عدم البت فى مصير الملك دون رجوع الى القواعد الشعبية ، والبورجوازية الحاكمة بقيادة الثالث البورجوازي : بارناف Barnave ولاميت Lameth وديبورت Duport يظاهروهم لافاييت بحرسه الوطنى ، وهذه كانت تخشى دخول الجماهير الشعبية فى الصراع السياسى خوفا على أملاكها ، فابتكرت اكذوبة اختطاف الملك .

ولعل أوضح تعبير عن موقف البورجوازية الحاكمة كان قول بارناف فى خطبته بنادى الكوردلييه فى ٢١ يونيو ١٧٩١ : « الدستور : هذا هو رائدنا . الجمعية الوطنية : هذه هى مركز تجمعنا » . او قوله فى الجمعية الوطنية فى ١٥ يوليو ١٧٩١ : « فهل ننهى الثورة ؟ هل نبدأها من جديد ؟ .. خطوة أخرى تكون عملا اسيفا ومدانا . خطوة أخرى فى اتجاه الحرية تكون تحطيم الملكية ، وفى اتجاه المساواة تكون تحطيم الملكية الفردية » ..

ظلت الثورة الفرنسية البورجوازية الحاكمة هى ثورة الطبقات المالكة رغم خيانة الملك وخطر الارستقراطية . عند البورجوازية الحاكمة لقد انتهت الثورة .

وهكذا حدث صدمع كبير فى نادى الكوردلييه فى ١٦ يوليو ١٧٩١ فخرج منه دعاة الملكية الدستورية : بارناف ولاميت وديبورت

بقيادة لافاييت ، واسسوا نادى الفوليان ، وخرج منه اليعاقبة بقيادة
دانتون وروبسبير ومارا .

وحدثت المواجهة بينهما فى اليوم التالى مباشرة « ١٧ يوليو »
فى مذبحه الشان دى مارس Chamo de Mars حيث اجتمع فى
الميدان الفسيح عشرات الآلاف من المتظاهرين ليوقعوا العرائض
مطالبين باعلان الجمهورية ، ففرقهم لافاييت برصاص الحرس الوطنى
وترك على الأرض خمسين قتيلًا ومئات الجرحى واعتقل المئات .
وأغلق نادى الكوردلييه وعطلت الصحف . كل ذلك بتكليف من
الجمعية الوطنية لعمدة باريس ان يحفظ النظام وبتكليف من عمدة
باريس للافاييت ان يتخذ الاجراءات اللازمة .

وقم تعديل الدستور بحيث قصر فيه حق الانتخاب على الملاك
أو المستأجرين الذين لا تقل قيمة ملكيتهم أو ايجارهم عن ١٥٠ أو ٢٠٠
أو ٤٠٠ يوم عمل بحسب المهنة . وقد صدر الدستور المعدل فى
١٣ سبتمبر ١٧٩١ . وهكذا استبعد ثلاثة ملايين من أبناء الطبقات
الشعبية من مزاوله حق الانتخاب . وكان روبسبير منذ بداية
الثورة يطالب بالتصويت العام المباشر .

وفى ٢٨ يوليو و ١٩ سبتمبر ١٧٩١ وضع نظام للحرس
الوطنى بحيث لايجوز أن ينضم اليه الا المواطنون الايجابيون actifs
ويحظر على المواطنين السلبيين Passifs الانضمام اليه أو حمل
السلاح . وكان تعبير « الايجابى » و « السلبي » هو من ابتكار
سييز Sieyès تعبيراً مهذباً عن قواهم « من يملكون » و « من
لا يملكون » . وهكذا تحول الحرس الوطنى لفترة الى ميليشيا
للبورجوازية المسلحة فى مواجهة شعب اعزل .

أما النتائج الخارجية لهرب الملك الى فارين فكانت غضب ملوك
أوروبا وانزعاجهم لما يجرى فى فرنسا ، واسفرت أولاً عن بيان

بيلنيتز Pillnitz الذى وقعه ليوبولد الثانى امبراطور النمسا وفريدريك وليسم ملك بروسيا مهددين الشوار الفرنسين في ٢٧ أغسطس ١٧٩١ بأنهما سيتدخلان عسكريا اذا وافق بقية ملوك أوروبا على التدخل الأوروبي لنصرة الملك والنبله .

ومات ليوبولد الثانى ، أخو ماري انطوانيت ، فجأة في أول مارس ١٧٩٢ وكولى مكانه فرانز الثانى وفي ٢٠ ابريل ١٧٩٢ تقدم الملك الى الجمعية التشريعية وأعلن الحرب على « المجر وبوهيميا » أى على دولة النمسا من دون دول الامبراطورية النمبوية الهنغارية ووافق كل النواب على اعلان الحرب « ٧٤٥ نائبا » ولم يعترض الا عشرة نواب رغم تنديد روبسبير بالحرب منذ البداية ، قائلا انها مؤامرة ملكية ارسنقراطية لتحطيم الجيش الفرنسى وغزو فرنسا من الخارج لاعادة الملكية المطلقة والنظام الاقطاعى .

كان الجيش الفرنسى فى ايدى ١٢٠.٠٠ ضابط من النبلاء هاجر نصفهم على الأقل وانضموا الى اعداء البلاد أو رحلوا الى انجلترا . وكانت القيادة العليا فى ايدى المارشال روشامبو Rochambeau العجوز الذى بنى سمعته العسكرية فى حرب الاستقلال الأمريكية ، والمارشال لوكنر Luckner الألماني الأصل العاقل من الكفاءة والجنرال لافاييت الذى كان يشتغل بالسياسة أكثر مما يشتغل بالحرب . وكانت هناك أزمة ثقة بين القادة وجنودهم بسبب الصراعات السياسية والاجتماعية التى مرت بها فرنسا منذ ١٧٨٩ . ولم يكن لدى النمسا فى الجبهة البلجيكية الا ٣٥ ألف مقاتل أما الجيوش الفرنسية فكان قوامها ١٥٠.٠٠٠ مقاتل من الجيش النظامى والمتطوعين وبالفعل فى أول مواجهة ، عندما أمر الجنرال دينموريز Dumouriez الجيوش الثلاثة بالاستيلاء على بلجيكا كلها ، أمر الجنرال ديلون Dillon والجنرال Biron

جنودهما بالانسحاب فى أول مواجهة • وأحس الجنود بخيانة قيادتهم وتشتتوا وقتلوا الجنرال ديلون •

وتوالت الهزائم • فالهيب ذلك الشعور الوطنى فى الداخل ولا سيما بين الجماهير الشعبية المحرومة من المشاركة السياسية وفى الانخراط فى سلك الحرس الوطنى ، كما أجهج ذلك مشاعر الجماهير الشعبية ضد الطبقات الحاكمة لأنها لاتدرك أن الوطن ملك لكل من يعيشون على أرضه وأن الطريق للدفاع عنه هو مساواة جميع المواطنين فى الحقوق والواجبات بما فى ذلك حق الانتخاب وواجب الدفاع الوطنى •

وفى بداية يوليو ١٧٩٢ جاءت الأنباء بأن الجيش البروسى المرابط فى كوبلنتز Coblentz بقيادة الدوق برنسويك Brunswick يتأهب لعبور الحدود الفرنسية من الشمال الشرقى ، ومن ورائه جيش النبلاء الفرنسيين المهاجرين بقيادة البرنس كونديه Condé فاتفق روبسبير مع بريسو Brissot زعيم حزب الجيرونس المعتدلين Le Gironde على توحيد الصفوف لدرء هذا الخطر الوطنى • وفى ١١ يوليو أصدرت الجمعية التشريعية بياناً تقول فيه : « ايها المواطنون ، ان الوطن فى خطر » وكان ذلك بمبادرة من بريسو • فاستقالت الحكومة ، وكانت من حزب الفوليان ، اتباع لافاييت ، بعد ان اتهمها فيرنيو Vergniaud بالتقصير •

ولكن بريسو والجيرونس المسيطرين على الجمعية التشريعية دخلوا فى مفاوضات مع القصر لتولى السلطة • وغير بريسو موقفه فى الجمعية التشريعية فادان الاضطرابات الشعبية ورفض اقتراحا بخلع الملك قدم فى ٢٦ يوليو ، ورفض التصويت العام الذى كان يقترحه روبسبير ، بل وهدد « بسيف القانون » زعماء الثورة وسواهم بزعماء الثورة المضادة ، رغم ان الملك أصر على الفيتو الملكى

Veto برفض قانون ابعاد رجال الدين الرافضين ليمين الولاء لتبعية الدين للدولة .

وكانت ماري أنطوانيت قد طلبت من ملوك أوروبا اصدار بيان تهديدى لتوار فرنسا ، فاعد هذا البيان أحد المهاجرين ووقعه دوق برنسويك وعرف ببيان كوبلنتز . وهدد البيان الحرس الوطنى وكل من تسول له نفسه مقاومة الغزو بالاعدام ، وهدد شعب باريس « لو مس العائلة المالكة بأذى ضرر فانه سيجلب على نفسه انتقاما رهيبا لا يمحق من الذاكرة ، لانه سيجر على مدينة باريس الاعدام العسكرى والتخريب الشامل » .

وعرف أهل باريس ببيان كوبلنتز فى أول أغسطس ١٧٩٢ وسرعان ماتوا العرائض من أقسام « أحياء » باريس مطالبة بخلع الملك . وحددوا للجمعية التشريعية يوم ٩ أغسطس كأجل أقصى لخلع الملك . فلما انقضت الجمعية التشريعية دون اتخاذ قرار اقتحم الشعب قصر التويلرى فلبا الملك الى الجمعية التشريعية المجاورة . ولما انتصر الثوار وافقت الجمعية التشريعية على إيقاف الملك عن منصبه كما وافقت على عقد المؤتمر الوطنى المنتخب بالتصويت العام كما اقترح روبسبير ليحل محل الجمعية . واقتيد الملك مخفورا الى سجن التامبل Temple هو وزوجته وبنوه .

وهكذا انقلب العرش ، وسقط حزب الفوليان والنبلاء الأحرار الذين ساعدوا على قيام الثورة ثم حاولوا احتواءها ، وسقط معهم حزب الجيروندي المعتدل الذى كان يمثل مصالح البورجوازية العليا ويرفض اشتراك الطبقات الشعبية فى الحياة السياسية : اكتسحهم الشارع السياسى بقيادة دانتون Danton ومارا Marat وروبسبير Robespierre هذا الثالوث الثورى الذى شكل كتلة عرفت بحزب الجبل أشد تطرفا فى الثورة من ثالوث بريسو Brissot ورولان

Roland وفيرنيو Vervyniaud فى الجمعية التشريعية وبقية
الجيروند الذى اضطرهم خوفهم من دخول الطبقات الشعبية مسرح
السباسة الى مهادنة الملك وطبقة النبلاء واللجوء الى السلام الأوروبى
بعد أن كانوا دعاة حرب .

فى ٣٠ يوليو ١٧٩٢ اصدرت الجمعية التشريعية تحت ضغط
الخطر الخارجى قانونا بفتح باب الحرس الوطنى أمام « المواطنين
السلبين » أى « من لا يملكون » ، بعد أن كان مقصورا على « المواطنين
الايجابيين » وحدهم أى « من يملكون » . وبهذا أؤتمن الفقراء على
حق حمل السلاح . وبعد أن حصل الفقراء على حق الانتخاب بصدر
قانون التصويت العام فى ١٠ أغسطس سقطت الحواجز نهائيا من
طبقات المجتمع ودخل « الشعب » فى بنية « الأمة » ، ودخلت « الطبقة
الرابعة » المسرح السياسى .

وفى تاريخ الثورة الفرنسية يسمى ١٠ أغسطس ١٧٩٢
« الثورة الثانية » ، ففيه دقت النواقيس ليلا ودعا سكان حي سانت
انطوان بقية أقسام « أحياء » باريس الى التجمع فى دار بلدية باريس
وهناك اقاموا « الكوميون الثورى » الذى حكم الحياة السياسية فى
فرنسا مباشرة ومن خلال المؤتمر الوطنى نحو عامين ، أى سقوط
روبسبير ، وهى الفترة التى تسمى فى تاريخ الثورة الفرنسية
« عهد الارهاب » وهو عهد الثورة المضادة وعهد الحرب الأهلية ،
وعهد الخيانات الوطنية ، وعهد الاعدامات بالجملة . باختصار :
كان عهد المذابح و « القديسة جيلوتين » .

وفى وسط هذه الهستيريا الوطنية والشعبية التى نجمت عن
غزو فرنسا من الخارج وتحرك الثورة المضادة فى الداخل ، أوفدت
الجمعية التشريعية ١٢ مبعوثا من اعضائها فى ١٠ أغسطس لجبهات
القتال ليقاف الجنرالات والضباط والموظفين العموميين من عسكريين

ومدنيين ايقافا مؤقتا لداعى الاشتباه . وارسل المجلس التنفيذى الى الاقاليم قومسين من الكوميون الثورى فى باريس ، اختارهم دانتون ، وكانوا مزودين بسلطة القبض على المشبوهين .

كذلك انشأ الكوميون فى الاقاليم لجان « مراقبة » مع سلطات التطهير وطالب كوميون باريس بانشاء « محكمة جنايات » استثنائية منتخبة من احياء « اقسام » باريس للنظر فى جرائم الثورة المضادة . وفى ١٧ اغسطس ١٧٩٢ وافقت الجمعية التشريعية على ذلك على مريض . وقبل ذلك كانت الجمعية التشريعية قد كلفت البلديات بالبحث عن جرائم امن الدولة ، وفرضت على جميع المواطنين ، بما فيهم رجال الدين ان يقسموا يمين الولاء للحرية والمساواة . وفى ٢٦ اغسطس قررت الجمعية التشريعية نفي كل رجال الدين الذين يرفضون أداء اليمين خلال ١٥ يوما الى البلاد التى يختارونها ، والا ابعدها الى مستعمرة الجويان Guiane فى أمريكا الوسطى . وفى ١٨ اغسطس قررت الجمعية التشريعية بضغط من كوميون باريس تفتيش المنازل بحثا عن السلاح فى حيازة المشبوهين .

وفى ٢٦ اغسطس ١٧٩٢ جاءت الأخبار بسقوط لونجوى Longwy وبدايات ثورة مضادة فى اقليم الفانديه La Vendée فاشتد فزع الجماهير . وحين تدهور الموقف العسكرى أمام الغزاة فكر رولان ، رئيس الوزراء ، وهو من حزب الجيرونديين ، فى نقل الحكومة من باريس ، فحذره دانتون قائلا : « رولان ، اياك ان تتحدث عن الهرب . حذار ان يسمع الشعب كلامك » . . . وقبض على ٣٠٠٠ مشبوه ثم افرج عن الكثيرين منهم . وفى ٢ سبتمبر كان هناك فى سجون باريس ٢٨٠٠ معتقل ، كان أقل من نصفهم معتقلا منذ ١٠ اغسطس . وفى ٢ سبتمبر جاءت الأنباء بأن فردان Verdun محاصرة ، وكانت آخر معقل بين الحدود وباريس . وفى ٢ سبتمبر أيضا قتل المساوسة الذين رفضوا أداء يمين الولاء للحرية والمساواة

ورفضوا الدستور المدني ' للكنيسة ' ، قتلهم حراسهم المارسييليون والبريتون فى سجن Abaye الدير وهم من الحرس الوطنى واصحاب الدكاكين والاسطوانات من نجارين وجزمجية ، كما قتلوا القساوسة المسجونين فى سجن كارم Carmes وفى الأيام التالية « ٢ - ٦ سبتمبر » قتل سجناء سجن لافوريس La Force والكونسيير جري Conciergerie والشاتليه Châtlet وغيرها . وتعرف هذه المقتلة « بمذابح سبتمبر » . وكان مجموع من قتلوا ١١٠٠ سجين أكثر من ثلاثة ارباعهم من سجناء القانون العام . ولم تتدخل السلطات لانقاذهم . كان دانتون وزيرا للعدل ، وكان الجيروندي مرتعبين ، وروت مدام رولان ان دانتون قال لزوجها « رئيس الوزراء » : « أنا لايهمنى شئ من أمر السجناء » (بلغة أكثر بداهة) .

وفى ٢٠ سبتمبر كان انتصار فالى Valmy وانهقد المؤتمر الوطنى وفى ٢١ سبتمبر الغيت الملكية فى فرنسا .

وقد تأخر اتهام لويس السادس عشر عدة شهور بسبب رغبة الجيروندي فى انقاذه . وفى ١٦ أكتوبر ١٧٩٢ احيل الموضوع الى لجنة التشريع فى المؤتمر الوطنى فأفتت فى ٧ نوفمبر بأن فى امكان المؤتمر ان يحاكم الملك . ولم يشترك حزب الجيروندي فى المناقشة . قال الفقى سان جوست Saint-Just وهو من حزب الجبل فى ١٣ نوفمبر ١٧٩٢ :

« نفس الرجال الذين سيحاكمون لويس لديهم جمهورية يؤسسونها : ومن يعلق بعض الأهمية على العدل فى عقاب الملوك لن يكون فى امكانه تأسيس جمهورية . . أما أنا فلست أرى طريقا وسطا : هذا الرجل إما ان يحكم وأما أن يموت . الملك لا يمكن تقلده فى براءة : هذا الافتراض محض جنون . كل ملك خارج و «مقتضب»

« انه سفاح الباستيل ، سفاح نانسي ، سفاح الشبان دى مارس .
سفاح تورناى ، سفاح التويلرى . أى عدو ، أى أجنبى انزل بكم
شرا أكثر من ذلك ؟ »

وقد اكتشف فى قصر التويلرى دولاى سرى من الحديد بنى
داخل الحائط بأمر من لويس السادس عشر ، وفيه أوراق تثبت
اتصاله بالأعداء . وقدمت هذه الوثائق الى المؤتمر فى ٢٠ نوفمبر
فجعلت من المستحيل تأجيل القضية . وفى ٣ ديسمبر استأنف
روبسبير منطق سان جوست : « الملك ليس متهما ، وأنتم لستم
قضاة . ليس لديكم تصدرونه له أو عليه ، وإنما لديكم اجراء يتخذ
للأمن العام ، عمل يعمل لحماية الوطن » .

ورغم مناورات الجيرونديين لانقاذ الملك ، قرر المؤتمر الوطنى فى
٦ ديسمبر ١٧٩٢ تشكيل لجنة تضع بياناً بجرائم لويس كاتيه ،
Louis Capet المدعو لويس السادس عشر ، وأعد قرار الاتهام
لاندیه Lindot وبدأت المحاكمة فى ١١ ديسمبر بقراءة عريضة
الاتهام ، ومحورها ان لويس السادس عشر كان دائماً مخادعاً
بوجهين فى كل الفترات المخرجة التى مرت بها الثورة . وترافح دى
سينز de Seize محامياً عن الملك ، فقرأ دفاعاً جميلاً صادقاً محوره
ان ذات الملك مصونة لاتمس بموجب دستور ١٧٩١ .

وطالب الجيرونديون لانقاذ الملك بعرض الأمر للاستفتاء العام ،
لأن الشعب وحده يملك تجريد الملك من حصانته الدستورية . فوجه
الجمهوريون ان فى مبدأ الاستفتاء محاولة لاشعال الفتنة الأهلية من
جديد . وكتب روبسبير فى يناير ١٧٩٣ رسالة الى « ناخبيه » عن
سيادة الشعب قال فيها :

« ان الشعب نطق بالحكم قبلاً على لويس : المرة الاولى حين
حمل السلاح ليخلعه من عرشه . . والمرة الثانية عندما فرض ادانته

كواجب مقدس بطريقة تجعل منه عبرة من أجل سلامة الوطن ،
وليكون عظة للعالم . . . وتعريض الدولة لهذه الأخطار خلال أزمة
نظام اقتراب الأعداء المتحالفين ضدنا ، ليس له معنى الا الرغبة في
اعادتنا الى النظام الملكي من خلال الفوضى والقلقل . »

وفى ١٤ يناير ١٧٩٣ أسفرت المداولة عن طرح هذه الأسئلة
الثلاثة على المؤتمر الوطنى للأجابة عليها : « لويس كابيه ، هل
اقترف جريمة التآمر ضد الحرية العامة لتهديد سلامة الوطن ؟ . .
أهناك رجوع الى الأمة فى الحكم الصادر ؟ . . وماهى العقوبة التى
توقع على لويس ، ؟

وجاءت الادانة باجماع الأصوات الا بعض من امتنعوا عن
التصويت . ورفض مبدأ الرجوع الى الأمة بأغلبية ٤٢٦ صوتا ضد
٢٧٨ . وهكذا هزم الجيرونده ، وصدر الحكم باعدام لويس السادس
عشر ، بأغلبية ٣٨٧ صوتا ضد ٣٣٤ . وكان التصويت بثناء الأسماء
فاستمر ٢٤ ساعة بدأت مساء ١٦ يناير . وصوت ٢٦ نائبا للاعدام
مع وقف التنفيذ . وفى ١٨ يناير جرى التصويت على وقف التنفيذ
فرفض الاقتراح بأغلبية ٣٨٠ صوتا ضد ٣١٠ اصوات .

وفى ٢١ يناير ١٧٩٣ الساعة ١١ صباحا اعدم لويس السادس
عشر على المقصلة فى ميدان الثورة وسط حراسة مشددة وجماهير
غفيرة .

أما مارى انطوانيت فقد قبض عليها مع الملك فى ١٠ أغسطس
١٧٩٢ وسجننت معه ، ثم نقلت بعد اعدامه الى الكونسير جري .
ثم حاكمها المؤتمر الوطنى بناء على اقتراح من بيو Billaud-Varenne
وماتت على المقصلة فى ١٦ أكتوبر ١٧٩٣ وقت محاكمات الجيرونده .

وقد اشتهر الجمهوريون المتطرفون المؤمنون باشتراك الجماهير الشعبية في الحياة السياسية وفي الدفاع الوطني باسم « حزب الجبل » لأنهم كانوا يجلسون في قمة مدرج المؤتمر الوطني .

ترك اغدام الملك أثرا عميقا في فرنسا واصاب أوروبا بذهول عميق ، فقد كان شخصه مقدسا بموجب نظرية حق الملوك الالهى . فأعلنت أوروبا على فرنسا الثورية حربا لاهوادة فيها استمرت أكثر من عشرين عاما ولم تنته الا بسقوط نابوليون في ١٨١٤ . وباعدام الملك قطع المؤتمر الوطني الكبارى من ورائه وغدا مسرحا لصراع رهيب بين حزب الجبل وحزب الجيروندي ، صراع حياة أو موت عرف بعهد الارهاب لأن « القديسة جيلوتين » كانت راعية هذا البيت الكبير .

كان أمل الجيروندي ان يصلوا الى تسوية سلمية مع أوروبا . قال بريسو : « نحن في مناقشاتنا لانرى أوروبا كثيرا » فأجابه روبسبير : « سوف يقرر النصر ما اذا كنتم عصاة أم أصحاب فضل على الانسانية » .

وهكذا اقترب الجيروندي - أصحاب المصالح الحقيقية - بسبب ميلهم للسلام ، من وجهة نظر طبقة النبلاء الذين ما قامت الثورة الفرنسية الا لتجردهم من امتيازاتهم . .

١٣ - الأحرار

لم اجد كلمة اتعبنى تعريبها مثل كلمة « صان كيلوت »
Sans-Culotte الفرنسية التى شاع استعمالها ابان الثورة
الفرنسية . وهى كلمة تعنى ، كما نقول فى العامية المصرية « عريان »
أو حرفيا « الى بلا سروال أو بنطلون » أو أى شئ يستر العجز .
وهى كلمة زراية قصد بها فى فترة الثورة الفرنسية ان تصف
الطبقات الشعبية الشديدة الفقر ، أو « الرعاع » أو « الغوغاء » ،
أو « الدهماء » بلغة صندقى باشا ، من عمال أو صنايعية أو أنصار
أو باعة سريحة وكل من يكسب قوته بعرق جهده اليومى ان وجد
عملا . وكانت هذه الطبقات فى ذلك الزمان تلبس طاقية حمراء
وزنارا أحمر ، وتلبس مكان البنطلون المألوف البنطلون الحريرى
الارستقراطى « المحزق » ، سراويل من التبل المخطط بخطوط
رأسية زرقاء وبيضاء وحمراء ، كبنطلون البيجاما .

● نشرت بجريدة الامرام
تاريخ ١٩٨٩/١٢/٢ .

ولذا رأيت أن أعرب هذه الكلمة باصطلاح «أبوسروال ملون» ،
وجمعها « أصحاب السراويل الملونة » ، وهو تقريب للزى المعروف
فى مصر بين الطبقات الكادحة بعد أن تخلع الجلباب أو تطويه عند
النصر . والاصطلاح اصلا باريسى .

هذه الطبقات « الشعبية » التى تعيش « من اليد الى الفم »
كما يقول التعبير الانجليزى ، وعددها بالملايين ، كانت كما رأينا
مصدر رعب الطبقات المالكة الموسرة التى كانت تخشى على أموالها
وأملاتها ، وربما أشخاصها ، لو تحررت سياسيا ودخلت طرفا فى
الصراع السياسى . وقد صدق حدسها ، لأن هذه الطبقات الشعبية
وقد اسلمت قيادها للبورجوازية المتوسطة ، أقرب الطبقات المستغنية
اليها ، وأكثرها احساسا بنبضها واحتياجاتها ، بزعامة مارا ودانتون
وروبسبير ، فاطاحت بالنظام الملكى وأعلنت الجمهورية ولجأت الى
المصادرات والتأميمات والحراسات ، والى تعبئة الموارد لاطعام الشعب
والتعبئة العامة للدفاع الوطنى وتوفير السلع التموينية الأساسية
كالخبز والسكر والشمع والصابون ، وطاردت التجار المكتنزين
الجشعين لحماية جماهير المستهلكين من جشعهم .

فى بداية المؤتمر الوطنى كانت هناك هدنة بين حزب الجيرونديين
وحزب الجبل . فالغى المؤتمر الوطنى الملكية وأعلن الجمهورية باجماع
الأصوات يوم ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ بناء على اقتراح قدمه كولو ديريوا
Collot Dherbois وزكاه الأب جريجوار L'abbé Grégoire
جاء فى ديباجته : « ان الملوك كالوحوش وبلاط الملوك هو مصنع
للجرائم وبؤرة للفساد وماوى للطفاة . وتاريخ الملوك هو تاريخ
الشعوب الشهيدة » .

أما رئيس الوزراء ، رولان ، وهو من حزب الجيرونديين ، فقد

أرسل منشورا الى رجال الادارة يقول فيه : « احرصوا أيها السادة على أن يكون اعلان الجمهورية هو نفسه اعلان الأخاء » .

وفى اليوم التالى « ٢٢ سبتمبر » قرر المؤتمر الوطنى بالاجماع الغاء التقويم المسيحى « الميلادى » من جميع وثائق الدولة ، بناء على اقتراح من بيرو فارين Billaud - Varenne رتاريخ كافة الوثائق العامة ابتداء من العام الأول للجمهورية .

وفى ٢٥ سبتمبر وافق المؤتمر الوطنى بالاجماع بعد مناقشة دلويلة على اقتراح قدمه كوتون Couthon بالصيغة الآتية : « ان الجمهورية الفرنسية وحدة واحدة وغير قابلة للتجزئة » ، تأسيسا على ان مبدأ الاتحاد الفيدرالى مبدأ أخذته الجيرونديين عن لافاييت الذى كان متأثرا بالتجربة الأمريكية التى كانت تبقى الباب مفتوحا أمام انسلاخ الولايات . وفى ١٦ ديسمبر وافق المؤتمر الوطنى على توقيع عقوبة الاعدام « على كل من يحاول هدم وحدة الجمهورية الفرنسية أو ان يسلخ اجزاء من كيائها لضمها الى اقليم أجنبى » .

ثم انتهت الهدنة ، وبعد أيام أعلن حزب الجيرونديين الحرب على حزب الجبل وزعمائه ، مارا ودانتون وروبسبير . وبدأ الهجوم على «مقل حزب الجبل ، وهو باريس . كانت فرنسا مقسمة اداريا منذ الثورة الى ٨٣ اقليما بدلا من الاستقلال أو شبه الاستقلال الاقطاعى القديم . وكان الجيرونديون يعلمون ان حزب الجبل يعتمد بصورة خاصة على الشارع الباريسى . فقدم النائب الجيروندى لاسورس La source اقتراحا سخيفا غير قابل للتحقيق بالا يكون لباريس نفوذ خاص يتجاوز واحدا على ٨٣ أسوة ببقية الأقاليم .

وفى ٢٥ سبتمبر أيضا اتهم الجيرونديون مارا بالديكتاتورية فرحب مارا بهذا الاتهام ، وكتب فى جريدته « صديق الشعب » :

الثورة الفرنسية - ١٦١

« نعم — أنا أعتقد انى كنت أول كاتب سياسى ، وربما الوحيد فى فرنسا منذ الثورة ، الذى اقترح اقامة حكم عسكرى أو ديكتاتورية أو حكومة ثلاثية Trimvirat بوصفها الطريقة الوحيدة لسحق الخونة والمتآمرين » . ثم مضى مارا يذكر الجيرونديين بالامه فى السجن وتضحياته فى التشريد خلال ثلاث سنوات ، قائلا : « نعم ! أنا باق معكم لاتصدى لجنونكم » . وانتهت الهجمة مؤقتا .

أما دانتون فقد نجحت معه حملة الجيرونديين الذين غدروا به رغم كثرة قبوله للمصالحات والمحاول الوسط ، قاقيل من منصبه كوزير للعدل فى ٩ أكتوبر ١٧٩٢ وحل محله جارا Garat وهو من الجيرونديين . وفى اليوم التالى « ١٠ أكتوبر » كان عليه أن يقدم كعادة كل وزير يخرج من السلطة كشف حساب عن تصرفاته المالية اثناء توليه السلطة . وربما استطاع دانتون أن يبرر بذخه فى الانفاق اثناء توليه الوزارة ، ولكنه ارتبك فى تفسير انفاق ٢٠٠.٠٠٠ جنيه انفقها وزارته فى « المصروفات السرية » .

وفى ١٨ أكتوبر اعيد فتح الموضوع فى المؤتمر الوطنى ، وعجز دانتون عن تقديم تفسير مقنع . قال : « عن أغلب هذه المصروفات اعترف بأنه ليس لدينا أية ايصالات من الناحية القانونية » وفى ٧ نوفمبر جدد الجيرونديون الهجوم على دانتون وحجب المؤتمر الوطنى عنه ابراء ذمته المالية . وفيما بعد ذلك كان الجيرونديون يستثمرون موضوع نزاهته المالية لتحطيمه سياسيا ، فعادل عن سياسة المصالحة .

أما روبسبير فقد كانت التهم الموجهة اليه هى الافراط فى الطموح والسعى لاقامة الديكتاتورية . وفى ٢٥ أكتوبر قال لوفيه Louvet فى المؤتمر الوطنى : « روبسبير ! انى اتهمك بأنك

مشغول دائما بأن يعبدك الناس . انى اتهمك بممارسة الطغيان بكل ألوان الدسائس والارهاب على مجموع الناخبين فى منطقة باريس .
انى اتهمك اخيرا بالسعى لتكون لك السلطة العليا » .

ونفى روبسبير ذلك عن نفسه قائلا بأنه كان دائما يحارب الطامعين فى السلطة وانه لا يتحرك الا بدافع من وطنيته . وفى ٥ نوفمبر رد على لوفيه بدفاعه عن تحريك الجماهير فى ١٠ أغسطس وعن قيادته للعمل الثورى بقوله فى المؤتمر الوطنى :

« كل هذه الأشياء كانت خارج اطار الشرعية كما ان الثورة ذاتها خارج اطار الشرعية ، وسقوط العرش وسقوط الباستيل كانا خارج اطار الشرعية كما ان الحرية ذاتها خارج اطار الشرعية : نحن لا نستطيع أن نريد ثورة دون القيام بثورة » .

وقد خرج روبسبير من هذه المعارك اقوى مما كان : خرج زعيما لحزب الجبل . وانهزم الجيرونده للمرة الثالثة . وانتهت هذه التشرشات ببدء الحرب بين الجيرونده والجبل .

ولم تكن لحزب الجبل المتطرف فيه اغلبيه . وانما كان هؤلاء وأولئك يظفرون بالأغلبية من تأييد الوسط وهو كتلة كبيرة من قواب الأقاليم الذين كان يسميهم كامبل ديمولان فى جريدته « منبر الوطنيين » La Tribune des Patriotes - حزب الفاترين « Les Flegmatiques المترددين فى الصعود والهبوط بين روبسبير وبريسو وأخيرا انشق على الجيرونده انكارسيس كلوتز Anachatisis Clouts فى جلبة حين أصدر منشورا بعنوان « لامارا ولا رولان » وأنشأ كتلة ثالثة فى أوئل نوفمبر ١٧٩٢ .

وهكذا ضاعت الأغلبية من الجيرونده فى المؤتمر الوطنى

وضاعت منهم رئاسة المؤتمر في ١٦ نوفمبر وفي نفس اليوم انتخب نائب مستقل هو الأب جريجوار Liabbé Grégoire رئيسا للمؤتمر . . . لقد احست كتلة الوسط الكبيرة ان الجيرونديين يضيعون وقت المؤتمر الوطني في تسوية حساباتهم القديمة مع حزب الجبل .

ولم يكن في المؤتمر الوطني أحد من الملكيين أو أنصار العهد البائد أو دعاة الملكية الدستورية . كذلك لم يكن فيه عضو واحد من « الصان كيلوت » « أصحاب السراويل الملونة » الذين كانوا يسيطرون على أحياء باريس .

ولم تكن في المؤتمر الوطني أحزاب بالمعنى المحدد وإنما مجرد تيارين أو اتجاهين واضحين في السياسة والاقتصاد هما تجمع الجيرونديين La Gironde أو الجيرونديين Les Girondins أو التجمع اليميني ، وهو يمثل اقتصاديا الطبقة البورجوازية العليا ، من ملاك ورجال أعمال في التجارة والصناعة والخدمات . هؤلاء كانوا دائما يتحدثون عن الشرعية وسيادة القانون ، وكانوا يؤمنون بالحرية الاقتصادية ويقدمون الملكية الفردية ، ويعارضون تدخل الدولة في تحديد الأسعار أو اتخاذ اجراءات استثنائية لصيانة الأمن العام . كانوا يؤمنون بالفوارق والامتيازات الطبقيّة « المكتسبة » بالثروة أو الذكاء أو العمل أو العلم ، ولكنهم لم يؤمنوا كالنبلاء بالامتيازات الطبقيّة « الموروثة » ولعل أصدق معبر عن فلسفتهم كان قول فونيو Vergniaud للمؤتمر الوطني في ١٣ مارس ١٧٩٣ : « المساواة في الحياة الاجتماعية ليست الا المساواة في الحقوق » ، أي ما يسميه الانجليز تكافؤ الفرص . وقد كان زعماءهم بريسو Brissot ورولان Roland وبيتيون Pétion وأكثرهم من أغنياء الثورة .

أما تجمع الجبل Les Montagnards فكانوا يمثلون الطبقة البورجوازية المتوسطة ، وكانوا أكثر تعبيرا عن مصالح

الطبقات الشعبية والأجراء أو « الصان كيلوت » أو « أصحاب السراويل الملونة » وكانوا يرون أن الحرية إذا أسئ استخدامها قد تصبح كلمة جوفاء وستارا للاستغلال بل ومبررا لخيانة الوطن . ولهذا نجدهم يجنحون الى النظر الى الملكية الخاصة على أنها وظيفة اجتماعية لا على أنها حق مقدس من حقوق الانسان ، ولذا فهي خاضعة للمصادرة والحراسة والتأميم والانتقاص . وكانوا يتحدثون كثيرا عن انقاذ الوطن وانقاذ الثورة وانقاذ الجمهورية ولو بمصادرة حرية أعداء الحرية .

وبين هاتين الكتلتين كانت هناك كتلة ثالثة هلامية من الوسط عرفت في التاريخ باسم « السهل » La Plaine وكان نوابها من الجمهوريين الصادقين في الدفاع عن الجمهوريين الثوريين الصادقين في دفاعهم عن الثورة . وكانوا يؤمنون بالحرية الاقتصادية وكانوا في سريرتهم يخافون من الطبقات الشعبية . ولكن وطنيتهم وإيمانهم بالثورة جعلهم يدركون أهمية دور الشعب طالما كان الوطن في خطر أو الثورة في خطر . وهكذا قبلوا الاجراءات الاستثنائية « مؤقتا » وحتى النصر . وانضم بعضهم ، مثل بارير Barère وكامبون Cambon وكارنو Carnot ولانديه Lindet الى حزب الجبل وأيد سياسته في الأمن العام . هذه الكتلة اتضحت معالمها في نوفمبر ١٧٩٢ . فانفضت عن حزب الجيروندي وقبلت قيادة حزب الجبل .

اشتد الصراع بين الجيروندي والجبل بعد اعدام لويس السادس عشر . فبعد انتصارات فرنسا في فالمي كان استيلاؤها على بلجيكا والألب والراين ونيس والسافوا في سبتمبر ١٧٩٢ . وبعد اعدام الملك أعلن البلاط الانجليزى الحداد على لويس السادس عشر ، وزاد وليام بت William Pitt من اجراءاته العدوانية ضد فرنسا .

فأعلن المؤتمر الوطني الحرب على إنجلترا وهولندا معا في أول فبراير ١٧٩٣ ، بناء على تقرير من بريسو ، زعيم الجيرونديين ، فقد كان من مقاصد الجيرونديين الاستيلاء على بنك امستردام . وفي ٧ مارس أعلن المؤتمر الوطني الحرب على اسبانيا ، وتلا ذلك إعلان الحرب على ملوك إيطاليا : أولا على البابا ثم ملك نابولي ثم ملك توسكانيا ، ثم ملك البندقية وفي خلال شهور وجدت فرنسا في حالة حرب مع كل ملوك أوروبا ، فيما خلا دول اسكنديناوة والحالف السويسري . وكانت إنجلترا تقوم بقيادة الحلفاء ضد فرنسا وتربط نفسها بسلسلة من المعاهدات الثنائية بين مارس وسبتمبر ١٧٩٣ .

وكان نجاح الحلفاء في الحرب ضد فرنسا ونشوب الحرب الأهلية في الفاندييه La Vendée من العوامل الرئيسية في تدمير حزب الجيرونديين .

كذلك اشتد الغلاء نتيجة للتضخم الناتج عن التوسع في إصدار العملة الورقية Assignats ومالبس سان جوست Saint-Just المؤتمر الوطني بتقييد إصدار العملة الورقية في خطبة ٢٩ نوفمبر ١٧٩٢ باعتبار انها أساس التضخم ، ولكن الجيرونديين لم يلتفتوا الى كلامه . واستمر كامبون رئيس اللجنة المالية ، في إصدارها . وفي بداية أكتوبر ١٧٩٢ كان حجم العملة الورقية المتداولة ٢ مليار جنيه ، وفي ١٧ أكتوبر زادها كامبون الى ٢ر٤ مليارا . وبعد اعدام الملك ضبطت قيمتها الى ٥٠٪ من قيمتها الاسمية .

وبعد مذابح سبتمبر ١٧٩٢ أصدر المؤتمر الوطني قانونا يبيع حصر الغلال والاستيلاء عليها . ولكن رولان ، رئيس الوزراء تجاهل هذا القانون لأنه كان من دعاة حرية التجارة . وفي ٨ ديسمبر ألغى المؤتمر الوطني قانون تنظيم تجارة الغلال استنادا لمبدأ « الحرية

الكاملة « فى تداول الغلال والدقيق ، مع الحكم بالاعدام على من يقوم بتعطيل هذا التداول .

وجاءت المقاومة من كوميون باريس ومن أقسامها . وفى أول ديسمبر ١٧٩٢ ألقى الأب جاك رو Jacques Roux أحد زعماء « المسعورين » Les Enragés خطبة عنيفة مطالباً بمطاردة الجشعين والخونة « وفى ليون دعا شالييه Chalier ولكلير Leclerc إلى فرض ضرائب على الأغنياء لدعم أسعار الضروريات وإلى الاستيلاء على الغلال وتنظيم المخازن . وفى ١٢ فبراير ١٧٩٣ قدم وفد يمثل ٤٨ قسماً من أقسام باريس عريضة إلى المؤتمر الوطنى بهذه المطالب، وتقول هذه العريضة : « ليس بكاف أننا اعلننا أننا فرنسيون جمهوريون ، بل يجب أن يكون الشعب سعيداً أيضاً . يجب أن يوجد الخبز : فحيث لا يوجد الخبز لا يوجد القانون ولا توجد الحرية ولا توجد الجمهورية » . وتندد أصحاب العريضة « بالحرية المطلقة فى تجارة الغلال » . وكان روبسبير ومارا يشتبهان فى مصدر هذه « القلاقل » . قال روبسبير : « انها مؤامرة حيكت ضد الوطنيين أنفسهم » و « كان أولى بالشعب ان يثور ليصرع اللصوص من ان يثور من أجل حفنة من السكر » . وقد فرض الأهالى على البقالين أسعاراً محددة للسكر والصابون والشمع .

وتدهور الموقف العسكرى على طول جبهات القتال مع اعداء فرنسا فى الخارج واعداء الثورة فى الداخل . وقد انتهت الحروب الخارجية الخاسرة بخيانة الجنرال ديموريز Dumouriez وانضمامه الى الأعداء ، كما أدت الحرب الأهلية التى استمرت فى الفاندييه الى التشدد فى اجراءات الأمن وإلى سقوط الجيرونديين .

فى ١٠ مارس ١٧٩٣ أنشأ المؤتمر الوطنى « محكمة الثورة » ،

وهي محكمة بلا استئناف ولا نقض ، رغم معارضة الجيرونديين . وكان اختصاص هذه المحكمة : « النظر في كل أعمال الثورة المضادة وكل عدوان على الحرية والمساواة ووحدة الجمهورية وتكاملها ، والسهر على الأمن الداخلى والخارجى للدولة ، والكشف عن كل المؤامرات التى تسعى لاعادة النظام الملكى » . واحتفظ المؤتمر الوطنى لنفسه بحق تعيين القضاة والمحلفين ، وبحق الاتهام على وجه الخصوص . وكان الجيروندي يقول ان هذه ديكتاتورية ، فاجابهم دانتون بقول : « فلننتقم من أخطاء اسلافنا ، ولنفعل ما لم تفعله الجمعية التشريعية . فلنحكم بالأرهاب لنعفى الشعب من الأرهاب » .

وفى ٢١ مارس ١٧٩٣ انشئت لجان المراقبة الثورية بعد معركة نيرويندن Neerwinden بهولندا . وقد عمم المؤتمر الوطنى نظاما كان معمولاً به بى كوميون باريس وأقسامها الأجنب ، وسرعان ما اتسع نشاط هذه اللجان فشمل اصدار بطاقات تحقيق الشخصية وفحص أوراق المجندين ، واعتقال كل من يضبط بغيرشارة الكوكارد المثلثة الألوان « الأزرق والأبيض والأحمر » . ثم كلفت هذه اللجان باعداد قوائم المشبوهين وتوجيه الاتهام لهم . وكان أكثر أفرادها من الصان كيلوت « أصحاب السراويل الملونة » المعروفين بالوطنية والثورية . وقد كانوا السلاح الضارب الذى استخدمه حزب الجبل ضد الارستقراط والجيرونديين « البورجوازية العليا » .

وفى ٢٨ مارس ١٧٩٣ شدد المؤتمر الوطنى قوانين المهاجرين ، فاعتبر مهاجرا كل فرنسى ترك أرضا فرنسا منذ أول يوليو ١٧٨٩ ، ولم يعد إليها حتى تاريخ ٩ مايو ١٧٩٢ ، وكل من لا يستطيع تبرير عدم الإقامة المتصلة فى فرنسا ، منذ ذلك التاريخ وقضى القانون بالنفى المؤبد للمهاجرين من الأراضى الفرنسية وبالموت

المدنى وبمصادرة أملاكهم لصالح الجمهورية ، وقضى بالاعدام على من يخالف هذا القانون .

وفى ٥ و ٦ ابريل ١٧٩٣ أنشئت « لجنة الانقاذ القومى » لتحل محل « لجنة الدفاع العام » المنشأة فى أول يناير ١٧٩٣ ، والتي ثبت أنها عديمة الجدوى . وكانت « لجنة الانقاذ القومى » مكونة من ٩ أعضاء يختارهم المؤتمر الوطنى ، ويتجدد اختيارهم كل شهر ، وكانت مداولاتها سرية ، وكان على المجلس التنفيذى تنفيذ قراراتها دون ابطاء . ووصف الجيروندي قسام هذه اللجنة بالديكتاتورية ، فأجابهم مارا : « نعم ، انما بالعنف نحقق الحرية . وقد أن الأوان لننظم طغيان الحرية لنسحق طغيان الملوك » .

ودخل دانتون « لجنة الانقاذ القومى » مع كامبون وبارير اللذين انضموا الى حزب الجبل .

وفى ٩ ابريل ١٧٩٣ أوفد المؤتمر الوطنى « ممثل الشعب المبعوثين لدى الجيوش » (٣ مبعوثين لكل جيش ، وعدد الجيوش ١١ جيشا) لمراقبة أعمال ممثل المجلس التنفيذى وتصرفات الموردين والمقاولين المتعاملين مع الجيوش ، ولمراقبة القواد والضباط والجنود . ثم عدل هذا القانون فى ٣٠ ابريل وجعل من اختصاص هؤلاء المبعوثين القبض على الجنرالات .

وبالنسبة للإجراءات الاقتصادية والاجتماعية فى خدمة الجماهير اشتد الصراع بين حزب الجيروندي وحزب الجبل . وفى ١١ ابريل ١٧٩٣ حدد المؤتمر الوطنى سعر صرف اجبارى للعملة الورقية مع عقاب من يرفضون التعامل بها .

وفى ٤ مايو ١٧٩٣ حدد المؤتمر الوطنى سعر الغلال والدقيق ، وقرر حصر الاتجار فيها فى سوق كل قسم من الأقسام .

وفي ٢٠ مايو ١٧٩٣ فرض المؤتمر الوطني قرضا اجباريا على الأغنياء بمليار جنيه لتمويل الدفاع الوطني . بعد ان طالب روبسبير اليعاقبة في ٨ مايو بأن يجعلوا « ذوى البنطونات المذهبة » يدفعون رواتب « ذوى السراويل الملوثة » (الصان كيلوت) : « ان لديكم شعبا ضحما من الصان كيلوت كلهم أنقياء وأقوياء ، وهم لا يستطيعون ترك أعمالهم التي يعيشون منها ، فاجعلوهم يتقاضون أجورهم من الأغنياء » .

وقد وافق حزب السهل على كل القوانين الاستثنائية الخاصة بالانقاذ العام التي طرحها حزب الجبل .

وفي ٣ ابريل ١٧٩٣ بدأ روبسبير الهجوم المركز على الجيروندي في المؤتمر الوطني : « أنا أعلن أن أول اجراء يتخذ للانقاذ القومي هو اصدار قرار اتهام ضد كل المتواطئين مع ديموريين ، ولاسيما بريسو » .

وفي ٥ ابريل أصدر اليعاقبة تحت رئاسة مارا منشورا الى فروع ناديهم مطالبين باسقاط العضوية عن أعضاء المؤتمر الوطني من أصغاب النداء الى الشعب الفرنسي لانقاذ الملك من الاعداء ، مع تجريدهم من أملاكهم . وبعد مناقشة عنيفة قرر المؤتمر الوطني تقديم مارا لمحكمة الثورة بأغلبية ٢٢٦ صوتا ضد ٩٣ وامتناع ٤٧ من التصويت ، لأنه وقع هذا المنشور بوصفه رئيسا لنادى اليعاقبة وليس بوصفه عضوا هاما لكتلة برلمانية . فتقدم للمحاكمة بوصفه « رسول الحرية وشهيدها » ، وبرأته محكمة الثورة في ٢٤ ابريل ١٧٩٣ ، فانتصر انتصارا مبينا . فمذ ١٥ ابريل قدم ٣٥ قسما من ٤٨ قسما من أقسام باريس عريضة للمؤتمر الوطني تهدد باتخاذ اجراءات حاسمة مع أهم ٢٢ عضوا من قيادات الجيروندي .

ومن العيب أن نبحث فى قضية مارا أمام محكمة الثورة عن ضمانات للعدالة بالمعنى القانونى ، فالقضية من أساسها قضية سياسية وقد كان واضحا منذ البداية أن محكمة الثورة كانت تحس بضغط الشارع السياسى الباريسى أى بضغط « الصان كيلوت » .

وفى ١٧ مايو ١٧٩٣ هاجم حزب الجيرونديز المؤتمر الوطنى قلعة حزب الجبل وهى كوميون باريس وسماه « السلطة الفوضوية » ، فشككوا لجنة من اثنى عشر عضوا كلهم من الجيرونديز . . . وقررت اللجنة فى ٢٤ مايو القبض على هيبير Hébert صاحب جريدة « الأب دوشين » Le Père Duchesne أشهر جريدة ثورية فى تاريخ الثورة الفرنسية ولسان حال الصان كيوت . بسبب مقال كتبه فى العدد ٢٤٩ انهم فيه زعماء الجيرونديز بالتآمر لاعادة الملكية والفتك بزعماء حزب الجبل واليعاقبة وكوميون باريس الذى كانت جريدة « الأب دوشين » لسان حاله وكان سيبير محاميه .

وطالب كوميون باريس بالأفراج عن هيبير ، ودعا روبسبير للثورة . وفى ٢ يونيو ١٧٩٣ أحاط الحرس الوطنى « ٨٠٠٠ ر. » جندي ، بقيادة هنريو Henriot بالمؤتمر الوطنى الذى كان منعقدا برياسة هيرودى سيثيل Herault de Séchelles وحاول مجموع الأعضاء كسر الحصار والخروج من القاعة ، وهنا صاح هنريو فى رجاله : « يا رجال المدفعية ! الى مدافعكم ! » فعاد أعضاء المؤتمر الوطنى الى مجلسهم ، ووافقوا على اعتقال ٢٩ نائبا من زعماء الجيرونديز ومعهم وزيران .

وهكذا انتهت المبارزة بين الجيرونديز وحزب الجبل التى بدأت فى الجمعية التشريعية . .

١٤ - الحرب والحرب الأهلية

فى ٢٦ ابريل ١٧٩٢ أنشد روجيه دى ليل Roger de Lisle
نشيد الحرب لجيش الراين المعروف بالمارسييليز La Marseillaise
أى نشيد أبناء مارسيليا ، وهو من تأليفه وسرعان ما أصبح هذا
النشيد الملهب بالحماس الوطنى وبالحماس الثورى نشيد الحرب
والثورة لكل المحاربين والثوار الفرنسيين داخل فرنسا وخارج
فرنسا .

وفى ربيع ١٧٩٢ كانت الثورية والوطنية كلمتين مترادفتين
بسبب خيانة الطبقة الارستقراطية التى اختلطت عليها مصالحها
الطبقية بمصالح الوطن فتعاونت مع أعداء فرنسا لتسترد امتيازاتها
الضائعة حتى أقطاب حزب الجيرونده من المعتدلين بريسو وفيرنيو
ورولان ، كانوا يعرفون ان البلاط الملكى يشجع ثورة الجنرالات
على الثورة وفى ٢٣ مايو ١٧٩٢ نددوا باللجنة النمساوية التى

● نشرت بجريدة الأهرام
بتاريخ ١٦/١٢/١٩٨٩ .

بديرها الماكة ماري أنطوانيت ونعد لانتصار أعداء فرنسا ولاانتصار الثورة المضادة فيها .

وبتأثير بريسو وفيرنيو اتخذت الجمعية التشريعية طائفة من القرارات المتعاقبة كاجراءات وقائية ضد الثورة المضادة كان أهمها :

١ - قرار ٢٧ مايو ١٧٩٢ بإبعاد القساوسة الذين رفضوا أداء يمين الولاء للدستور المدني أى بتبعيتهم لدولة فرنسا بشهادة عشرين مواطناً من أقليمهم .

٢ - قرار ٢٩ مايو بحل الحرس الملكي الذى كان مليشاً بالضباط الملكيين .

٣ - قرار ٨ يونيو بانضمام معسكر من ٢٠.٠٠٠ من الحرس الوطنى فى باريس للاشتراك فى قمع أى تحرك للثورة المضادة وقد رفض الملك التصديق على هذا القرارات الثلاثة .

وفى ١٠ يونيو ١٧٩٢ وجه رولان ، رئيس الوزراء ، انذارا للملك بضرورة التصديق على هذه القرارات خشية أن يظن الناس انه يؤيد بقلبه النبلاء المهاجرين للقتال مع الأعداء . فأقال الملك الوزراء الجيروندي من الوزارة فى ١٣ يونيو . واستقال الجنرال ديموريي Dumouriez وزير الحربية فى ١٥ يونيو ويسافر ليتسلم القيادة فى جيش الشمال خشية ان يقال انه كان ضالعا فى أزمة الجيروندي . وعاد الفوليان Peullants حزب لافاييت الى الحكم وهم من دعاة الملكية الدستورية وفى ١٨ يونيو أعلن لافاييت ان الدستور الفرنسى يتهدده المنحربون فى الداخل والأعداء فى الخارج .

وطالب الجمعية التشريعية بان يعطس باليعاقبة وكان واضحا ان الملك يعد برنامجا سياسيا وفرنسيه لفتح لادمت Jamet بتصفية

اليعاقبة والديمقراطيين عامة وتعديل دستور ١٧٩١ بما يقوى سلطات الملك وانتهاء الحرب بعقد صفقة مع الأعداء .

وتكونت جبهة من اليعاقبة والجيروند وقادت مظاهرة شعبية في ٢٠ يونيو ١٧٩٢ بقيادة سانتير Santerre أحد أبطال الباستيل للاحتجاج على سلبية الجيش وعلى عدم التصديق على قرارات مايو ١٧٩٢ وعلى اقالة وزارة الجيروند . وتجمع الشعب أمام الجمعية التشريعية واقتحم قصر التويلرى فلبس الملك الطاقية الحمراء رمز الصنان كيلوت ، وشرب نخب الأمة ولكنه رفض التصديق على القرارات أو استدعاء الوزراء الجيروند .

وفي ١١ يوليو ١٧٩٢ أعلنت الجمعية التشريعية ان الوطن في خطر ودعت المواطنين للتطوع وحمل السلاح ونددت بخيانة الملك ووزرائه . واستقالت وزارة الفوليان . وأراد الجيروند استرداد السلطة فدخلوا في مفاوضات سرية مع القصر انتهت بأن بريسو أعلن في ٢٦ يوليو انه ضد التصويت العام الذي كان يطالب به روسبير واليعاقبة وانه ضد خلع الملك ، رغم ان ٤٧ من ٤٨ قسما من أقسام باريس أعلنت خلع الملك .

وكان الملك والنبلاء يدفعون ببلادهم الى الحرب بأمل أن يهزم الجيش الفرنسي أمام بروسيا والنمسا وتعاد الملكية المطلقة والنظام الاقطاعي بالتدخل الأجنبي وفي نفس الوقت كان الملك يرسل الى الأعداء خطابات الجيش الفرنسي وفي ١٠ أغسطس ١٧٩٢ خلع الملك وأرسل منهفورا الى السجن .

وفي ٢ سبتمبر سقطت فردان في أيدي البروسيين واغتال المكيون قائد المتطوعين الثوري وفي ٨ سبتمبر اقترب البروسيون من غابة الأرجون Argonne ولكنهم اشتبكوا في كل مكان مع جيوش ديمورييز . وفي ١٢ سبتمبر وصل النمساويون فانسحب

ديمورييز جنوبا تاركا طريق باريس مفتوحا . ولكن فى ١٩ سبتمبر
وصل كيلرمان Kellermann قائد حامية ميتز Metz ، وانضم
الى ديمورييز فأصبح التفوق العددي للفرنسيين . (٥٠.٠٠٠ جندى
مقابل ٣٤.٠٠٠ جندى) .

لم تكن معركة فالى Valmy التى صمد فيها الفرنسيون
بقيادة ديمورييز فى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ انتصارا استراتيجيا بل
كانت مبارزة بالمدفعية دامت طوال النهار حتى السادسة مساء تحت
الأمطار الغزيرة التى ظلت تنهمر أياما .

رفع كيار مان قبعته فوق سيفه وهتف « عاشت الامة » ،
وتقدم الهجوم فاندفعت وراءه قوات الصان كيلوت وتقهقر الجيش
البروسى مهزوما تحت المطر ووسط الأوحال يناوشه فلاحو اللورين
وفلاحو اقليم شامبانيا الذين كانوا يطاردون الغزاة وجيش النبلاء
المهاجرين المؤيدين لهم . وتعقب ديمورييز الجيش البروسى ولكن
فى بطل شديد . ولم يحاول سحقه مستغلا متاعبه . كلا لم تكن
فالى انتصارا استراتيجيا وانما كانت انتصارا معنويا ، فمن بعدها
تحررت فيردان Verdun فى ٨ أكتوبر ثم لونغوى Longwy
فى ٢٢ أكتوبر .

وكان جوته Goethe يتابع معركة فالى عن كثب ، فقال
لايكرمان : Peltzmann : « من اليوم ومن هذا المكان يبدأ عهد
جديد فى تاريخ العالم » لقد كان جوته كعامة شباب جيله متعاطفا
مع الثورة الفرنسية .

ومنذ انتصار ديمورييز فى فالى وجاماب emmappes
وجدت الجيوش الفرنسية نفسها تحتل السافوا Savoie بقيادة
مونتسكيو Montesquieu (٢٩ سبتمبر ١٧٩٢) ونيس بقيام
الجنرال انسيلم Anselme (٢٩ سبتمبر ١٧٩٢) ونهر الراين

بقيادة الجنرال كوستين Cistine وشير Soire فى ٢٥ سبتمبر
وويرمز Worms فى ٥ أكتوبر ومايانس Mayence فى ٢١
أكتوبر وبعد يومين فرانكفورت Frankfurt,) وبعد فالى رفع
النمساويون الحصار عن ليل Lille فى ٥ أكتوبر فدخلها ديموريز
ثم دخل بلجيكا على رأس ٤٠.٠٠٠ مقاتل وكان أكبر انتصار له
فى جاماب فى ٦ نوفمبر واخلى البلجيكيون بروكسل Bruxelles
فى ١٤ نوفمبر وانفرس Anvers فى ٣٠ نوفمبر باختصار وجدت
فرنسا نفسها تحتل الألب والراين وبلجيكا وهنا ظهرت نظرية
دانتون : ان حدود فرنسا السياسية هى حدود الجغرافيا الطبيعية :
المحيط الأطلسى غربا ونهر الراين وجبال الألب شرقا وجبال البرانس
والمتوسط جنوبا وبحر المانش شمالا .

وطلبت البلاد المفتوحة (نيس والسافوا والراين) من المؤتمر
الوطني الذى حل محل الجمعية التشريعية يوم انتصار فلى بالذات
(٢٠ سبتمبر ١٧٩٢) الانضمام الى فرنسا فوضعت هذه البلاد
المؤتمر الوطني أمام مشكلة كبرى هى : الحرب مكلفة ، فكيف تمول
الحرب : هل هى حرب غزو أم حرب تحرير ؟ وجاءت الاجابة فى
١٩ نوفمبر ١٧٩٢ من المؤتمر الوطني الذى أعلن : « ان المؤتمر
الوطني يعلن باسم الأمة الفرنسية انه سوف يقدم الاخاء والمعونة
لكل الشعوب الراغبة فى استرداد حريتها .

وتوالت الاقتراحات : اقترح بيسنو فى ٢١ نوفمبر ١٧٩٢
انشاء حزام من الجمهوريات حول فرنسا لأنه لا هدوء مع بقاء
اليوربون . وبشر الألب جريجوار بأوربا بلا قلاع ولا حدود . ودرجة
درجة تكشفت الحقيقة ، وهى ان فرنسا لا تستطيع أن تدفع
بمفردها فاتورة تحرير جيرانها من الملكية المطلقة ومن النظام
الاقطاعى اللذين كانا سائدين فى كل أوربا خارج فرنسا وانجلترا
تكشفت الحقيقة العارية هى أن التحرير هو الاسم الآخر للتوسع .

الثورة الفرنسية - ١٧٧

وفى ١٠ ديسمبر ١٧٩٢ قال كامبون Cambon عضو اللجنة المالية فى المؤتمر الوطنى للمؤتمر كلما تقدمنا فى بلاد الأعداء جرت الحرب علينا الخراب ولاسيما بمبادئنا وسخائنا . . . يقولون بلا انقطاع اننا نحمل الحرية لغيراننا . ولكننا نحمل أيضا تمويننا وغذاءنا فهم لا يقبلون عمالتنا الورقية ! » .

وفى ١٥ ديسمبر ١٧٩٢ أصدر المؤتمر الوطنى بناء على طلب كامبون قرارا بتأسيس ادارة ثورية فى البلاد المدروحة تضح املاك رجال الدين وأعداء النظام الجديد تحت الحراسة . كضمان للعملة الورقية ، مع الغاء « العشور » التى كانت الكنيسة تجبيها من المؤمنين والغاء الحقوق الاقطاعية واستبدالها بضرية جديدة على الأغنياء أصبح الشعار الجديد : « الحرب على النقصور والسلام للاكوخ ! » .

وهكذا أصبح « الضم » هى السياسة الوحيدة المؤهولة لمنع الثورة المضادة وفى ٢٧ نوفمبر ١٧٩٢ ، وافق المؤتمر الوطنى بناء على تقرير من الأب جريجوار على ضم اقليم السافوا الى فرنسا باجماع الاصوات الا صوتا واحدا . وفى بلجيكا تم التصويت على الانضمام الى فرنسا بلدا بلدا ومقاطعة مقاطعة خلال مارس ١٧٩٣ ، وفى ١٧ مارس ١٧٩٣ عقد اجتماع مايننس Mayence تقرر فيه انضمام حوض الراين وصدق المؤتمر الوطنى على هذا القرار . وفى ٢٣ مارس انضمت اسقفية بازل Bâle بدورها .

وعند اعدام الملك لويس السادس عشر فى ٢٠ يناير ١٧٩٣ أعلن الحداد فى البلاط الانجليزى وفى اول فبراير ١٧٩٣ بناء على تقرير من بريسو أعلن المؤتمر الوطنى الحرب على انجلترا وهولندا فى وقت واحد وقد سبب سقوط انغيس فى أيدي الفرنسيين انزعاجا شديدا فى « السيتى » City حتى المال بلندن . وكان وليم بت William Pitt رئيس وزراء انجلترا هو المعبر الطبيعى

عن مصباح « السنيى وكان التجار الفرنسيون يعتمدون فى النقل البحرى على المراكب الانجليزية فى المقام الاول مما آثار حفيظة الفرنسيين ولذا كانت الحرب بين فرنسا وانجلترا حربا بين أمتين لا حربا بين حكومتين .

وبالمثل فقد آثار اعدام لويس السادس عشر ثائرة البلاط الأسباني الشديد التمسك بالكاثوليكية فرفض ملك أسبانيا استقبال القائم الفرنسي بالأعمال وعدت فرنسا ذلك اهانة فسحبته وأعلنت الحرب على أسبانيا فى ٧ مارس ١٧٩٣ . ثم قطعت صلتها بالبابا وأعلنت الحرب على ملوك ايطاليا (ملوك نابولى وتوسكانيا والبندقية) . وبين مارس وسبتمبر ١٧٩٣ عقدت انجلترا سلسلة من المعاهدات الثنائية مع كل أعداء فرنسا أى مع كل دول أوروبا فيما عدا اسكنديناوة وسويسرا . وهكذا ظهرت التحالفات الاولى منذ فبراير - مارس ١٧٩٣ ، وكانت انجلترا بمنزلة القلب .

وكان ديمورييز ضابطا محترفا من فقراء النبلاء اشترك فى حرب السنوات السبع وبلغ فيها رتبة كابتن ثم عين ملحقا فى مدريد ثم عين عميلا سرىا للملك لويس الخامس عشر فى بولندا والسويد . وكان خرب الذمة يسمح للموردين أن يسرقوا الجيش ولذا كان عدد الجنود الفرنسيين فى ميدان القتال يتناقص لسوء التغذية وسوء الملابس وكان الجنود يتعقدون على القتال بالمعارك فما ان تنتهى المعركة حتى يتركوا القتال بموجب حقهم القانونى . وهكذا انخفض عدد القوات المسلحة من ٤٠٠.٠٠٠ فى ديسمبر ١٧٩٢ الى ٢٤٠.٠٠٠ فى فبراير ١٧٩٣ .

وكان هناك نوعان من الجنود : النظاميون والمتطوعون وكان الجنود المتطوعون يلبسون حللا زرقاء وينتخبون ضباطهم وكانت روائبهم أعلى من روائب الجنود النظاميين رغم انهم كانوا أقل تدريبا

وانضباطا منهم ، كما انهم كانوا يتماقدون بالمعارك . اما الجنود النظاميون فكانوا يلبسون بنطلونات بيضاء ، وكان ضباطهم مفروضين عليهم كما ان خدمتهم العسكرية كانت لمدة اطول . وكانوا يحتقرون المتطوعين ويحسدونهم في آن واحد .

وفي ٢١ فبراير ١٧٩٣ أصدر المؤتمر الوطني قانون الادماع لوضع حد لهذه الازدواجية في القوات المسلحة وعرف بقانون دييوا كرانسيه Duhois-Crancé ، وبوجبه تقرر ان تدمج اورطتان من المتطوعين في اورطة واحدة من الجيش النظامي ، وكان القصد من هذا الادماع ان يعطى الجنود المتطوعون المسيسون حسهم المدني والثوري وحماهم الايديولوجي للجنود النظاميين ، بينما يعطى الجنود النظاميون حرفيتهم وخبرتهم واحترامهم للنظام للجنود المتطوعين . واخذ بمبدأ اختيار الجنود لضباطهم باستثناء الثالث الذي يبقى بالاقدمية .

وكان الجيروندي يعارضون قانون الادماع ، ومع ذلك فقد حالت الضرورات العسكرية دون تطبيق الادماع حتى شتاء ١٧٩٣ - ١٧٩٤ ولكن منذ صيف ١٧٩٣ توحد الزى والراتب وتوحدت اللوائح وفي المؤتمر الوطني كان سان جوست Saint-Just اكبر داعية لقانون الادماع قال : « ان وحدة الجمهورية تحتتم وحدة الجيش . ليس للوطن الا قلب واحد . »

وفي ٢٤ فبراير ١٧٩٣ صدر قانون بتجنيد ٣٠٠.٠٠٠ جندي موزعين على الاقاليم ولكن حصيلة هذا التجنيد لم تتجاوز نصف هذا العدد بكثير .

وفي فبراير ١٧٩٣ بدأ هجوم ديمورييز الفاشل على هولندا بعد ان اعتمدت خطته رغم وضوح تخلف القوات الفرنسية .

وفي ١٦ فبراير ١٧٩٣ تقدم ديمورييز من الفرس ودخل هولندا على رأس ٢٠.٠٠٠ مقاتل واستولى على بريدا Breda في ٢٥ فبراير . ولكن في أول مارس ١٧٩٣ هجم الجنرال كوبورج Cobourg القائد الأعلى للجيش النمساوي على الجيش الفرنسي المرابط في بلجيكا وشتته فكانت كارثة وأخلت اكس لاشابل Aix-la-Chapelle في ٢ مارس ثم أخلت لياج Liège في فوضى شديدة .

وفي باريس تصاعدت حمى الوطنية وبدأت اجراءات الانقاذ القومي ودمرت مطابع صحف الجيروندي : « لاکرونيك دي باري » La Chronique de Paris و « لو باتريوت فرانسيس » Le Patriote Francais

وفي ١٠ مارس ١٧٩٣ أنشئت محكمة الثورة لمحاكمة عملاء الأعداء قال دانتون : « أنا لا أعرف الا الأعداء فلنسحق الأعداء » .

وتبع هذا ضياع بلجيكا . واستمر ديمورييز رغم هزيمته في الزحف على روتردام بهولندا ، مما شكك في نواياه . ولكنه هزم هزيمة ساحقة في معركة نيرويندن Neerwinden في ١٨ مارس ١٧٩٣ ، وفي لوفان Louvain في ٢١ مارس . وهنا بدأ ديمورييز المفاوضات مع قاهره الجنرال كوبورج ، وكان مشروعه يقوم على اخلاء بلجيكا وحل المؤتمر الوطني وتنصيب لويس السابع عشر ملكا دستوريا على فرنسا بعد اعادة دستور ١٧٩١ .

وأرسل المؤتمر الوطني الى ديمورييز أربعة قوميسريين ومعهم وزير الحربية لعزله من قيادة الجيش فاعتقلهم وسلمهم الى النمساويين في أول ابريل ١٧٩٣ وفي النهاية حاول ديمورييز الزحف بجيشه على باريس ، ولكن جيشه رفض ان يتبعه وفي ٥ ابريل هرب ديمورييز مع بعض رجاله الى خطوط النمساويين ، وكان من بينهم

لـويس فيليب • Louis Philippe بن فيليب المساواة
Philippe Egalité تحت وابل من رصاص الأورطة الثلاثة من
المتطوعين •

وضاع الشاطئ الأيسر من نهر الراين نتيجة لضياح بلجيكا •
وعند سماع أبناء نيويندن عبر الدوق برونسويك الراين في
٢٥ مارس ورد جيش الجنرال كوستين الى الجنوب ، وشير وحاصر
البروسيون ماينس وانسحب كوستين الى لاندو Duandau DE

وهكذا عادت الحرب الى أرض فرنسا وعقد الحلفاء اجتماعا في
أنفرس ولم يخفوا مراميهم من الحرب وحدودها بأنها :

- ١ - تشجيع الثورة المضادة •
- ٢ - الحصول على تعويضات اقليمية •

وفي باريس الهبت خيانة ديموريين الصراع الحزبي واتهم
الجيروند دانتون بالتواطؤ مع ديموريين فقد أرسله المؤتمر الوطني
منذ بداية مارس فشاهد الكوارث التي حلت بالجيش الفرنسي ولكن
دانتون وقف الى جانب ديموريين طويلا ، وحاول حتى ١٠ مارس
أن يطمئن المؤتمر الوطني بشانه • وفي ٢٦ مارس في الليلة السابقة
على خيانة ديموريين ، التقى ديموريين في تورناى Tournai
بثلاث من اليعاقبة من أعوان دانتون ليسوا فوق مستوى الشبهات
هم ديوييسون Dubuisson وبيريرا Pereira وبرولي Proglie

وفي أول إبريل قلب دانتون الموائد في المؤتمر الوطني
يتمتهى الجراة على حزب الجيروند بان وجه اليهم نفس الاتهام وسط
تصفيق حزب الجيل وقد عجلت خيانة ديموريين بسقوط الجيروند •
Vendée

ووسط كل هذه الهزائم والخيبات انه لعت ثورة المغاندية

وإبردو Bordeaux واشتعلت الثورة المضادة في ليون Lyon
واستسلم ميناء تولون Toulon على البحر المتوسط للانجليز .
والفاندييه اقليم مستطيل الشكل مساحته نحو ١٠.٠٠٠ كيلو متر
مربع جنوب نهر اللوار Loire ويطل من الغرب على المحيط
الأطلسي بين سان نازير Saint-Nazaire وسان جيل Saint-Giller
شمال بوردو اما من الشرق فهو يمتد من سومير Saumur
إلى بارتناي Parthenay وليس للفاندييه سواحل على المانش .

ومن يقرأ كتاب حرب الإبادة في الفاندييه La genoci de
Franco-Franco بقلم ريتنالد سيكر Reynald Secher
يخرج بنتيجة رهيبه وهى أن حرب الفاندييه هلك فيها ١٥٪ من
سكن هذا الاقليم أى نحو ١١٧.٠٠٠ نسمة من ٨١٥.٠٠٠ نسمة
أى أنها كانت حرب إبادة منظمة ، كما نخرج بنتيجة أخرى وهى
ان الأمور لم تهدأ حقاً فى الفاندييه الا فى ١٧٩٩ أثناء قنصلية
بونابرت . ويلاحظ ان وحدة الفاندييه جغرافيا تشمل أجزاء متصلة
من ثلاث مقاطعات هى انجو Anjou وبريتانى Bretagne وبواتو
Poitou وان بها ٧٠٠ ابروشية .

وقد أدت الهزائم والخسائر العسكرية فى الشرق واشتعال
الثورة المضادة فى الفاندييه وليون الى انشاء لجنة الانقاذ القومى الذى
أنشأها دانتون فى ابريل ١٧٩٣ ، وكذلك لجنة الأمن العام لمراقبة
المشبهين وتوجيه البوليس والعدالة الثورية .

وكتاب رينالد سيكر يوضح فى الفصل بعد الفصل دور
الكنيسة فى قيادة الثورة المضادة فى الفاندييه ، منذ ان أصدرت
الجمعية التأسيسية الدستور المدنى لكنيسة فرنسا فى ١٢ يوليو
١٧٩٠ فصلت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية عن الكنيسة

الكاثوليكية الخاضعة لبابا روما والفاتيكان بوصفها كنيسة قومية وطنية ، وحظرت على أية كنيسة أو أبروشية فى فرنسا الاعتراف بسلطة أى أسقف أو كاردينال معين من دولة أجنبية وكذلك حظرت على أى مواطن فرنسى الاعتراف بسلطة أى رجل دين معين من الخارج ، سواء فى طقوس التعميد أو الزواج أو الوفاة أو إقامة القداس أو تناول الأسرار الالهية . كما أن حكومة الثورة صسادت أملاك الكنيسة والأديرة ورجال الدين وحولت جيش « الكهنوت » الى مجرد موظفين عموميين .

وقد أدى تبنى الكنيسة لموقف الملكيين والنبلاء الى كل هذا العنف فى تعامل الثورة الفرنسية مع رجال الدين ، فمنهم عدد كبير امتنع عن أداء يمين الولاء للدستور المدنى وتحدى قوانين الجمعية الوطنية والجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية والمؤتمر الوطنى بشأن تنظيم شئون الكنيسة والكهنوت وبعد اعدام لويس السادس عشر نرى أحد الأساقفة فى الفانديه يشرب نخب لويس السابع عشر متجاهلا ان هناك ثورة فى البلاد .

١٥ - لويس السادس عشر

بعد ثورة « ١٠ أغسطس ١٧٩٢ الثورة على حق الفيتو Veto
أى التى يصدرها البرلمان أو المجلس النيابى والكلمة لاتينية معناها
حرفيا : « انى أعترض » قبض على الملك لويس السادس عشر
(١٧٥٢ - ١٧٩٣) والملكة ماري أنطوانيت (١٧٥٥ - ١٧٩٣)
وأولادهما ومعهم الأميرة دى لامبال de Lamballe ومدام تورزيل
de Tourzel ومدام اليزابيث ، أخت الملك ، وأرسلوا مخفورين
الى سجن التامبل Temple فى قلب باريس ، تمهيدا لمحاكمتهم ،
حيث اعتقلوا فى جناحين ببرج السجن . وكان يصحبهم عمدة
باريس ومعه ضابط ويحفهم موكب من مشاة الحرس الوطنى وهذا
ما جعل الجماهير تسمى الملك والملكة مسيو ومدام فيتوى .
وكانت الجمعية التشريعية قد اقترحت ان تسجن الأسرة
الملكة فى قصر لوكسمبورج ولكن القرار تعدل بضغط من كوميون
باريس .

● نشرت بجريدة الامسراج
بتاريخ ١٩٨٩/١٢/٢٣ .

وكانت العربية التي تحمل الأسرة المالكة من عربات القصر الملكي يجرها جوادان فقط . وتبعت العربية الملكية عربية أخرى تحمل ستة من الخدم صرح بهم كوميون باريس لخدمة الأسرة المالكة ومرت الموكب ببطء . مخترقا شوارع باريس . وكان هناك اهتمام خاص بأن يمر الموكب ميدان فاندوم Vendôme ليرى لويس السادس عشر تمثال لويس الرابع عشر مهشما رمزا للطغيان المهشم . وفي نحو الساعة السابعة مساء بلغ الموكب سجن التاميل وكانت المفاجأة أن لويس السادس عشر وجد أن مكتبة السجن تحتوي على نحو ١٥٠٠ كتاب .

ثم انتقلت مدام لامبال ومامد تورزيل إلى سجن لافورس La Force ، ثم سحبوا الخدم ولم يتركوا إلا خادما واحدا وعندما وصل لويس السادس عشر إلى سجن التاميل نزعوا سيفه . وفي ١١ ديسمبر اقتيد الملك ليحاكم أمام المؤتمر الوطني الذي حل محل الجمعية التشريعية .

وأعلن رولان رئيس الوزراء أنهم عثروا في قصر التويلري على وثائق تدين الملك في ١٤ تهمة مختلفة هي كالآتي :

١ - إطلاق الفرقة الأجنبية على الشعب الباريسي لاختصاصه على ما جرى في مذبحه نانسي .

٢ - سفك دماء الجماهير الفرنسية فيما تلا ذلك من انتفاضات ومظاهرات شعبية ولا سيما في مذبح ميدان الشان دي مارس احتجاجا على ما جرى في مذبحه نانسي .

٣ - مراسلاته مع ميرابو التي اشترى فيها ذمة ميرابو ليضمن نص الدستور على حق الاعتراض الملكي على القوانين التي تصدرها الجمعية التشريعية وعلى حق الملك في إعلان الحرب والسلام .

- ٤ - مخططة لشراء ذمم زعماء الثوان. على نطاق واسع .
 - ٥ - مراسلاته مع النبلاء المهاجرين وفيها ما يدينه بالتجمع خارج فرنسا والقيام بعمليات عسكرية لغزو فرنسا بالتعاون مع الدول الأجنبية .
 - ٦ - مفاوضات السرية مع امبراطور النمسا وملك بروسيا لاستعدادهما على فرنسا .
 - ٧ - تواطؤه مع الجنرال بوييه Bouillé لترتيب مذبة نانسي .
 - ٨ - حثه بالقسم الفيدرالى .
 - ٩ - تأمره مع عصاة « فرسان الخنجر » للتخلص من زعماء الثورة .
 - ١٠ - دفاعه عن القصر الملكى بالفرق الاجنبية .
 - ١١ - خيائته التى تسببت فى هزيمة لونجوى وفردان .
 - ١٢ - حمايته لرجال الدين المتمردين على الدولة برفضه التصديق على قانون ابعاد من يرفض منهم أداء يمين الولاء لدستور الكنيسة . المدنى .
 - ١٣ - هربه الى فارين ليحتمى بمعسكر الأعداء .
 - ١٤ - بيانه الذى تركه يوم فراره الى فارين وفيه يعلن تمسكه بالحكم المطلق . وبالنظام القديم .
- هذا « الابلاغ » الذى قدمه رولان ، رئيس الوزراء ، للمؤتمر الوطنى بناء على « ابلاغ » من « كوالينى » قصر التويلرى فى ١٧٩٢ . بان الملك أمره ببناء دولا ب حديدى ليضع فيه أوراقه البشرية . وقد قدم رولان للمؤتمر الوطنى ٧٠٠ وثيقة من الدولا ب الحديدى ، ثم قدم ١٥٠ وثيقة جديدة . وقد قيل « يوتيتا ان رولان

أخفى من المراسلات ما يدين أصدقاءه ورجال حزبه ، حزب
الجيروند .

وعرض المؤتمر الوطنى على لويس السادس عشر اختيار
محامين يتولون الدفاع عنه أثناء محاكمته . فتطوع الفقيه الكبير
مالزرب Malesherbes وترونشيه Tronchet والمحامى الضليع
سيز Sèze للدفاع عنه وفى أثناء استجوابه .

وعندما ووجه الملك بالتهم أنكرها جميعا وعندما ووجه بالوثائق
التي قدينه أنكر نسبتها اليه . ولكن المحامين اطلعوه بصراحة على
حرج موقفه ، ولاسيما ازاء الأدلة الخطية فادرك الملك ان النهاية قد
اقتربت . وبدأت عليه السلبية بالنسبة للاتهامات الموجهة اليه ،
فكان يصلى طوال الوقت ، وطلب الملك قسيسا من القساوسة
المتبردين على دستور الكنيسة المدنى ليعينه على اجتياز الباب الضيق
وليُعترف على يديه ويتناول الأسرار الالهية على عادة المسيحيين ،
فهربوا له الأب دى فيرمون de Firmon على انه مساعد للمحامين .
وفى يوم ٢٦ ديسمبر ١٧٩٢ استدعى لويس السادس عشر أمام
المؤتمر الوطنى مرة ثانية وأخيرة لسماع المرافعات والأدلاء بدفاعه
الشخصى . وكان المترافع هو سيز الذى بنى مرافعته على نقطة
دستورية هامة هي مبدأ « عصمة الملك » أو ان ذات الملك مصونة
لا تمس . . وكان دفاع الملك عن نفسه موجزا .

قال سيز :

« أيها المواطنون ، انى أتكلم هنا بصراحة رجل حر : انى
أبحث بينكم عن قضاة فلا أجد بينكم الا موجهين للاتهام . .
فلويس اذن هو الفرنسى الوحيد الذى لا يوجد له أى قانون أو أى
شكليات ! فهو اذن محروم من كل حقوق المواطن ومن كل حقوق
الملك السيادية ! » .

أما دفاع الملك عن نفسه فهو انه لا يحس بتأنيب الضمير
لشيء مما نسب اليه ، وانه لم يكن يتصور بتاتا ان تصرفاته يمكن
أن تكون موضع مساءلة عامة ، وان أشد ما آلمه فيما سمع هو
تحميله المسئولية عن سفك دماء الشعب ، لأن حبه لشعبه كثيرا
ما عرضه للمخاطر في محاولاته لحقن الدماء . .

بعد هذا اقتيد الملك الى سجن التامبل حيث أقام حتى خرج
الى المقصلة صباح ٢١ يناير ١٧٩٣ . وفي هذه الأثناء جرت محاولات
لإنقاذ لويس السادس عشر من الإعدام من جانب الجيروندي ، ولكنها
أحبطت جميعا بسبب حماس حزب الجبل وكوميون باريس والجمهوريين
العريضة في طلب رأسه . وكان الملك متماسكا وهو يصعد الى
المقصلة . وكانت آخر كلماته : « أيها الشعب ! انني أموت بريئا !
أغتنر للذين كانوا السبب في موتي ! وأنا أصلي لله الا يسقط دمي
على رأس فرنسا ! » هكذا قال بعض كتاب السير . (ايفلين ليفيه
Evelyn Lever : لويس السادس عشر « طبعة فايار ١٩٨٥ » .

كل المؤرخين متفقون على ان ماري أنطوانيت بما عرف عنها من
طيش هي التي ساعدت على تحطيم عرش البوربون . ولم أجد من
يدافع عنها دفاعا حارا من كتاب السير الا ستيفان زيفايج Stefan
Zweig في كتابه « ماري أنطوانيت » (١٩٣٣) . وقد دعاه هذا
الى إعطائنا ما يمكن ان نسميه « التفسير الجنسي للتاريخ » مما كبده
الغوص في مراسلات السفراء مع ملوكهم والملكات مع بناتهن ورجال
البلاط مع رجال البلاط .

ومنه تعرف ان عجز الملك الجنسي في السنوات السبع الأولى
من زواجه هو المسئول عن العقد النفسية التي أصيبت بها ماري
أنطوانيت من ميلها الى السحاق وكثرة ميلها الى حياة اللهو واتخاذ
العشاق في السر والعلن مما آثار عليها رجال البلاط وسيداته حتى
قبل أن يثير عليها الشعب الفرنسي ، فقد ظل لويس السادس

عشر غير قادر على الانتصاب الكامل سبع سنوات من عام زواجه في ١٧٧٠ ، وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره اذ كان لا يزال ولي عهد لويس الخامس عشر ، حتى أجرى العملية الجراحية اللازمة في ١٧٧٧ بضغط من حماة امبراطورة النمسا داريا تيريزا سليلة آل هابسبورج .

وقد ردت اليه هذه العملية رجولته فاستطاع ان يفض بكاره الملكة الشابة ماري أنطوانيت التي ظلت عذراء حتى سن الثانية والعشرين بحسب ما روى مستيقن تزفايج ، وان يزال كفة واجبات الزوجية ، ومنها الانجاب طبعاً . ولأن ذلك لم يتم الا بعد ان خرب العجز الجنسي علاقته بزوجته وملاه بالعهد النفسية ، فقد السيطرة عليها وفقد الثقة في نفسه ، واصبح كثير الزدد غير قادر على اتخاذ قرار حاسم .

وقد ساعد على ذلك ان حياة الماوك الخاصة ليست ملكا لهم وحدهم ولكن لشعوبهم أيضا . وقد كان عجز الملك الجنسي موضع لغط البلاط ، ولاسيما اقرباؤه الادنون الطامعون في العرش ، مثل الدوق دورليان (فيليب المساواة) ، ومثل أخيه الصغير الكونت دي بروفانس ومثل أخيه الأصغر الكونت دارتوا ، الذين ما ان ارتقى لويس السادس عشر عرش فرنسا في ١٧٧٤ بعد وفاة أبيه لويس الخامس عشر حتى بدأوا يرقبون ميلاد ولي العهد المعروف في فرنسا بلقب الدوفان Dauphin ، فلما تأخرت ولادته بدأوا يروجون الأخبار عن عجز الملك الجنسي لعل وعسى ان تنتقل ولاية العهد الى اسباطهم بل بدأوا يروجون الأخبار عن سوء سلوك الملكة ماري أنطوانيت .

وكان لويس السادس عشر يحب زوجته الشابة ويمقت خفتها واقبالها على اللهو ، ويمقت من تخالطهم من رجال البلاط ونسائه ،

ويلنحس تسليته الخاصة فى الصيد والقنص لأنه كان قاتل الجملاس للنساء . وكان ذا بنية قوية جدا ولكن ميله الى البدانة اصابه بالرخامة أو على حد وصف ستيفن زيفايچ . كانما الذى يجرى فى عروقه رصاص لا دماء . وكان يلاحظ نظرات التهكم فى عيون حاشيته وحاشية الملكة فيتألم ولا يقول شيئا وربما جاءت الى مسامعه بعض العبارات أو الأشعار التى كانت تنظم فيه وفيها فيكظم غيظه . ومع ذلك فقد كان دائما رقيق الحاشية مع زوجته يلومها على اسرافها ولا يقرعها بل يدفع ديونها . وكانت سريعة الدموع إذا بكى فى أحضانها انحاز الى جانبها أو غفر لها ، حتى بدا خاضعا لها . وراض نفسه على قبول عشيقها الضابط السويدي الكونت اكسيل فيرسن Axel Fersen فى البلاط الملكى كحقيقة مقررة طالما ان كل شيء كان يجرى مستورا . وكان به شغف خاص بالميكانيكا مما جعله خبيرا فى صناعة الساعات والأقفال ، وكانت له ورشة خاصة فى القصر الملكى ، وكان شديد الشدين . .

ومع ذلك فكل هذا لا يحمل ماري أنطوانيت المسئولية عن مأساة هذا الملك ولا يجعلنا نأخذ بالتفسير الجنسى للتاريخ الذى قدمه لنا استيفان زيفايچ . فقد عرف عن الملك لويس السادس عشر عناده الشديد الذى تجلى منذ يوم الباستيل وظهر فى احتقاره للطبقة الثالثة يوم ميثاق ملعب التنيس وعلان قيام الجمعية الوطنية مقام مجلس الطبقات والغاء النظام الاقطاعى وعلان حقوق الانسان والمواطن وقيام الجمعية التأسيسية بوضع دستور ١٧٩١ الذى كان أقرب شيء معروف لنظام الملكية المقيدة المعمول به فى انجلترا بل ونص فيه على تاقيب « ملك فرنسا » ب « ملك الفرنسيين » على اعتبار ان فرنسا ليست ضيقة يتوارثها الملوك أباً عن جد وإنما هم يحكمون بتفويض من الشعب مصدر كل سيادة . كذلك فان من دلائل عناد الملك رفضه التصديق على الدستور المدنى للكنيسة

والقوانين الصادرة بشأن النبلاء المهاجرين المحتمين بدول أجنبية ومصادرة أملاكهم اذا لم يعودوا خلال أجل معين ، ونفى رجل الدين الرافضين لأداء يمين الولاء للمستور الكنيسة المدني الذي يجعل منها كنيسة قومية غير تابعة لروما ومؤسسة وطنية من مؤسسات الدولة .

انسمى هذا عنادا :

لا . بل نسميه ايمانا راسخا وواضحا عند الملك بوظيفته الملكية . وهي انه قائد للطبقة الارستقراطية لا فرق في ذلك بين لويس السادس عشر وأسلافه من الملوك في تاريخ الانسانية الطويل .

ولكن ربما تفرد لويس السادس عشر بخاصية واحدة ، هي عدم القدرة أو الرغبة في المواجهة أو ما يسمونه الانحناء للعواصف ، وهو يضمم شيئا آخر ، كما فعل يوم لبس الكوكارد (شارة الثورة المثلثة الألوان) في بلدية باريس ويوم لبس الطاقية الحمراء ، شارة « الصان كيلوت » في قصر التويلري وأيا كانت أسباب هذا التردد أو المخادعة ، كما كان يسميها رجال الثورة ، فقد تجسدت في محاولته الفاشلة للهرب الى الحدود في مغامرة فارين .

كذلك من العبث ان يقال ان ماري أنطوانيت هي التي أغرت لويس السادس عشر بمحاولة الهرب الى خطوط أعداء فرنسا فقد سبقهما الى ذلك الآلاف من النبلاء المهاجرين الذين ليس لهم من الأباطرة مثل ماري أنطوانيت ، سليلة آل هابسبورج ، ولا لهم عشاق مثلها كالكونت اكسيل فيرسن ، وانما كان دافعهم الى ذلك تمسكهم بالنظام الاقطاعي وبامتيازاتهم الطبقية الموروثة وأملهم في استردادها عن طريق الخيانة الوطنية .

بعد هرب الملك واعادته الى باريس كان الموقف كالتالي اليعاقبة أصروا على محاكمة الملك واختيار وصي على العرش ، وانضم اليهم

الدوق دورليان (فيليب المساواة) . الكوردولييه راوا اعلان الجمهورية . كان كوندورسيه وبريسو وتوماس بين من كانوا في صالون مدام رولان يتحدثون عن اعلان الجمهورية وفي جانب اعلانها .

بريسو كان قد زار أمريكا والتقى بواشنطن وفرانكلين وعاد يمجّد الديمقراطية الأمريكية . سيبزكان يهدى الجو . في ١٣ يوليو ١٧٩١ ، قدمت اللجنة المشكلة لبحث قضية « اختطاف » الملك تقريراً ، أعلنت فيه انه اختطف فعلاً بترتيب من الجنرال بويه وطالبت اللجنة بمحاكمة الجنرال . وأكد التقرير تمسك الفرنسيين بالنظام الملكي قائلاً انه لا عبرة بالبيان الذي تركه لويس السادس عشر على مكتبه لعدم توقيع الوزراء على هذه الوثيقة . وبهذا فهي مجرد مسودة . وأعلن التقرير رأيه وهو ان « ذات الملك مصونة لا تمس » .

وهكذا خرج الملك من هذه المرحلة كالشجرة من العجين . وتكلم روبسبير عن العجين في التصدي للشركاء الصغار واعفاء الفاعل الأصلي من المسئولية . وهاجم دانتون مبدأ عصمة الملك .

وكان رد الفعل لدى الجماهير عنيفاً . وقرر الكوردولييه التجمع الجماهيري في ميدان الشان دي مارس لتأييد طلب بتيون Pétion من منصة الجمعية التشريعية خلع لويس السادس عشر باسم أقسام باريس وعقد مؤتمر وطني منتخب بالتصويت العام . فرفض الطلب لعدم دستوريته ، فثارت ثائرة الأقسام بقيادة اليعاقبة ، وتسليح الحرس الوطني خلال أيام . وتجمعت الجماهير في الشان دي مارس لتوقيع العرائض بقصد تقديمها الى الجمعية التشريعية وكانت مذبحة الشان دي مارس .

وفي ٢٠ ابريل ١٧٩٢ جعل لويس السادس عشر الجمعية

الثورة الفرنسية - ١٩٣

التشريعية تعلن الحرب على المجر وبوهيميا . وكان قد كتب سرا الى امبراطور النمسا والى ملك بروسيا والأمراء الألمان قائلا انه ينوى استرداد سلطته . وكتبت ماري أنطوانيت للكونت اكسيل فيرمن تعلن اغتباطها من ان الجيش الفرنسى مهامل فى الرجال والعتاد .

واقال الملك الوزراء الجيرونديين رولان Roland وسرفان Servan وكلافير Clavière واستقال ديهوريز Duhouriez وزير الحربية وسافر للجبهة لقيادة جيش الشمال وقد طرد الملك الوزراء الجيرونديين لانهم نصحوه بالامتناع عن استعمال حق الفيتو بالنسبة لتجريد رجال الدين والنبلاء المهاجرين من املاكهم اذا لم يخضعوا او يعودوا فى اجل معلوم حتى لا يتهمة الشعب بالتعاضد مع الأعداء والمهاجرين . كان ذلك فى ١٣ يونيو ١٧٩٢ . وشكل وزارة من الفوليان أتباع لافاييت . كل ذلك والجماهير تهتف : « يسقط مسيو ومدام فيتو » .

وعرض الجيرونديين على لويس السادس عشر النزول عن عرشه لصالح ابنه تحت وصاية رجل وطنى ومجلس وزراء من الجيرونديين . ورفض هذا الاقتراح .

وفى تقديرى ان نهاية لويس السادس عشر قد تقرر منذ هربه الى فارين وكل ما حدث بعد ذلك لم يكن الا تأجيلا للقدر المحتوم ، أو « حلاوة الروح » فقد جاء وقت فقد فيه الملك تأييد الجيرونديين المعتدلين أنفسهم ، ورغم ان فئة من هؤلاء ظهرت لتنقله من حد المقصلة بالمناورات القانونية داخل المؤتمر الوطنى أو بعرائض « التسامح » Indulgence لتخفيف حكم الاعدام الى الاعدام مع وقف التنفيذ ، أو الى النفى المؤبد أو الى تعليق الحكم باعدام الملك حتى استفتاء الشعب الفرنسى فى الاقاليم فانفتحت كل هذه المساعي ومات الملك على المقصلة يوم ٢١ يناير ١٧٩٣ .

١٦ - ماري انطونيت

في ٧ يونيو ١٧٦٩ ، تلقت الامبراطورة ماريا تيريزا Maria-Theresa امبراطورة النمسا ، خطابا من لويس الخامس عشر ، ملك فرنسا ، يخطب فيه رسميا ابنتها الارشيدوقة ماري انطوانيت Marie-Antoinette الى ابنه لويس السادس عشر Louis XVI وكان عمرها يومئذ أربعة عشر عاما أما عمر العريس الفرنسي فكان يومئذ ١٦ سنة ، فقد كان يكبرها بعامين . وبالطبع كان هذا الزواج مرتبا من قبل بين العائلتين المالكتين .

وكانت الفتاة الصغيرة فتاة جميلة وشيقة التكوين ذات شعر ذهبي طويل ، وقد أهمل تعليمها فكانت بالكاد تقرأ وتكتب الألمانية « لغة بلادها » ، وكانت تتكلم بعض الإيطالية ، أما فرنسيتها فكانت رديئة ، وكانت لا تعرف الا أوليات اللغة اللاتينية . وكان الموسيقار

● نشرت بجريدة الأهرام
بتاريخ ١٩٨٩/١٢/٣٠ .

النمىوى جلوك Gluck يعلمها الموسيقى على آلة الكلافسان ،
وكان لها أستاذ للرقص من باريس .

وفى عقد زواجها تنازلت ماري انطوانيت عن حقوقها فى
أملاك أسرة هابسبورج ، ودفعت دوة قدرها ٢٠٠.٠٠٠ فلورين
على أن تنتقل الى بلاط فرساي بمجوهرات لها نفس القيمة . ووعد
لويس الخامس عشر ببيع ٢٠.٠٠٠ سكوتوم ذهباً Louis وهو عملة
أوروبية تساوى ستة أمثال هذا العدد بالجنهات الفرنسية الذهبية ،
كما وعد بمجوهرات قيمتها ١٠٠.٠٠٠ سكوتوم ذهباً .

وكان الزواج بالتوكيل فى فيينا فى ١٩ ابريل ١٧٧٠ ، اى
وهى فى الخامسة عشرة من عمرها . وانتقلت على الفور الى باريس
وكانت أول مدينة فرنسية استقبلت فيها هى استراسبورج ،
ووجدت عريسها الفرنسى فى الثامنة عشرة من عمره .

وفى ٧ مايو ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر وتولى لويس
السادس عشر عرش فرنسا .

وقد ارتبط اسم الملكة ماري انطوانيت باسم عشيقها الكونت
السويدي اكسيل فيرسن Axel Persen . والتقت به لأول
مرة فى ١٧٧٤ فى « بال ماسكيه » ، رقص بالأقنعة بدار الأوبرا ،
وكانت لا تزال ولية للعهد . وكان مجرد لقاء وجيز لاحظت فيه
وسامته وقامته القارعة . والتقت به ثانية بعد أربع سنوات عند
عودته الى فرنسا فى ١٧٧٨ . وعند تقديمه للأسرة المالكة ، نسيت
الملكة البروتوكول وصاحت : « آه ، هذا معرفة قديمة ا » وهكذا
قربته من البلاط .

ولاحظت كل الحاشية ذلك ، حتى ان سفير السويد كرويتز
Creutz اضطر الى ابلاغ ملكه جوستاف الثالث بما يجرى :

« يجب على أن أسر الى جلالتك بأن الكونت الشاب دى
فيرسن موضع قبول حسن عند الملكة ، مما ترك ظلالا عند الكثيرين .
واعترف بأننى لم أستطع أن أمنع نفسى من الظن أنها تميل اليه .
وقد شاهدت دلائل موثوقا بها تزيل كل شك عندي . وقد كان
سلك الكونت الشاب فى هذا المقام يدعو للاعجاب بسبب تواضعه
وتحفظه ، ولاسيما بسبب الدور الذى أداه بسفره الى أمريكا ،
قبالابتعاد أبعد عنه كل خطر ، ولكن واضح انه بحاجة الى صلاية
أشد مما تسمح به سنه للتغلب على هذا الاغراء . وفى الأيام الأخيرة
لم تستطع الملكة أن تحول بصرها عنه ، وكانت عينها دائما مبللتين
بالدموع وهى تشخص اليه . وأنا أرجو من جلالتك أن تحفظوا هذا
السرى من أجلها ومن أجل والده السناتور فيرسن . وعندما عرف
البلاط بأمر سفره اغتبط كل المقرين . قالت له الدوقة فيتز جيمس
Fitz James : وماذا ؟ أهكذا يا سيدى تتخلى عن ثمرة انتصارك ؟ ،
فأجاب : لو اننى أحرزت انتصارا لما تخليت عن ثمرة . انى أسافر
حرا ، وللأسف دون أن يحزن أحد على سفرى » .

وعلى هذا فعلاقة فيرسن بمارى انطوانيت ، لا أقول علاقة
الفراش ، تعود الى ما بين عام ١٧٧٨ وعام ١٧٨٠ ، حين سافر
الجنرال فيرسن الى أمريكا بوصفه ياورا للجنرال روشامبو
Rochambeau غالبا ليتجنب مثل هذه العلاقة الخطرة . وفى ٢٢
أكتوبر ١٧٨١ ولدت مارى انطوانيت بنتا لقبته بالدوفينة ، أى
« ولية العهد » . وواضح من التواريخ ان الدوفينة كانت بنت
لويس السادس عشر حقا لأن تسعة أشهر تكفى للحمل . وفى
١٧٨٢ عاد فيرسن من أمريكا .

وفى ١٧٨٣ عدل فيرسن عن مشروع زواجه من أنسة سويدية .
وآرادت مارى انطوانيت استبقاء فيرسن فى بلاط فرساي . وسنحت
الفرصة حين أراد الكونت دى سبار De Sparre التنازل عن فيلقه

الأجنبي Le Royal Suédois في فرساي مقابل ١٠٠.٠٠٠ جنيه فرجا فيرسن أباه أن يقرضه هذا المبلغ . وتدخل ملك السويد جوستاف الثالث شخصيا لدى اويس السادس عشر ان يقبل فيرسن في خدمة الجيش الفرنسي ، فاقتنع بذلك ، بل ومنح فيرسن هذا المبلغ وبالتالي خلصه من دينه .

وفي ٧ يونيو ١٧٨٤ كان لويس السادس عشر يصطاد في غابة رامبوييه Rambouillet وتسام رسالة عاجلة تقول ان ملك السويد وصل فجأة الى فرساي ، فقد كان يجوب أوروبا تحت اسم مستعار ، فعاد لويس السادس عشر الى فرساي على وجه السرعة لاستقبال ضيفه . وقضيا ستة أسابيع في القصف والسم في البلاط الفرنسي الذي كان يتقن هذه الأشياء ، من باليهات وأوبرات ومسرحيات ورقص . وتوجت ماري أنطوانيت كل ذلك باحتفال كبير في قصر التريانون Trianon وصفه كتاب السير بأنه كان « ترنيمة للحب » ، أي لأكسيل فيرسن . وعاد جوستاف الثالث من بعدهما الى استوكهولم معه فيرسن والحشية . وقبل سفره قرر لويس السادس عشر لفيرسن بإيعاز من ماري أنطوانيت معاشا سنويا قدره ٢٠.٠٠٠ جنيه ، وهو معاش غير كاف للاتفاق عن سعة في بلاط فرساي ولكنه كاف للمعيشة الارستقراطية المقتصدة ، كاف لحفظ مركزه في البلاط الفرنسي .

وفي ٢٥ مارس ١٧٨٥ ، أي بعد تسعة شهور ، أنجبت ماري أنطوانيت غلاما منحه لويس السادس عشر لقب دوق نورماندي . واشتبه بعض رجال البلاط في أن المولود ابن فيرسن . وبعد عدة أسابيع من الولادة ، خرجت الملكة الى باريس ، وعند عودتها الى فرساي كان استقبالها في برودة الجليد . وبكت الملكة في أحضان زوجها قائلة : « لماذا ؟ ماذا فعلت لهم ؟ » .

وأغدق لويس السادس عشر العطف على ماري أنطوانيت ،
فاشتري لها قصرا في ضاحية سان كلو Saint-Cloud باسمها
من الدوق دورليان بمبلغ ستة ملايين جنيه ، وهو شيء غير مألوف
في تاريخ الملكية في فرنسا ، ان تكون للملكة ذمة مالية عقارية
مستقلة عن الملك خارج ما ورثته عن آلهة . وأثير الأمر باستنكار
في البرلمان الفرنسي . وكان البارسيون يتفكهون « بالنمساوية » .
وفي هذه المرحلة كانت ماري أنطوانيت تمثل دور روزين في
كوميديا « حلاق اشبيلية » لبورمارشييه . وكانت تصل الى لويس
السادس عشر منشورات تشهيرية بالملكة ، فكانت ماري أنطوانيت
تبكي وكان لويس السادس عشر يخفف عنها .

وكان جواهرجي التاج يدعى بوهمر Bohmer . وفي ١٧٨٥
اشترت ماري أنطوانيت منه جواهر بغير علم زوجها : قرطا قيمته
٣٦٠.٠٠٠ جنيه واسورة قيمتها ٨٠٠.٠٠٠ جنيه ، قلما فاجأت
الملك بديونها قام بسدادها . وكان بوهمر قبل ذلك بسنتين قد
جمد أكثر رأسماله في صناعة عقد ثمين من الماس ثمنه ١٦٠.٠٠٠
جنيه وقدم الفاتورة للملكة فأحرقتها ، واختفى بوهمر حين رأى
مراقب عام مالية الحكومة في فرساي ، ولكنه ذهب الى المنزل الريفي
لمدام كامبان Campan ليشرح لها حرج موقفه : انه سيفلس تماما
اذا لم تسدد الملكة ثمن العقد فورا . واندعشت مدام كامبان ، ففي
حدود علمها ان ماري أنطوانيت لم تشتتر مثل هذا العقد أبدا .

وأصر بوهمر على أن الملكة اشترت العقد عن طريق
الكاردينال دي روهان Cardinal de Rohan La Motte-Valois
حول موضوع العقد . قال الملك : أولا هذا ليس خط الملكة ، وثانيا
ان الملوك يوقعون باسمهم الأول فقط ، وصاح الوزير بريتاى
Breteuil : « اقبضوا على الكاردينال ! » قال الكاردينال مدافعا

عن نفسه : « اذن فقد كنت ضحية نصابين • اذن فسأدفع ثمن العقد من جيبى » •

وسيق الكاردينال الى الباستيل •

وكان بسطاء الناس يجلسون على حافة خنادق الباستيل ويغنون عن الكاردينال :

« أوليفا تقول انه ديك رومى

لاموت تقول انه نصاب ..

وهو شخصيا يقول انه ساذج ..

هللويا .. » •

« البابا جعل وجهه يحمر خجلا ، والملك والملكة سودا وجهه ، والبرلمان سوف يبيض وجهه • هللويا .. »

وبالفعل يبيض البرلمان وجه الكاردينال روهان • وكان البرلمان اشبه شئ بمحكمة عليا مكونة من ٦٤ قاضيا ، وبعد الاستماع الى ظروف هذه القضية الغريبة ، صوت ٢٩ منهم فى جانب تبرئة الكاردينال و ١٩ فى جانب ادانته • أما مدام لاموت قالوا فحكم عليها حضوريا بالسجن المؤبد وبضربها ووشمها على ظهرها بالحديد المحمى ، وحكم على زوجها غيابيا - فقد فر الزوج الى انجلترا - بالسجن المؤبد أيضا • وحكم على الساحر كاليوسترو Cagliostro بوصفه شريكا لهما فى النصب وأخلى سبيل اوليفا Oliva التى لم يثبت عليها التواطؤ • وغضب الملك من حكم البرلمان فأمر الكاردينال بالاستقالة من منصبه وجدد اقامته فى ديريه ، أما غضب الملك من حكم البرلمان بتبرئة الكاردينال دى روهان فلأنه رأى انه يتضمن ادانة للملكة ماري انطوانيت •

وحتى ابريل ١٧٨٧ كانت ماري أنطوانيت مشغولة في أعداد غرفة مدفأة بجوار غرفتها في القصر الملكي . ولم يعد في إمكان لويس السادس عشر تجاهل غرام الملكة بالكونت فيرسن . وفي ١٧٨٨ وجد زفقاء الملك في الصييد الملك ينتحب على مجموعة من الخطابات التي تندد بالملكة الزانية .

وخارج مجموعة الزعماء السياسيين والشوارع السياسي لم يكن هناك من يتحدث في وثوق عن علاقة ماري أنطوانيت بالكونت اكسيل دى فيرسن الا ثلاثة : هم بوناپرت الذي نجده في ١٧٩٩ ، اى ست سنوات بعد اعدام الملكة ، يرفض التفاوض مع الكونت هانز اكسيل دى فيرسن لانه معروف بمعتقداته الملكية وبانه كان « ينام » مع ملكة فرنسا ، ثم تليران وزير خارجية فرنسا ، ثم الوزير سان بريست Saint-Priest الذي قال ان الملكة « عرفت كيف تجعل الملك يقبل علاقتها بالكونت فيرسن » كحقيقة مقردة . لقد كانت لفيرسن زيارات ليلية في قصر التريانون وفي قصر سان كلو وفي قصر التويلري . أما الآن فلا أحد من كتاب السيريشك في ان ماري أنطوانيت كانت عشيقة اكسيل فيرسن فهناك خطاب بخط ماري أنطوانيت يخاطبه قائلا :

« الوداع ، يا أحب العاشقين وأحب المعشوقين » .

ما حقيقة قصة عقد الملكة ؟

بطلة هذه القصة امرأة مغامرة تدعى الكونتيسة جان دى لاموت فالوا Jeanne de la Motte-Valois كانت بنت نبيل مفلس وخادمة عاهرة . وكانت البنت وهي صغيرة تمشى في الشوارع حافية القدمين وفي منتهى القذارة ، وتتغذى على البطاطس المسروقة من الحقول وتحرس البقر لقاء كسرة من الخبز . وبعد موت الأب

اشتغلت الأم بالدعارة والبنت بالتسول . وحين كانت فى السابعة كانت تمر بمحضر الصدفة المركيزة دى بولا نفالبيه Boulainvilliers فى مركبتها ، فسمعتها تقول : « حسنة لبنت يتيمة من عائلة فالوا Valois » فتوقفت المركيزة لتستطلع الخبر فعرفت المركيزة أن البنت بنت شرعية فعلا لنبييل سكير كان يشيع الرعب بين الفلاحين قبل وفاته اسمه جاك دى سان ريمى Jac ques de Saint-Rémy وكان الأب فعلا سليل اسرة فالوا الشهيرة ، اسرة لويس التاسع ملك فرنسا .

ورق قلب المركيزة لهذه البنت اليتيمة فربتها على نفقتها مع اختها الصغيرة ، حتى سن الرابعة عشرة . ثم أرسلتها لتعلم الحياطة والغسيل والكى . واخيرا ادخلتها المركيزة دير ا لبنات النبلاء . ولكن جان الصغيرة لم يكن لديها استعداد لأن تكون راهبة ، فهربت من الدير وهى فى الثانية والعشرين من عمرها بتسلق سور الدير . وكانت فتاة جميلة ، فتزوجت من ضابط بوليس من نبلاء الدرجة الثانية اسمه نيكولاس دى لامونت Nicolas de Lamotte ولكن التسلق الاجتماعى كان فى طبعها ، فبحثت عن راعيتها الماركية بولانفيلبيه التى استقبلتها فى قصر الكاردينال دى روهان de Rohan وعن طريقه حصلت لزوجها على ترقية الى رتبة « كابتن » مع سداد ديونه . وسمى الكابتن دى لاموت نفسه الكونت دى لاموت ، بذلك أصبحت زوجته جان الكونتيسة دى لاموت فالوا .

وأصبح الريف ضيقا عليها فانتقلا الى باريس وفى باريس عاشا فى بذخ بالاستدانة من المرابين بدعوى أن للكونتيسة املاكا مختصة أو مهمة تقدر بالملايين ورثتها عن اسرة فالوا ، وما عليها الا أن تتقدم لبلاط فرساي لاثبات حقها القانونى فيها حتى تتكلم الوثائق والمستندات .

وبالفعل ذهبت الى فرساي وانتظرت في صالون مدام اليزابيث،
أخت الملك ، واصطنعت الاغماء ، فأعلن زوجها اسمها وقال بعين
دامعة ان الجوع الذي كابدت منه سلبية قالوا سنوات طويلة هو
سبب هذا الاغماء . فرفعوا معاشها من ٨٠٠ جنيه الى ١٥٠٠ جنيه
سنويا . واصطنعت الاغماء مرة ثانية في صالون الكونتيسة دارتوا ،
ثم مرة ثالثة في قاعة المرايا التي كان ينتظر ان تمر فيها الملكة .
ولكن الملكة لسوء حظ الكونتيسة لاموت قالوا لاتسمع عن هذه
الاغماءات .

وعاد الزوجان الى باريس ، وأخذا يرويان القصص العجيبة عن
حفاوة الملكة ماري أنطوانيت بهما وعطفها عليهما. بعد ان عرفت انهما
من اقربائها ، وكذلك الكونتيسة دارتوا .

وجعل الطمع الكثيرين يقدمون لهما المال بأمل قضاء حاجاتهم
في البلاط . وأقامت دي لاموت قالوا في حيها بباريس بلاطا مصغرا ،
فاتخذت سكرتيرا أول يدعى ريتو دي فيليب Rétoux de Villette
كان عشيقها . واتخذت من قس يدعى لوت Lott سكرتيرا ثانيا .
واستأجرت الحوذية والخدم والحشم وأقامت في بيتها الحفلات لعلية
القوم .

وكان أكبر فريسة لهما الكاردينال دي روهان . كان حليمه
الكبير أن يصبح رئيس وزراء فرنسا ، ولا بد لهذا من رضا الملكة ،
والملكة لم تخاطبه بكلمة واحدة منذ ثمانى سنوات ، اذ يبدو انه كان
قد أساء اليها أيام ان كان سقيرا لبلاده في فيينا قبل زواجهما من
لويس السادس عشر ، أو ربما كان معترضا على الزواج . ثم ان
الكاردينال كان زير نساء من طراز عظيم ، ويقال انه كان يحمل شبقا
خاصا لماري أنطوانيت . لابد أولا من اصلاح ما كان قد فسد في
علاقتهما .

وهنا جاءت الكونتيسة دى لاموت فالوا وزوجها ببغى من رواد
حى بورروايال اسمها نيكولا اوليفا Nicole d'oliva تشبه ماري
أنطوانيت ، وسموها « البارونة » لتلتقى بالكاردينال . وكانت
تدعى انها كانت تعمل فى بيت ازياء واستأجرت الكونتيسة دى
لاموت فالوا شقة فى فرساي والبست « البارونة » اوليفا بنفسها
ومشت بها فى الظلام الدامس عبر تراس القصر حتى « خميلة
فينوس » . وهنا ركن الكاردينال دى روهان أمام ماري أنطوانيت
المزيفة وقبل طرف ثوبها . وكانا قد لقناها كلاما تقول فيه انها قد
نسيت اساءته اليها ، وان فى امكانه أن يأمل خيرا

بعد ذلك بدأ الابتزاز : الملكة بحاجة الى ٥٠٠٠٠٠ جنيه ،
لنستتر أسرة عريقة أخنى عليها الدهر . ودفع الكاردينال . ثم بدأت
عصابة النصابين تشتغل « على أكبر » ان جواهرجى القصر قد جمد
رأسماله فى عقد فريد من الماس ، وجلالة الملكة تريد شراء العقد
لزينتها ولكنها لا تريد لجلالة الملك ان يعرف بهذا الأمر قبل وفائها
بشئنه الباهظ ، وهو ١٦٠٠٠٠٠٠ جنيه ، تدفع خلال سنتين
مقسطة على ستة أقساط . هذه صفقة العمر ، ووافق الكاردينال على
أن يكون الوسيط فى الشراء ، وافق بشرط أن يرى توقيع الملكة على
عقد الشراء المؤرخ ٢٩ يناير ١٧٧٥ . ولم تكن هناك صعوبة مادام
« السكرتير الأول » للكونتيسة موجودا ، وهو استاذ فى التزوير ،
وفى أول فبراير ١٧٧٥ سلم بوهمر العقد الماسى الفريد للكاردينال ،
وسلمه بيديه للكونتيسة دى لاموت فالوا ، وسلمته هى بدورها
أمام بصره الى « مندوب الملكة » ، ولم يكن هذا المندوب غير سكرتير
الكونتيسة الأول ، ريتو دى فيليت ، الذى كان الكاردينال يجهل
شخصه .

وحين حل موعد سداد القسط الأول بدأ بوهمر يتردد على

قحتر فرساي ليتقاضى ثمن ما باع . وانكرت الملكة انها تسلمت العقد أو تعرف شيئا عنه ، وحين قدمت لها فاتورة العقد ، أحرقتها في لحظة هياج شديد ، بل وزادت على ذلك قولها للكاردينال : « كيف تتصور انى ، أنا التى لم أوجه لك الخطاب منذ ثمانى سنوات ، أجعلك وسيطا فى شراء هذا العقد ؟ وادرك الكاردينال انه كان ضحية احتيال عظيم ، فأبدى استعداده لأن يقوم بسداد ثمن العقد تكفيرا عن غفلته . ولكن الملك الغاضب لم يكتف بهذه التسوية وأمر بالقبض على الكاردينال وحالته الى المحاكمة أمام البرلمان ، ان لم يكن بتهمة النصب فعلى الأقل بتهمة العيب فى الذات الملكية .

وبرأ البرلمان الكاردينال دى روهان وحكم على الكونتيسة دى لاموت قالوا بالسجن المؤبد مع ضربها علنا وكيها على ظهرها بالحديد المحمى بعلامة « ٧ » ، وهى اختصار كلمة « سارقة » بالفرنسية . واجريت فى السجن مراسم الضرب والكى فى الساعة السابعة صباحا ، فسحبها من زنزانتها ١٤ سجانا وكانهم يسحبون نمره كاسرة تطلق الصرخات الهستيرية وتصب اللعنات فى تشنج على الملك والكاردينال والبرلمان . وكشفوا ظهرها لكيها بالأسياخ فأنفلتت وجاء الكى على صدرها بين الثديين .

وتعاطف الناس مع دى لاموت قالوا فافتتح الدوق لورليسان اكتتابا باسمها لمساعدتها ، وكانت عربات النبلاء والنبيلات تقف أمام باب السجن تحمل الهدايا الى السجينة حتى اخلص أصدقاء الملكة ، وهى البرنسييسة دى لامبال كانت تزورها فى السجن ، قيل بتوجيه من مارى أنطوانيت ، لأن الكونتيسة دى لاموت قالوا لم تذكر عنها فى المحاكمة ما يشينها . وبعد أسابيع فتح مجهولون باب زنزانتها ليلا ، فهربت دى لاموت قالوا الى انجلترا حيث نشرت مذكراتها عن فضائح قصر فرساي وزعمت ان الملكة بنفسها تسلمت العقد من الكاردينال دى روهان ، ولكنها كذبت أثناء المحاكمة لتبرئ

الملكة لما كان بينهما من علاقات سحاق . وبغض النظر عن علاقات السحاق ، فقد كان هذا أيضا رأى المفكر السياسى والمؤرخ لويس بلان Louis Blanc : ان الملكة كانت مشاركة فى عملية النصب بدليل احراقها لفاتورة العقد التى قدمها لها بوهمر .

وقد نشرت الكونتيسة دى لاموت فالوا أثناء اقامتها فى لندن سجلا مفصلا لغراميات الملكة ماري أنطوايت فيه على الأقل ٣٤ اسما لأشخاص عرفتهم الملكة معرفة جنسية الى جانب الكونت اكسيل فيرسن ، عشيقها المعروف ، منهم الأميرة دى لامبال والدوقة دى بولينك والكونت دارتوا ، أخو الملك الأصغر وخادمه الخاص وخدم وممثلون ورجال ونساء بلاط ، مما يصعب سرده الا على لسان شخص عارف بأسرار البلاط الفرنسى قبيل الثورة الفرنسية أو قادر على التلقيق الجهنمى .

وفى ١٧٩١ كانت سيرة ماري أنطوانيت الجنسية ملكا للخاص والعام فى شوارع باريس ونواديها السياسية ، فأرادت النوادي السياسية استقدام الكونتيسة دى لاموت فالوا من لندن لتدلى بأقوالها أمام محكمة الثورة بوصفها شاعرة ، ولكن لوثرة من الجنون أصابتها فانتحرت بالقاء نفسها من النافذة . وأسدل موتها المفاجئ ستارا على الموضوع .

وفى أثناء محاكمة ماري أنطوانيت احتجزت فى سجن الكونسيير جيبى بعد اعدام لويس السادس عشر وحاول هيبير استغلال هذه الفضائح فى قضيتها فلم ينجح الا فى استدراج العطف عليها بسبب احتقارها اياه ، فهذه الأمور الخاصة بصعب اثباتها لأنها تجرى عادة داخل أربعة جدران وبين قوم مدربين فى المحافظة على المظاهر . وكان سشل الاتهام فوكييه تانفيل Fouquier-Tinville المدعى العام لكوميون

باريس وكان رئيس المحكمة هيرمان Herman وكان بين
المحلفين ممثلون لجميع المهن والحرف : كان بينهم ماركيز سابق
وجراح وبائع ليمون وموسيقي ومطبعجي وصانع باروكات ونجار
وقس مشلوح ، وبعض أعضاء لجنة الانقاذ الوطنى وجرت محاولتان
لتحريرها من السجن مقابل مبالغ طائلة من المال ورد فيهما اسم
دانتون واسم هيبير ، ولكن يقظة الحرس أفسدتها .

ولم يمكن توجيه اتهام محدد الى مارى أنطوانيت فرفع رئيس
المحكمة رأسه وقال : المطلوب من المحلفين ان يجيبوا عليه هو سؤال
واحد هو : هل هم مقتنعون بأن الملكة السابقة كانت على صلة
بالخارج وانها كانت تعمل على انتصار جيوش الأعداء وعلى اشغال
الفتنة داخل البلاد ؟

وهكذا طرح الاتهام على وجهه السياسى الذى لا تبرئه منه .

وبعد الخلوة المعهودة للمداولة اجمع المحلفون على ان الملكة
مذنبة .

وصدر الحكم باعدامها فسيقت الى المقصلة . . قيل وسارت
الى الموت رابطة الجاش كما تسير الملكات . . .

١٧ - جان بول مارا

Jean-Paul Marat (١٧٤٣ - ١٧٩٣) ولد مارا فى سويسرا فى بلدة بـودرى Baudry من أعمال مقاطعة نيوشاتل Neuchâtel لأب كان قسا « مشلوحا » من سردينيا ، واستقر فى سويسرا ، وتحول الى العقيدة الكالفنية ، فطرد من سلك الكهنوت الكاثوليكي ، واشتغل بالمهن الحرة وبالصناعات اليدوية . وهذا يدل على أن التلق الروحي فى عائلة مارا بدأ بلجيل الأب . وهكذا نشأ جان بول مارا ابنا من أبناء البورجوازية الصغيرة أو البورجوازية المتوسطة فى كلية نيوشاتيل ، أى « مدرستها الثانوية » .

وبدا جان بول مارا حياته العملية فى سن السادسة عشرة حين انتقل الى بوردو معلما لأولاد تاجر سويسرى يدعى نيراك

● نشرت بجريدة الأهرام
بتاريخ ١٩٩٠/١/٦ .

الثورة الفرنسية - ٢٠٩

Nierac ذى خلفية سويسرية وديانة كالفنية ، وظل معلما فى بور دو سنتين . ثم انتقل الى باريس فى ١٧٦٢ حتى ١٧٦٥ ، وهناك درس الطب دون أن يحصل على دبلوم . وفى نهاية هذه المدة زاول مهنة الطب .

ولم يكن يجد فى الطب ما يستغرقه ، بل جذبته الدراسة الفلسفية ، فاجذب الى روسو Rousseau ومونتسيكو Montesquieu أكثر مما انجذب الى جماعة الماديين : فولتير Voltaire وديدرو Diderot ودالمبير D'Alembert وهلفتيوس Helvetius وأقام جان بول مارا إحدى عشرة سنة متصلة بين إنجلترا واسكتلندا ، من ١٧٦٥ الى ١٧٧٦ ، وألف فى هذه الأثناء كتابه الهام « أغلال العبودية » Les Chaines de l'esclavage وحصل من جامعة نيوكاسل على دبلوم فى الطب فى ١٧٧٥ رغم انه كان يمارس الطب والطب البيطرى بين ١٧٧٠ و ١٧٧٢ . ثم انتقل الى لندن من ١٧٧٢ الى ١٧٧٦ . وفى هذه الفترة اجتذبه الأدب فكتب رواية « مغامرات الكونت بوتوفسكى » Les Aventures du Jeune Comte Potowski « ١٧٧٠ - ١٧٧٢ » فى قالب الرسائل على طريقة « هاويز الجديدة » La Nouvelle Hcloise التى اكتشفت بين أوراق مارا ولم تنشر الا عام ١٨٤٨ .

وفى ١٧٧٢ كتب مارا بحثا هو « مقال عن روح الانسان » ، وهو البحث الذى أعيدت صياغته ١٧٧٣ تحت عنوان : « مقال فلسفى عن الانسان » ، ويبدو انه نفس الكتاب الذى ترجم الى الفرنسية وقرأه الفرنسيون عام ١٧٧٦ تحت عنوان : « فى الانسان : المبادئ والقوانين التى تحكم تأثير الروح فى الجسد وتأثير الجسد فى الروح » وهو كتاب معاد لمادية الفيلسوف كوندياك Condillac والفيلسوف لامترى La Mettrie لأنه يؤكد ازدواجية الجسد والروح .

وظهر « اغلال العبودية » بالانجليزية أولا فى ١٧٧٤ تحت عنوان *The Chains Of Slavery* وبحسب ما يقول مارا فان الحكومة الانجليزية قاومت سرا صدور هذا الكتاب . وفى ١٧٧٦ غادر مارا انجلترا الى فرنسا بعد ان اكتشف نفسه وموهبته فى « اغلال العبودية » خمسة عشر عاما قبل اندلاع الثورة الفرنسية . لقد اكتشف جان بول مارا ضرورة الثورة فى أوروبا على النظام الاقطاعى والملكية المستبدة .

وبعد عودة مارا الى باريس فتح فيها عيادة عام ١٧٧٦ . وفى ٢٤ يونيو ١٧٧٧ عين طبيبا للحرس الخاص بالكونت دارتوا *Conte d'Artois* وهى وظيفة جيدة مكنته من التعارف على الزبائن النبلاء . وصور هذه الفترة تصورا مزدهرا معنيا بمظهره ، وقد استدر هذا النجاح الاجتماعى على الأقل حتى ١٧٨٤ ، حين اصيب بمرض جلدى لازمه بقية حياته « ٩ سنوات » . وفى ١٧٨٤ فقد وظيفته عند الكونت دارتوا . وفى هذه الاثناء كان مارا قد أنشأ لنفسه معبلا لعلم الفيزياء . وكانت له نظريات فى طبيعة النار ، فتصور ان هناك سائلا مشتعلا ، ولكن لافوازييه *Lavoisier* اثبت عدم صحة هذا الغرض . كذلك كانت لمارا نظريات فى الضوء ضد نظريات نيوتن *Newton* ولكن اكتشافه نجح على الأقل فى علاج بعض الأمراض بالصدمات الكهربائية ، وهو ما يعرف بالكهرباء الطبية . ودخل مارا فى معارك مع اكاديمية العلوم .

وفى ١٧٨٠ نشر له نيوشاتل كتاب « مشروع التشريعات الجنائية » ، وطهرته الرقابة من صفحات عديدة أيام الملكية فوضعت الطبعة كلها فى المكبس . ولم يظهر « مشروع التشريعات الجنائية » مستقلا الا فى زمن الثورة ، ولكن بريسو *Brissot* ، صديق مارا

وتلميذه فى ذلك الوقت نجح فى ان يعيد نشر « التشريعات الجنائية »
فى المجلد الخامس من « المكتبة الفاسفية » .

وحين فقد مارا عمله عند الكونت دارتوا أخذ يصنع اجهزة
الفيزياء ويبيعها ، وفكر فى العودة الى انجلترا . وحين جاءت الثورة
كان مارا رجلا متعبا .

وقد نجح مارا من الايمان بفلسفة « المستبد المستنير » التى
نصبت فخاخا لكثير من المثقفين فى القرن الثامن عشر فى عصر التنوير
قبل الثورة الفرنسية : ففولتير مجده فردريك الثانى عاهل بروسيا ،
وديدرو مجده كاثرين الثانية امبراطورة روسيا . نجح مارا من الخرافة
الانجليزىة التى كانت شائعة فى دوائر « الفلاسفة » وكان عليه ان
يوافق حكم روبرت والبول Robert Walpole رئيس وزراء انجلترا
الذى اثر عنه انه كان يقول عن أعضاء برلمانه كلما جاء ذكر أحدهم
بأنه لاسبيل الى شرائه . « ان لكل رجل ثمنه » .

فبدلا من الحرية والديمقراطية رأى مارا الرشوة والفساد
والدوائر الانتخابية فى المزاد . رأى مارا بؤس الطبقة العاملة
الانجليزىة فى الثورة الصناعىة « الويركهلوس » ، وتكونت لديه
فكرة غامضة عن « الشعب » وهو انه مرادف بوجه عام « للطبقة
العاملة » ، او مرادف بوجه عام لطبقة « الصان كيلوت » .

وقد أسعفه ايمانه بازدواجية الوجود بالايمان بازدواجية
الانسان من روح ومادة الى الايمان بوجود الله ، فكان يقول ان
« الاتحاد ترف ارسنقراطى » ، وكان يقول ان « الايمان بالفضيلة
ايمان ملازم للشعب » . وكان يرى ان البورجوازية العليا هى طبقة
« المضاربين » Speculateurs وطبقة « المولدين » Financiers
وطبقة « بناء السفن » Armateurs وطبقة « كبار التجار »
gros commerçants فوق فى تناقض الجمع بين المثل الأعلى

الاسبرطى الذى كان المثل الأعلى للسان كيلوت فى باريس والمثل
الأعلى لليبيرالى المعادى للاحتكارات الاقطاعية .

وفى هذا النظام الاجتماعى يحتل الدين مكانا هاما فى مساندة
الطغيان : ومارا ثائر على الأخلاق المسيحية لأنها تعلم اليخنوبوع ،
والدين عنده اذن اداة من أدوات الطغيان . والثورة عنده ليست
مخرجا من مازق ولكن جزء من عملية تجديد الحياة السياسية . ولكن
مكمن الخطر فيها هى سرعة تصديق الجماهير غير المنظمة وجريها
وراء الأوهام ثم التفتت بين الشيع والافراط فى الثقة .

و « مشروع التشريعات الجنائية » مستوحى أيضا من جان جاك
روسو ، فهو يقوم على الموازنة بين انسان الطبيعة وانسان المجتمع .
والقوانين هى أدوات قمع الجماهير لحساب القلة المتحكمة فى المجتمع .
وهو كتاب ضد الملكية الخاصة التى يصفها مارا بأنها شر لابد منه .
وهو لم يناد بالتناهم كحل لهذه التناقضات الاجتماعية ، ولكن نادى
بالضمان الاجتماعى .

أصدر مارا أول عدد من « صديق الشعب Ami du Peuple »
فى ١٦ سبتمبر ١٧٨٩ ، ولم تكن جريدة يومية لنشر الأخبار ولكن
كانت جريدة يومية للمتحمسين السياسى ، ولم تكن أوسع الصحف
انتشارا ، فقد كانت توزع ٢٠٠٠ نسخة يوميا ، وكل نسخة كان
يقروها ١٠ قراء . وكانت جريدة ميرابو « ثورات باريس » توزع
١٠٠٠ نسخة . وكانت جريدة هيبير Hubert « الأب دوشين »
L. Père Duchesne أوسع انتشارا من « صديق الشعب »
واشد التهابا بها ، ولكن « صديق الشعب » كان تأثيرها أعمق فى
السان كيلوت .

وكان مارا يحدد النغمة لصحف اليسار مثل جريدة « ثورات
فرنسا والأرض الواطئة » التى كان يحرقها كاميل ديمولان Camille

Desmoulins وكانت « صديق الشعب » عبارة عن فرخ مطبق على ٨ صفحات تشتمل على افتتاحية وبريد القراء ومتابعة للأخبار بالتحليلات السياسية . وكان مارا يعحرر جريدته من أول سطر الى آخر سطر فيها . وكانت « صديق الشعب » تتهم بالدعوة الى العنف ، ولكن كان العنف في المضمون وليس في الاسلوب . وقد استمرت الجريدة أربع سنوات ، أى حتى اغتيال مارا فى ١٣ يوليو ١٧٩٣ ، فكانت اشبه شئ بمونولوج مارا عن « ثورته » الذى استغرق فى القائه أربع سنوات .

وفى البداية كان مارا يتلقى بعض الاعلانات لاصدار جريدته من بعض التقدميين الانجليز ، وهذا سبب سريان الاشاعة عنه انه كان يتقاضى العون من الخارج ، ثم اقتصر فى الانفاق على « صديق الشعب » مما كان يتلقاه من نادى الكوردلييه من الاعانات .

كان مارا يحتمى بنادى الكوردلييه الذى كان يرأسه دانتون والبوليس يطارده ، وكان يهاجم صنمين : الأول هو ميرابو والثانى ديم لافاييت ، ثم فى أواخر ١٧٨٩ هاجم نكر وزير المالية ، واختفى فى حى الكوردلييه . ولما اشتد الحصار عليه سافر الى لندن حتى مايو ١٧٩٠ . وكان بعيد النظر فى كل ما يكتب : كان يتنبأ بالأحداث وكان له جواسيس فى القصر الملكى أو فى الجمعية الوطنية أو فى بلدية باريس .

وكان أول منشور له فى ١٧٨٨ يحمل عنوان « قربان للوطن » ، وتلته منشورات سياسية أخرى عن الدستور وحقوق الانسان وعيوب نظام الحكم فى بريطانيا . ثم راه الناس يقرأ بصوت عال فى نواصى الشوارع صفحات من « العقد الاجتماعى » لروسو . وفى أوئل سبتمبر ١٧٨٩ اصدر جريدته « صديق الشعب » وجهل شعارها : *Vitam Impendite* وهو من روسو . أو فلنقل

إن عين الطبيب فيه كانت ترى عللا فى كل شىء ، فقد كان يسمى نفسه اختصاصيا فى باثولوجيا السياسة • وكانت لديه رويشة دائمة :

ut redeat aniseris, abest Fortune spendis (let us tax the rich to subsidise the poor).

كانت مدام رولان تقول ان مارا عندما كان طبيبا فى البلاط كان يحيط نفسه بترف عظيم ، وعندما اغتيل كان يعصب رأسه بمنديل تشبها بالصان كيلوت ، وبجرد مخلفاته انحصرت تركته فى عدد ٢ دولاب مطبخ ، ايتناجيرة ، مكتب ، شيفونية ، تسريحة مطعمة ، عدد ٢ آلة كهربائية ، سرير حديد ، بينما كان هناك ٣ أجهزة طباعة وبعض الأجهزة المساعدة • فلا مجال للحديث عن الترف ، ولكن عن الراحة المعقولة •

وكانت تقيم معه وقت اغتياله شابة تدعى سيمون ايفرارد Simone Evrard كان قد تزوجها على طريقة روسو • وكانت على حظ من الجمال ، جيدة التعليم ، وذكية ، وجهت ثروتها الى نشر أعماله الفكرية ووقفت حياتها للسهر على صحته • ويبدو ان مارا كان مثال الوداعة فى حياته الخاصة ، وان « وحشية » الثوار كانت تنتهى بمجرد انتهاء جلسات المؤتمر الوطنى أو فراغهم من عملهم اليومى • وكان مارا أصفر الوجه مثل ميرابو حين تدهور ابصاره فى نهاية حياته وتهدلت عضلات وجهه • ولا يدانيه الا شحوب سان جوست و «خضرة البحر» فى محيا روبسبير ، حالات من المرض الجسدى سببها طول ساعات العمل وقلة ساعات النوم ، وربما انعكاسات من القلق الداخلى •

ظلت شعبية مارا واسعة بين الجماهير • وفى بداية ابريل ١٧٩٣ قاد الحملة على الجيرونديين بسبب خيانة ديموريتيز ، ولهذا حاول الجيرونديون حماقة ان يحاكموه أمام محكمة الثورة فبرأته

محكمة الثورة^١ وأخرج بانتصار عظيم . قال في ١٩ مايو : « اقترح ان يصدر المؤتمر الوطنى قرارا بالحرية الكاملة فى التعبير عن الراى حتى أرسل الى المقصلة الحزب الذى صوت فى جانب محاكمتى » .

ومارا هو الذى نظم وقاد الثورة الشعبية من ٣١ مايو الى ٢ يونيو ١٧٩٣ ، وهو الذى صعد بنفسه الى أعلى البرج فى الهوتيل دى فيل « دار البلدية » فى أول يونيو ودق الناقوس بيديه . وتصور الناس يوم مقتله ان اغتياله كان جزءا من مؤامرة وضعها الجيرونديون لتصفية اليعاقة تصفية جسدية فسيق الجيرونديون الى المقصلة بعد ثلاثة أشهر .

وبعد اغتيال مارا زادت شعبيته ، فنظمت فيه القصائد وألفت المسرحيات ولحنت الترانيم وعمد أطفال باسم بروتوس مارا ، وصان كلوت مارا ، ومارا لامونتاني (« الجبل » ، أى على اسم حزب الجبل) . وسميت الشوارع والميادين باسمه ، واتخذت اسمه ٣٧ مدينة وبلدة وتلامذة المدارس (١٠ سنوات الى ١٢ سنة) كانوا يغنون : « عد الينا يامارا من دار الخلود لتقود شعبا يعبدك » وفى بعض المدارس تعلم التلاميذ ان يرسموا علامة الصليب كلما ذكر اسم مارا وأقيم له تمثال نصفى مكان تمثال العذراء . وكلف الفنان دافيد بالاشراف على شعائر الاحتفال بدفن مارا ، فاعلن : « ان قبر مارا سيكون على البساطة التى تناسب زعيما جمهوريا غير قابل للفساد ، مات فى فقر نبيل . انه كان يرشد الناس من تحت الأرض (من قبو النبيذ المشهور) الى من هم أعداؤهم ومن أصدقائهم . فليسترح هناك فى مثواه الأخير » .

وكلف المثال مارتان باقامة مقبرة على هيئة قبو للنبيذ فى نادى الكوردلييه تظله أشجار حديقة النادى ، ومدخله باب حديدى ،

وفوق المدخل أقيم اناء من الرخاء يضم قلب مارا ونقشت عبارة :
« هنا يرقد مارا صديق الشعب ، قتله أعداء الشعب » .

وبدا الجناز فى الساعة الخامسة مساء وانتهى فى منتصف الليل . وكانت تحف بالنعش عذارى يلبسن ملابس بيضاء وكانهن فى عرس ، وصبية يحملون أغصان السرو . ومن ورائهم سوار أعضاء المؤتمر الوطنى والنوادر السياسية ثم الجمهور . وبعد الدفن (وكل قسم أمام القبر) ألقى رئيس كل حى كلمة تابين . وبعد يومين طاف موكب آخر بالشوارع حاملا الاناء الرخامى المحتوى على قلب مارا ، ونقله من حديقة الكوردلييه الى قاعة الاجتماعات فى ذلك النادى حيث علق فى سقف القاعة .

وبعد سقوط روبسبير عندما كان كل الأحياء من عهد الارهاب يرتعدون فرقا ، كانت شعبية مارا لاتزال كافية لتمكنه من حياة مكان فى البانتيون . وفى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٤ حمل قسم مارا « المارسييلين سابقا » جثمانه الى مدخل المؤتمر الوطنى . وفى ٨ صباحا من اليوم التالى تبعت كل الأقسام العربة الجنائزية الى البانتيون بينما خرج جثمان ميرابو « الملكى » من باب جانبى وألقى رئيس المؤتمر الوطنى كلمة تابين .

ولكن تقديس مارا لم يدم طويلا ، فبعد أربعة أشهر بالضبط احرقت فى فناء نادى اليعاقبة صورة دمية لمارا ، وألقى الرماد فى مجارى مونمارتر التى كانت قد غيرت اسمها الى « مونمارا » واختفى قلب مارا من نادى الكوردلييه . وفى ٨ فبراير ١٧٩٥ لم يطلب أحد من أصدقائه رميه فصرح قسم البانتيون بدفن رميم مارا فى أقرب جبانة .

قال نابوليون : « أنا أحب مارا ، فهو مخلص . انه دائما يقول ما يؤمن به » .

كان مارا لا يخفى ميوله الدكتاتورية ، ومنذ ١٠ أغسطس ١٧٩٢ وهو ينادى بتأليف حكومة ثلاثية تتركز في يدها كل السلطات (Triumvirat) على غرار ما كان يفعل الرومان . وبعد أقل من عام طعنته فتاة ارسستقراطية تدعى شرلوت كورداي Charlotte Corday في ١٣ يوليو ١٧٩٣ ، كانت تتردد على النواب الجيرونديين الفارين في مدينة « كان » Caen وتقول انها قررت ان « تقتل لا رجلا بل وحشا كاسرا كان يلتهم كل الفرنسيين » . وألهمت شرلوت كورداي على المقصلة في ١٧ يوليو ١٧٩٣ ، وكان عمرها خمسة وعشرين عاما .

في يوم الأحد ٧ يوليو ١٧٩٣ اجتمع نحو ثلاثين مندوبا على العشب الشاسع خارج مدينة كان الكالفادوس ، وكان النائب بنميون يعتقد ان حزنها آت من فراق فارس أيلامها ، وكان يداعبها بقوله : « لاشك انك حزينة لأنه سيرحل ا » .

وكانت قد قبلت في سن الثالثة عشرة في « دير السيدات » وهو دير كانت قد انشأته ماتيلدا زوجة وليم الفاتح ولذا بقي عليه صلب الاتباع . وكانت في بداية حياتها في الدير تجد السلوى في حياة العزلة ، ولا سيما بين صاحبتين في سنها من أصل نبيل فقير مثلها . وقد بقي لها من صديها صوت العذراء الصغيرة فكان هذا سمة مشتركة بينها وبين جان دارك التي لم ينضج صوتها أبدا كصوت امرأة كاملة النضوج بل ظل على بكارته فضي الرنين ، وكانت شرلوت كورداي على ذلك تعيش في عالم غريب بين أبطال بلوتارك الذين اشتروا الخلود بمواجهة الموت .

ووزعت كتبها قبل رحيلها الى باريس ، كل كتبها فيما خلا مجلدا واحدا من بلوتارك . هذا المجلد أخذته معها الى باريس حين رحلت اليها في عربة عامة . وقبل سفرها لم تنس أن تمر على

والدها في بلدة ارجنتان ليعطيها بركته ، ومن ارجنتان ركبت المركبة العامة . وكان معها في المركبة العامة بعض أنصار حزب الجبل من غلاة المعجبين بمسارا . وبدأوا بالتودد اليها الى حد طلب يدها . فادعت النوم . ثم ابتسمت ثم تشاغلّت بمداعبة أحد الأطفال .

ووصلت باريس يوم الخميس ١١ يوليو ١٧٩٣ نحو الظهر ونزلت في شارع الفيه دوجستان رقم ١٧ في « هوتيل دي لايروفيدانس » Hotel de la Providence (فندق العناية الالهية) ولأمت في الساعة الخامسة مساء ، فأتت الى الصباح نوم الخلى . وفي الصباح انطلقت بكتاب النائب باربارو Barbaroux الى النائب ديبريه Duperret وهو عذرهما الرسمي في زيارة باريس للتوسط لصديقة لها من المهاجرات في استكمال أوراق هجرتها من وزارة الداخلية . ووجدت شارلوت كورداي النائب في المؤتمر الوطني . فعاتت ادراجهما الى فندقها وعكفت على قراءة « سير » بلوتارك حتى المساء . وفي المساء زارت ديبريه فوجدته يتعشى مع أسرته ، ووعدها بأن يصطحبها في اليوم التالي الى وزير الداخلية . قالت شارلوت كورداي للنائب ديبريه ، وقد أحسست بالندم لأنها أقحمته على غير قصد منها مع أسرته في مجازفة لم يكن ينتظرها بلهجة استعطاف : « سافر الى كان قبل مساء الغد ، أهرب ، صدقني » . وسواء أكان ديبريه يعرف أو لا يعرف انه مطلوب ، فقد بر بوعده ، واصطحب شارلوت كورداي في الصباح التالي الى قلب مكتب وزير الداخلية الذي أفهمه في النهاية انه كان مثله مشبوها سياسيا وبالتالي فهو لا يستطيع ان يساعد الأنسة المهاجرة بشئ .

ولم تعد الى فندقها قبل ان تمر على « الباليه رويال » في صحنه ديبريه ، ونزلت من العربة بعد أن أشار لها ديبريه الى

« الباليه روابال • ودخلت محلا اشترت منه سكيننا باربعين سنتيما ذا مقبض من الابنوس ، وأخفته فى صدرها •

وكان مشروعها الاول الذى جاءت به من « كان » يقوم على اغتيال مارا يوم ١٤ يوليو فى الشان دى مارس امام الجماهير • فلما عرفت ان احتفال ١٤ يوليو تأجل ، عدلت خطتها بخطة أخرى وهى ان تغتاله فى أثناء مزاولته لعمله اليومى مع حزب الجبل فى المؤتمر الوطنى ، ولكنها عرفت ان مارا كان مريضا وانه انقطع عن التردد على المؤتمر الوطنى •

لم يبق اذن الا تنفيذ المخطط بزيارته فى داره والتوسل بأية وسيلة للتسلل الى عرينه وسط ذويه ، ولو بكذبة صارخة • وهكذا كتبت شرلوت كوردائى لمارا خطابا لم تتلق عليه ردا فى نفس اليوم ، فاضطرت ان تكتب خطابا آخر كذبت فيه ولكنها لم ترسله : قالت انها شقية ومضطهدة وأنها ستفضى اليه بأسرار خطيرة •

وفى مساء ١٣ يوليو ١٧٩٣ خرجت من فندقها وركبت مركبة عامة عند « ميدان الانتصارات » وعبرت الكوبرى الجديد Lepont Neuf ونزلت عند باب مارا شارع الكوردلييه رقم ٢٠ « بأرقام عصر ميشيليه ١٨ شارع مدرسة الطب فى الحى اللاتينى » وهو البيت الكبير السابق على البرج عند ناصية الشارع • وكان مارا يسكن فى أكثر الطوابق عتمة ، وهو الطابق الاول ، وهو طابق يناسب صحفيا مثله ونائبا شعبيا من نواب الشعب ، بحيث يكون مسرحا لتحركات الحماليين ورجال الاعلانات والبروفات • والغرف المعتمة حقا ، وهى المطللة على القناء الداخلى ، بها أثاث متسخ قديم

يرحى بأنه مسكن عامل . فاذا أنت توغلت قليلا وجدت صالونا أنيقا يطل على الشارع مكسوا بالحرير الأزرق والأبيض وتتبعه ستائر حريرية جميلة ومعها فازات من الصينى عادة تحليها الزهور .

كان واضحا ان هذا كان مسكن سيدة فاضلة نابت عنه فى كل ما يخص شئون الدنيا ، وكان هذا سر حياة مارا الذى أفشته اخته البرتين : « لم يكن مارا يقيم للمال وزنا . وانما كانت هناك امرأة سماية أثر فيها موقفه حين كان يهرب من قبو الى قبو فكانت تخفى لديها « صديق الشعب » فسلمته مالها وضحت من أجله براحتها » .

وقد وجدوا بين أوراق مارا وعدا بأن يتزوج من كاثارين ، سيمون « ايقرار Simone Eyrard » وكان من قبل قد تزوجها على طريقة جان جاك روسو ، أى تزوجها أمام الشمس وأمام الطبيعة !

واجتازت شرلوت كورداى الحاجز الاول عند بوابة الدار دون توقف ، رغم انهم نادوا عليها لمنعها من الدخول . وسمع مارا الجلبة خارج حمامه فأمر بأن يسمحوا لها بالدخول . وكان جسمه مغطى بملاءة متسخة ، وكان يستخدم لوحا من خشب وضعه بعرض البانيو ليكتب عليه ، ولم يظهر من جسمه الا رأسه المعصوب بمنديل أو بقطعة وذراعه اليمنى وكتفاه ، أما بقية جسده فكان مغطى بالملاءة المتسخة ، وكان جسده غارقا فى الخل لتخفيف الالتهاب الجلدى الذى كان مارا يعانى منه .

لقد وعدته بأنباء من نورماندى ، ولاسيما أسماء النواب الجيرونند اللاجئين فى كان . وطلب الأسماء فسردها عليه ، وهو يكتب . ولما فرغ من الكتابة قال : « هذا طيب ! فى خلال ثمانية أيام سيذهبون الى الجيلوتين » .

وكان هذا هو حافزها الحقيقي لقتله . واستلت السكين الذي كانت قد أخفته في طيات صدرها . وأغمדתه في صدر مارا ، فلم تترك له الا لحظة يستغيث فيها سيمون ايفرار ، قائلا : « يا صديقتي العزيزة ! » ثم أسلم الروح وهو في بركة من دماء . لاشك ان شرلوت كورداي قد تدربت على ذلك مائة مرة ومرة ، فقد كانت عملية جراحة من الدرجة الاولى . والا فما معنى أن يكرر علينا ميشليه أكثر من مرة ان نور النهار كان خافتا خافتا ؟

ماتت شرلوت كورداي على المقصلة في ١٩ يوليو ١٧٩٣ .

١٨ - جورج دانتون

أطلقوا على جورج دانتون عدة أسماء من البلطجي الملكي الى جان دارك النظام الجمهوري . كان صاحب عقلية عملية فلم يشارك في وضع تصور لما سوف يكون عليه الانسان الجمهوري الجديد ، كما أنه لم يشارك في بناء تصور لفلسفة الثورة مثلما فعل روبسبير وسان جوست ومارا .

ولم يكن لدى دانتون وسائل قدرة ووسائل نظيفة لتحقيق غاياته ، بل تجاوز الأفكار المألوفة عن الخير والشر ، وكان رأى لامارتين فيه في كتابه « تاريخ الجيروندي » أنه رجل مجرد من الشرف أو المبادئ أحب الديموقراطية لما تعطيه له الديموقراطية من انفعالات . . وكان يعبد القوة والقوة وحدها ، وكان البلاط يعرف تماما ثمن ضميره فما كان عليه الا أن يفتح فمه ليتكدر فيه الذهب .

● نشرت بجريدة الامحرام بتاريخ ١٩٩٠/١/٢٠ .

واتخذت رذائله أبعادا بطولية وكان ذكاؤه عبقرية . وكانت فيه
من الناحية الأخلاقية ملامح المتأمر الرومانى كاتلينا .

أما رأى ميشيليه فيه فهو انه كان يمثل فى مرحلة الثورة
عام ١٧٩٢ الوطنية الفرنسية .

ولد دانتون فى أرسى - سير - اوب وهى مجرد قرية فى
مقاطعة شمبانيا أى أنه يشترك مع أكثر الثوار فى أصوله الريفية
وفى خلفية الطبقة المتوسطة المستريحة التى كان أغلبيتهم ينتمون
اليها . وكان أقرباؤه كثيرين فكان له عشرة اخوة . وتزوج أبوه
مرتين . وليست لدينا وثائق عن صباه أو شبابه الباكر الا شهادات
زملائه فى الدراسة الثانوية مثل بيون الذى ذكر عنه أنه عندما كان
صبيا حاول أن يرضع اللبن من ضرع بقرة فرفضه فجعلها رفسة
تركت به عاهة مستديمة فى أنفه الأفطس . وكان بوجهه نمش
واضح من آثار جدري قديم . فأضاف ذلك تشويه الخلقة المأثور
عن دانتون .

ومن الروايات التى حكيت عنه أنه قطع نحو مائة كيلو متر من
قرينته أرسى حتى كاتدرائية رانس حيث جرت العادة أن يتزوج ملوك
فرنسا منذ جان دارك ليشهد بشخصه تتويج لويس السادس عشر
ويصفه على الطبيعة وذلك طمعا فى الحصول على جائزة لم يحصل
عليها كما كان يرجو ولكنه أفلت من عقاب ادارة المدرسة له ، كان
ذلك فى نهاية مرحلة الدراسة الثانوية .

أما مرحلة الدراسة الجامعية فقد قضاه دانتون فى رانس
قبل انتقاله نهائيا فى باريس ليحرب حظه فى مهنة « مستشار
ملكى » يترافع فى فرساي عن حقوق النبلاء المغموطة فى البلاط

الملكى ، ولكى يتمكن من ذلك اشترى مكتب محاسب من بلدياته .
وانفق جزءا من ماله على الزواج .

تخرج دانتون فى جامعة رانيس عام ١٧٨٤ وهو فى السادسة والعشرين من عمره واشترى مكتبه القانونى فى ٩ يونيه ١٧٨٧ .
وهذا هو تاريخ انتقاله الرسمى الى باريس . وأنجب طفله الاول فى عام ١٧٨٨ . ولكن هذا الطفل مات فى ابريل ١٧٨٩ .

وفى ١٣ يوليه ١٧٨٩ كتب المحامى لافو أنه زار حى الكوردلييه الذى كان فيه مكتب دانتون . يقول لافو فى هذا الصدد : « رأيت زميلى دانتون الذى عرفته دائما رجلا صاحب منطق سليم وخلق رضى يتسم بالتواضع والصمت ولكن ما كان أشد عجبى أن أراه واقفا على مائدة يطلب من المواطنين أن يتسلحوا ليصدوا ١٥٠٠٠ قاطع طريق اجتمعوا فى مومارتر وجيشا من ٣٠٠٠ رجل احتشدوا للفتك بأهالى باريس ، وذهبت اليه لاستفسر منه عن سر هذه الضجة وكلمته عن الهدوء والأمن اللذين رأيتهما بفرساي فأجاب انى لم أفهم شيئا وان الشعب صاحب السيادة قد ثار على الطغيان وقال : انضم الينا فالعرش قد هوى وأنت قد خسرت وظيفتك القديمة . لا تنس ذلك . وفى ١٦ يوليو ١٧٨٩ قاد دانتون مظاهرة من الكوردلييه الى الباستيل »

وكان دانتون بجسمه الرياضى وقدرته على الارتجال طاقة كبرى . وفى عريضة اتهام المدعى العام فوكييه تانفيل أثناء محاكمة دانتون جاء فيها أن دانتون هرب الى انجلترا . وفى عريضة اتهام سان جوست لدانتون انه كان فى انجلترا فى ١٧ يوليه ١٧٨٩ . وكان سفير فرنسا فى لندن يومئذ لالوسرن فكتب الى وزير خارجيته بفحوى حديث جرى بين آل دانتون فى لندن ودوق أورليان الذى كان مبعدا فى انجلترا آنذاك . ولعل الهدف من وراء هذا تذكير

دوق أورليان بأنه كان على غير علم منه يتصلن بعميلين للدولة الأجنبية.
هما دانتون وباريه . وهذا وحده قمين بأن يعطينا صورة عن تطور
التشكيك في الوطنيين وطلاب الحرية الذي كان ثعالب الارستقراطية
يسعون الى نشره والترويج له . وبسبب الغموض الذي أحاط دائما
بنشاط دانتون الثوري والوطني تجده يزايد دائما بالكلام الملتهب
رغم ما بدا عليه من تواضع واتخاذ مواقف عملية ، وهو الأمر الذي
يذكرنا بالمحرضين على التطرف الذين يطلقهم البوليس عمدا بين
الجماهير لتبرير اعتقال المثبات أو فض المظاهرات بالعنف على
أقل تقدير .

وبين ١٤ يوليو ١٧٨٩ ونهاية العام بنى دانتون لنفسه جهازا
سياسيا في حي لوكسمبورج حيث نادى الكوردلييه وجراالدهم
وأصبح رئيسا لنادى الكوردلييه . وفى ٣ أكتوبر ١٧٨٩ كتب شاهد
عيان لايعرف دانتون عن فترة رياسته للنادى واصداده بيان يدين
فيه استدعاء فرقة الفلاندوز Flandres لتشتيت الجماهير
الباريسية وحماية فرساي Versailles وقد حدثت أربع
محاولات لنزع رئاسة النادى منه وفشلت جميعا قبل نهاية العام .

وكان من أهم أعضاء نادى الكوردلييه فابر ديغلانتين
Fabre d'Eglantine الممثل السابق والشاعر المسرحى المتوسط
الموهبة ، والجزار ليجيندر Legendre ، والحفار سيرجان Sargent
والممثل كولوديربوا Collet-d'Herbois وسكرتير دانتون السابق
بيوقارين Billaud-Varenne ، وباريه Pare تابعه أينما
توجه ، وفانيوبل Manuel الذى عوقب على كتاباته بالسجن ثلاثة
شهور فى الباستيل ، وشوميت Chaumette ، الخ . كل هؤلاء
انضموا الى مجموعة دانتون فى الكوردلييه . ومن الصحفيين انضم
من أصحاب الصحف كاميل ديمولاد Camille Desmoulins

وفريرون Freron ، الذين لازموا دانتون حتى المقصلة (أى لمدة ثلاث سنوات) .

وفي أكتوبر ١٧٨٩ . كانت محكمة الشاتلية Châtelet قد أصدرت أمرا بالقبض على مارا لمحاكمته فى تهمة القذف السياسى . التى كانت منسوبة اليه ، وكان مارا هاربا ومختفيا فى موناكو . وفى أكتوبر انتقل مارا الى حى الكوردلييه .

فى ٢٢ يناير ١٧٩٠ أرسل لافاييت ٣٠٠٠ رجل من رجال الجرس الوطنى مع مدفعين للقبض على مارا فرفض نادى الكوردلييه تسليمه ، وكانت مواجهة سخيفة فى الشارع مع شرطيين أرسلهما لافاييت بأمر القبض ، فقد أقنع دانتون الشرطيين بأن الأمر قديم يرجع الى ١٠ أكتوبر ، ولابد من الرجوع الى الجمعية الوطنية قبل تنفيذه . وأيدت الجمعية الوطنية أمر القبض ، فتظاهر دانتون بالرضوخ لقرار الجمعية الوطنية . ودعا الشرطيين للتقدم لتنفيذ أمر القبض ، ولكن العصفور كان قد طار من القفص فى طريقه الى انجلترا . وفى ١٧ مارس ١٧٩٠ . أصدرت محكمة الشاتلية أمرا بالقبض على دانتون نفسه للتستر على مارا ولكن الأمر أهمل تنفيذه نظرا لأن كل النفوس كانت مستفزة . وهنا اشتد اقبال عمال السين على الانضمام الى عضوية نادى الكوردلييه لأنه كان أرخص اشتراكا من نادى اليعاقبة (الذى تقاضى ضرائب مباشرة قيمتها أجر ثلاثة أيام على الأقل) . ودخل دانتون نادى اليعاقبة دون ان يتخلى عن مسئوليته عن نادى الكوردلييه . وفى مايو ١٧٩٠ ألقى فيه أول خطاب مدون له . وكان اليعاقبة أعلى اشتراكا وأشد أناقة وأعظم احتراما وأكثر تأثيرا فى التشريعات من الكوردلييه .

وكان دانتون منذ اشترى مكتبه الخاص فى ١٧٨٧ قد تعود ان يوقع اسمه Danton من باب الانتساب الى النبلاء ولكنه

قرر فى ١٧٩٢ ان يوقع اسمه كما هو مدون فى سجل المعمودية .
وفى ١٧٨٧ كانت لديه ٢٢ قضية وتراجع أمام محكمة البلاط
كمستشار ملكى ما متوسطه ٢٠.٠٠٠ جنيه سنويا لدرجة انها
بدأت تؤثر فى أفكاره السياسية ، فيؤثر عنه قوله : « الويل لمن
يشعلون الثورات » ، وعرف عنه انه من رواد قهوة بروكوبيوسى
بشارع سان جيرمان .

يجب التوقف طويلا أمام الهزيمة الكاسحة لدانتون أمام بالى
حين انتخب بالى عمدة لباريس بأغلبية ١٢٢٥٠ صوتا لبالى مقابل
٤٩ صوتا لدانتون فحتى حى دانتون ، حى الاوديون ، تخطى عنه فى
انتخاب المدعى العام ونوابه ، اذ حصل مرشحو بالى على ٣٤٥٢ و
٢٩٦١ و ٢٣٣٢ صوتا بينما حصل مرشحو دانتون على
١٢٩ و ١٩٣ و ١٩٧ صوتا ، أى أقل من نصف أصوات حى
الاوديون . بل وأسوأ من ذلك . ففى سبتمبر ١٧٩٠ اختاره قسمه
ليكون أحد ثلاثة ممثلين عنه فى مجلس البلدية ، وكان دانتون الوحيد
بين ١٤٤ عضو مجلس لم تتم الموافقة عليه من ٤٨ قسما من
أقسام باريس ، بالرغم من ان الموافقة كانت تجرى فى العادة
استكمالا للشكل ولكنها فى هذه الحالة لم تتم . فهل كان دانتون
سيء السمعة على المستوى السياسى ؟

أقل ما يقال فيه على المستوى السياسى انه كان رجلا غامض
الولاء ، يقيم مستقبله السياسى على « المصالحات » ويحتفظ بكثير من
حياله السياسية موصولة فى « الخفاء » .

كان رد فعل دانتون لهرب الملك فى ٢١ يونيو ١٧٩٢ عنيفا
لا ضد الملك ولكن ضد لافاييت . وكان اليعاقبة أشد حذرا واعتدالا
من الكوردلييه . فى اتخاذ قرار بالنسبة لمستقبل الملكية . وكانت
لخطب دانتون فى نادى اليعاقبة جمهور مختلط من اليعاقبة

والكورديليه ، وكان يندد فيها بالخائفين على التوقيع ، فخرج أكثر
المجنمين وأسسوا ناديا مستقلا . وفى ١٦ يوليو ١٧٩١ يقرأ
عريضة اليعاقبة الى الجمعية الوطنية على الجماهير بعد ان أبلغ
روبسبير وبتيون فى اليوم السابق (١٥ يوليو ١٧٩١) برأى
اليعاقبة فى الموقف السياسى ، وهو انه بما ان الجمعية الوطنية قد
أعادت الملك الى عرشه فالعريضة أصبحت غير ذات موضوع . وفى
١٦ يوليو ١٧٩١ أضاف شخص ما الى العريضة فى الشأن دى مارس
طلب استبدال لويس السادس عشر بالوسائل الدستورية . وكان
معنى ذلك اعلان الوصاية على العرش فى نظام يجعل من دوق
أورليان وصيا على الملك الطفل لويس السابع عشر وأصر اليعاقبة
على إعادة العبارة المضافة وفى ١٧ يوليو بعد الظهر وصل سرجان
Sergent ، وكان رئيس قسم الأوديون حيث منزل دانتون ،
فوجد معه ديمولان وفريرون وبرون Brune وفابر ديغلانتين ومورو
Moreau وسانثير Santerre أى هيئة أركان الكورديليه .
وفوجئ المجتمعون بوصول ليجاندر Legender برسالة غير مباشرة
من الكساندر دى لاميت Alexandre de Lameth ان يتركوا
باريس . وترك دانتون وديمولان وفريرون فورا شقة دانتون الى
بيت كان يملكه صهر دانتون فى الريف القريب . وفى هذه
الأيام تجمعت الجماهير فى الشأن دى مارس وقيل لها ان اليعاقبة
قد سحبوا عريضتهم . وبعد أيام صدر الأمر بالقبض على سرجان
ومورو وسانثير وهيبر وشومبييت ثم على ديمولان وبرون عقب
مذبحة شان دى مارس وتركت السلطات دانتون لحاله ، حتى
استصعدوا أمرا بالقبض عليه بتهمة سب لافاييت وقيادات الحرس
الوطنى باعتبار انها خدعت الجماهير ليلة فرار الملك .

وهذه نقطة سوداء فى تاريخ دانتون : انه يفر الى الريف
ولا يتدخل ليقاف مذبحة شان دى مارس . ولا شك ان روبسبير

كان يعرف بكل هذه المآخذ على سلوك دانتون السياسى ومع هذا استمر فى التعاون معه لغاية محاكمته فى ١٧٩٤ . الاجابة على هذا اللغز تكمن فى تقديرى فى موقف اليعاقبة المعتدل من النظام الملكى وعدم استعدادهم للخروج على الشرعية الدستورية . والمنطق هنا بسيط : قبل أن تخرج القذى من عين صاحبك أخرج الخشبة من عينك أولا .

وكذلك فدانتون بسلوكه السياسى الغامض الذى جعل منه وزيرا للعدل برغم ماضيه المشوب كمستشار ملكى يترافع أمام محكمة البلاط فى قضايا النبلاء ، مكنه من اقامة الروابط الخفية مع الجيرونديين ، أعداء اليعاقبة الالقاء مع المحافظة على جسوره مع اليعاقبة ، وهو مسئول أيضا عن شيوع الاتهام الخطير له بأنه كان عيناً للبلاط على اليعاقبة وعينا لليعاقبة على البلاط . فهو اذن النموذج الكامل « للعميل المزدوج » .

وهنا لابد من الاجابة على هذا السؤال : كيف اتيح لدانتون ان يدفع ثمن المكتب الذى اشتراه فى باريس عام ١٧٨٧ ، وصفاه فى أغسطس فى عام ١٧٩١ ، أى قبل مرور أربع سنوات من انشائه ؟ ان عدد القضايا التى وجدها فريسيورج فى تلك الفترة الوجيزة من عمر المكتب ٢٢ قضية فقط قدر كورتوا ، Courtois وهو صديق دانتون قيمتها بمبلغ ١٢ مليون جنيهه فرنسى ، وهذا تقدير مبالغ فيه كثيرا . قال كافانياك Cavaignac ، وهو ابن أحد زملاء دانتون فى المؤتمر الوطنى للويس بلان Louis Blanc مؤرخ الثورة الفرنسية ، فى مأدبة عشاء ، وكان فى حالة سكر بين على لسان دانتون : « أن الوقت قد حان ليستمتع الشوار بالدور الفخمة وبالطعام الشهى والملابس الفاخرة ونساء أحلامهم » ، لأن الثورة معركة وغنائمها يجب ان تثول الى المنتصرين . ولما اعترض

الحاضرون على كلامه أكد لهم دانتون ان فى استطاعته ان يلعب دور
الصان كيلوت مثل أى شخص آخر .

وقد ذكرت مدام رولان ان دانتون اعترف لهما بانه يملك
٥ر١ مليون جنيه فرنسى . ولكن بريسو Brissot كان أكثر تحديدا
حين ذكر انه رأى ايصالا من دانتون لمونموران Montmorin
وزير الخارجية ، بمبلغ ٣٠ر٠٠٠ جنيه فرنسى حتى مايو ١٧٩١ .
وهذا المبلغ تكرر فى مذكرات مولفيل Moleville ، وزير البحرية،
التي نشرت لأول مرة بالانجليزية عام ١٧٩٧ ، فقد ذكر مولفيل ان
تالون Talon ، وهو أحد عملاء البلاط فى توزيع المصروفات
السرية ، دفع لدانتون مبلغا يتجاوز ٣٠٠ر٠٠٠ جنيه فرنسى مقابل
خدماته فى نادى اليعاقبة . وفى نهاية ١٧٩٢ زعم مولفيل انه يملك
دليلا خطيا على تقاضى دانتون أموالا سرية من البلاط وهدد بإفشائها
إذا صوت - دانتون فى جانب اعدام الملك . ولكن هذا التهديد
لم يؤثر فى اتجاه دانتون فى التصويت .

ورتب قابر ديجلانتين وبريسو اختيار دانتون وزيرا للعدل
فحلف اليمين فى ١١ أغسطس ١٧٩١ ، ودل هذا على قيام بعض
الحبال الموصولة بين نادى الكوردلييه وجماعة الجيرونديين ، فى وقت
كان هؤلاء أعداء صرحاء لروبسبير ولليعاقبة : فاز بأغلبية ٢٢٢
نائبا من ٢٨٤ نائبا كانوا لايزالون يملكون الشجاعة لحضور
جلسات الجمعية التشريعية . وفى رواية ان قابر ديجلانتين ايقظه
ذات صباح ليبلغه نبأ اختياره وزيرا فى الوزارة الجديدة ، وفى
ذات الوقت طلب لنفسه منصب سكرتير عام الوزارة فقسم دانتون
المنصب الى منصبين ، أعطى احدهما لقابر ديجلانتين والآخر
لديمولان . وكان دانتون شديد السخاء مع أصدقائه واتباعه .
ومما يذكر عن آثار هذا ان قابر ديجلانتين احتفظ لنفسه بعقد
توريد أحذية للجيش .

وقد كانت مدام رولان Madame Roland زوجة وزير الداخلية تحلم باقامة جمهورية رومانية فى فرنسا ، ولكن طباع دانتون لم تكن بالضبط شيثرونية ، فاتهمته بأنه يرسل حثالة المفتشين للتفتيش على الجبهة الداخلية ، ولكنها امتدحت اخلاصه للحرية واقباله على التعاون مع الجيرونديين . غير انها وجدت فى « حيويته دلالة القوة الشهوانية الحيوانية واجترأ لا نظير له يخفى دانتون نصفه بادعاء المرح واصطناع الصراحة والطيبة » .

وبمجرد تقلده منصب وزير العدل بدا دانتون فى تسديد مديونية مكتبه القانونى قبل حلولها بعامين ، وتعهد بايقاف العنف الشعبى . ومع ذلك فدوره فى مذابح سبتمبر غامض ، وعبارته المشهورة ، المنقوشة على قاعدة تمثاله : « ان الناقوس الذى ستسمعونه يدق ليس مدعاة للانزعاج ، انه اشارة الهجوم على أعداء الأمة . ولكى نقهرهم يجب ان تكون لدينا الجرأة أيها السادة ، ومزيدا من الجرأة ، والجرأة دائما ، بالجرأة وحدها تنقذون فرنسا ! » لا تدل على شيء ، أكثر من انتقاد وطنيته .

ومع ذلك فدانتون لم يستمر طويلا فى منصب « الوزير » فقد خلفه جارا Garat فى منصبه . فى ١١ أكتوبر ١٧٩٢ ، ولم يعرف كيف يعلق على هذا التغيير الا بقوله الساخر : « كل الناس تعرف ان رولان لم يكن وحده فى مكتبه ، أما أنا فكنت وحدى » . ولعله ندم على هذه السخرية المريرة ، فقد كان يعرف انه ليس له أعداء صرحاء ، بين جماعة الجيرونديين الا مدام رولان وزوجها اللذان كانا يعتقدان بصدق ان مارا وروبسيير ودانتون كانوا عصابة من الفوضويين المغموسين فى مذابح سبتمبر .

والمؤرخون مجمعون على ان صيف ١٧٩٢ كان من أهم الفترات فى تاريخ دانتون على المستوى الشخصى لانه الصيف الذى عين فيه

وزيرا واستطاع فى أسابيع قليلة أن يسدد ثمن مكتبه القانونى ،
وبذلك يتحرر من عبء مديونيته . كذلك فهناك اجماع بين المؤرخين
على أن ١٧٩٣ كانت من أهم فترات حياته على المستوى السياسى ،
سياسة اللعب على الحبلين ، حبل الجيرونده وحبل حزب الجبل ،
بما أفقده اعتباره عند روبسبير واليعاقبة ، وقاده فى ربيع ١٧٩٤
ان يفقد رأسه على المقصلة .

فى ٢٩ مارس ١٧٩٤ أعدم المؤتمر الوطنى هيبير وزعماء
الصان كيلوت وبذلك تحرر من ضغط جماهير باريس . ولكن
الجمعية أصدرت قرارا فى ١٩ مارس بمحاكمة فابر ديجلانتين
Fabre d'eglantine وشابو Chabot ، وباسير Basire
وديلونى Delaunay ، لتورطهم فى فضيحة تزوير مستندات
تصفية شركة الهند الشرقية . وكان السؤال الكبير هو : ماذا
سيفعل دانتون لانقاذ زملائه (أو شركائه ؟) وبعدها بأيام قليلة
(أى فى ٣١ مارس ١ٷ٩٤) ، قبض على دانتون وكاميل ديمولان
ودى لاكروا وفيليو . هذا هو الزعيم الذى كان دائما يعتقد انه
لا يمكن ان يمسه أحد .

واتهم دانتون بكل تهمة سياسية الا خراب الذمة .

اتهمه روبسبير بمناصرة ميرابو والملكيين الدستوريين ودوق
أورليان والجيرونده ، واتهمه بمعارضة اعدام الملك ، وكذلك اتهمه
بتهمتين ثابتتين من تهم الثورة المضادة ، وهما مساعدة ديموريز
على انقاذ الجيش البروسى والتآمر معه فى ربيع ١٧٩٣ على حل
المؤتمر الوطنى . وطفحت آثار الغيظ المكبوت أثناء المحاكمة :
وضحك دانتون عند ذكر كلمة (الفضيلة) قائلا انه ليست هناك
فضيلة أكبر من (الفضيلة) التى يريها لزوجته كل ليلة .

وقبل القبض عليه أشار عليه بعضهم بالهرب ولكنه علق

بقوله : « نحن لا نستطيع ان نحمل تراب الوطن على نعل حذاءنا » .
فلما قبض عليه وسئل على عادة المحاكم عن اسمه وعنوانه أجاب
فى مرارة : « ان صوتى الذى طالما جلبل دفاعا عن الشعب . .
لن يجد صعوبة فى دحض مفتريات خصومى . فهل يجسر الجبناء
الذين يفتابوننى ان يواجهونى بالاثهام ؟ فليسفروا عن وجوههم ،
ولسوف أكسوهم بالعار الذى يستحقونه بطبعهم . لقد قلت من
قبل ان مسكنى سوف يكون عاجلا هو النسيان وعنوانى هو
البائتيون (مقبرة الخالدين) ، وأنا هنا أكررها . . وهذا رأسى
ليجيب عن كل شيء . . ان الحياة أصبحت عبثا على ، وأنا أستقبل
الموت بصبر نافذ » .

١٩ - ماكسيميليان روبسبير (Maximilien Robespierre)

إذا كانت هناك شخصية من شخصيات الثورة الفرنسية تجسد تلك الثورة تجسيدا كاملا فهي شخصية روبسبير . كانت تجربة سييز Sieyes مع الثورة أطول ولكنها كانت أقل عمقا ، وقد قضى روبسبير ١١ عاما بكلية لوى لوجراند أى لويس العظيم ، وهي كلية جزوتيه بباريس بموجب منحة دراسية طويلة وفي أثناء سنوات الدراسة فى كلية لويس العظيم كانت له زمالات لا صداقات لأنه كان تلميذا مبتعدا . وكان من أبرز زملائه فريرون Freron وكاميل ديمولان Camille Desmoulins وكان انطوائيا كثير التلثم ، وكان متأنيا فى الخطابة ، دائم التنقيح لخطبه .

ثم عاد روبسبير الى أراس ، مسقط رأسه ، حيث اشتغل قاضيا جنائيا فى الابروشية ولكنه استقال من عمله عام ١٧٨٢ لأنه كان مطالبا باصدار حكم بالاعدام .

● نشرت بجريدة الأهرام

بتاريخ ١٩٣٠/٦/٣٠ .

ولد روبسبير في أراس في ٦ مايو ١٧٥٨ وماتت أمه في ١٧٦٧ ، وهجر أبوه البيت في نفس السنة ، وكان لروبسبير يومئذ من العمر تسع سنوات ، فكانه نشأ يتيما أو شبه يتيم . وفي ١٧٧٠ التحق بكلية لويس العظيم بباريس ، وهو في الثانية عشرة من عمره بمنحة ضئيلة قدرها ٤٥٠ جنيه سنويا .

واشترك في المسابقات الأدبية لغاية ١٧٨٥ ، وفي ١٧٨٩ كتب بيانا الى سكان الريف وانتخب في ١٧٨٩ عضوا في مجلس الطبقات من مدينة أراس ، وفي ١٧٩٢ عين في وظيفة المدعي العام لمحكمة باريس وأصدر « محامي الدستور » وفي سبتمبر من نفس العام انتخب نائبا عن باريس في المؤتمر الوطني . وفي يوليو ١٧٩٢ انتخب عضوا في لجنة الانتقاذ الوطني منذ بداية عهد الارهاب وادت اتهاماته الى سقوط دانتون في ابريل ١ٷ٩٤ . وفي يونيو ١٧٩٤ اعتكف ستة أسابيع ، وفي ٢٦ يوليو ١٧٩٤ ألقى خطابه الأخير وكانت ادانته في اليوم التالي « ٢٧ يوليو ١٧٩٤ » . وفي ٢٨ يوليو أعدم على المقصلة ، وكان عمره ٣٦ سنة .

وفي الجمعية التأسيسية اكتسب روبسبير بالتدريج سمعة طيبة بين الالف ومائتي عضو بسبب دأبه على العمل وبسبب كثرة تنقيحه لخطبه . ولكن الصحافة لم تكن كريمة معه ، وكانت كثيرا ما تغفل ذكر اسمه أو تتعمد تحريفه لأحراجة وتجلى ذلك من عزلته السياسية ثم نزوعه الى الارهاب . وبعد شهور من الدأب والمثابرة بدأ النواب ينصتون اليه ، وكانت قوته في دأبه على العمل وفي إخلاصه وفي طهارة يده . قال عنه ميرابو : « هذا الرجل سيصل بعيدا . انه يؤمن بما يقول » . وكان دائما ينحاز للفقراء فيجمع الفقراء من حوله وكان روبسبير يؤمن بجان جاك روسو ايمانا أعمى بينما كان بقية أعضاء الجمعية التأسيسية يناورون ويبحثون عن الحلول الوسط ، أما الجماهير فكانت مفتونة به ولكنها كانت تخشاه

لأنه كان يعرف عنها وعن نقاط ضعفها التي ، يمكن استخدامها ضدها .

المهم انه عند حل الجمعية التأسيسية كانت شعبية روبسبير قد بلغت مداها في سبتمبر ١٧٩١ وسماه الناس رجل الساعة . وكان له وجه قطة أليفة أن غضبت تجلت تحتها ملامح النمر الكاسر . وكان هناك تناقض شديد بين مظهره ومخبره فبالرغم من انه كان زعيم الصان كيلوت الا انه كان دائما شديد العناية بهندامه وشعره الذي كان دائما يضع عليه البودرة رغم ان هذه الموضة الارستقراطية كانت قد انتهت . وكان دائما يلبس نظارات ملونة خضراء .

وبعد حل الجمعية التأسيسية في سبتمبر ١٧٩٢ زار روبسبير أراس ، فوجد مظاهرة في استقباله خارج المدينة حتى الارستقراط الذين لم يكونوا يحملون له ودا خاصا أضاءوا له قصورهم . ومدام رولان أرسلت اليه تحياتها بعد ان غادرت باريس وعادت الى الأرياف . وبعد موت ميرابو لم يكن هناك من يجادل في زعامته للشوار .

وقد مر روبسبير بأزميتين كبيرتين في حياته : الأولى كانت حين نشرت أجزاء من خطاب له عن موضوع المساواة الدين تقرر إبعادهم لأنهم رفضوا أداء يمين الولاء لدستور الكنيسة المدني ، الذي استحدثته الثورة في حين كان روبسبير متحمسا للتشريع الثوري ، رغم انه كان يرى ما يراه روسو من ان الدين مهم لأنه لبنة هامة في بنيان المواطنة . والأزمة الثانية كانت وقوفه وحده معزولا في رفضه للحرب ضد القوات الأجنبية القادمة لاختماد الثورة، مما جعله يقف موقفا سلبيا في شتاء ١٧٩١ وصيف ١٧٩٢ . ولكنه صحح موقفه بذلك بالمزايدة في الوطنية على بريسو Brissot ودعاة الحرب . وبدأت معالم الدكتاتورية تظهر في خطبه في مثل قوله le faut une volonte une أي « نحن بحاجة الى ارادة

وأخذه ، وأخذة « ، ولا سيما بعد اعدام الملك ، وخرج بتظريته القائلة بأن أخطار الفوضى أقل ضررا من أخطار الأوليغاركية ، وأن سيادة الشعب تجب تشكيلات العدالة ٠ وفي ٣ ديسمبر اعترض على اقتراح الجيروندي بالرجوع الى الشعب أو الاستفتاء على اعدام الملك « ٢٨ ديسمبر » لأنه يبلبل الخواطر ويشجع المعارضة . ثم جاء اقتراحه في ٢٤ أبريل بتحديد الملكية لصالح الفقراء . كل هذه كانت اتجاهات عند روبسبير تدل انه كان ينفض عنه ليبراليته الأولى ويفكر في اقامة عهد الارهاب .

حتى هذه المرحلة كان روبسبير في المعارضة . وبازاحة الجيروندي أصبح مطلق اليد في فرنسا . وبالنسبة لنواياه فقد كانت صريحة وقد عبر عنها في تقرير ٥ فبراير ١٧٩٤ . تساءل روبسبير : « ما هو هدفنا ؟ أن نعم في هدوء بالحرية والمساواة ونعهد العدالة الأبدية المنقوشة قوانينه ، لا على الرخام أو الحجر ، بل في قلب كل رجل ، حتى العبد الذي ينسى ان له حقوقا والطاغية الذي ينكر هذه الحقوق ، نريد اقامة نظام من الأشياء تغل فيه كل العواطف الوضيعة والقاسية وتوقظ القوانين كل العواطف السخية والكريمة ، ويصبح الطموح هو العمل في سبيل مجد الوطن وخدمته ، بحيث لا تكون هناك امتيازات الا الامتيازات المؤسسة على قاعدة المساواة . نظام يطبع فيه المواطن القاضى ويطبع فيه القاضى الشعب ويطبع فيه الشعب حكم العدالة الذى تضمن فيه البلاد ومجدها ، وتزداد كل نفس نبلا بالاشعاع المستمر للمشاعر الجمهورية وبالحاجة الى تقدير شعب عظيم ، فيه تتجمل الحرية بالفنون ، وتكون التجارة فيه مصدر الثراء وليس مجرد التكديس البشع لثروات قليلة خاصة . نحن نريد أن نستعوض فى بلادنا بالأخلاق بدلا من الأنانية ، وبالأمانة بدلا من الاطماع ، وبالمبادئ بدلا من التقاليد ، وبأداء الواجب بدلا من الجرى وراء الربح ،

وبالحزف من الرذيلة بدلا من الخوف من الحظ العائر . نريد أن
نضع الكبرياء مكان الوقاحة والقلب الكبير مكان الغرور وحب
المجد مكان حب المال . نريد أن نحل ضحبة الخير محل الضحبة
الجميلة ، وأن نخل الجدارة محل القدرة على التآمر ، والعبقريّة محل
الذكاء اللامع والصدق محل ذراية اللسان ، والسعادة محل اللذة ،
وعظمة الانسانية محل ما يسمونه شعبا ودودا تاعضا ، ونحل محل
رذائل الملكية وحماقاتها فضائل الحكومة الجمهورية
ومعجزاتها . باختصار نقن نريد أن نحقق عهود الطبيعة لسبني
الانتماء ونفي بعهود الفلسفة ونبرئ الذم من حكم مرير في الجرائم
والطغيان عسى فرنسا التي كانت سيئة السمعة بسبب انتشار
العبودية فيها ، يسبط فيها الآن نور الحرية فيكشف ضياؤها مجد
سائر الشعوب الحرة في التاريخ ، وتصبح نموذجا للشعوب ، بل
وتصبح « بعبعا » يخيف الطغاة وتصبح العزاء المائل للمسحوقين
في الأرض . يجب أن تصبح فرنسا جوهرة الكون . وعسى أننا
ونحن نعهد لعملائنا بدمنا أن نرى على الأقل الشعاع الأول للسعادة
الحميمة . ذلك هو أملنا وتلك هي غايتنا .

ومن يتأمل أسلوب هذا الكلام يجده أشبه شيء بأسلوب
الوعاظ الجزويت القائم على التوسع في استعمال المتناقضات اللفظية
والمعنوية ، وصدق من قال أن روبسبير كان يغزل خطبه على طريقة
شغل الابرّة اسوة بجمهوره من النساء .

وكيف يمكن أن يحقق كل هذه الأحلام ؟ بالديمقراطية المؤسسة
على الفضائل العامة ، وهي أول ديمقراطية حقة رأها العالم : بحكومة
تثق في الطبيعة الخيرة لبنى الانسان : « الفضيلة التي بدونها يصبح
الارهاب كارثة ، والارهاب الذي بدونه تصبح الفضيلة عاجزة » .
الى أى مدى كان روبسبير نفسه قادرا على تحقيق ذلك ؟ كانت
حكومة الثورة تقوم على أربع مؤسسات هي المؤتمر الوطنى واللجان

وممثلى اللجان المفوضين ومحكمة الثورة . وفى المؤتمر الوطنى لم يكن روبسبير أكثر من الرئيس الخامس والعشرين ، فهو لم يكن قويا بحيث يستطيع ان يملأ ارادته أو أن يملأ سياسته ولكن وضعه فى لجنة الخلاص الوطنى جعل من الصعب معارضته ولاسيما كلما اندمجت معها لجنة الأمن العام كما حدث فى محكمة هينير Hebert دانتون Danton فقد كان روبسبير المتحدث الرسمى للجنةين معا . كان كارنو Carnot وسان جوست Saint-Just وكوتون Couthon وميسوفارين Billaud Varenne كولوديربوا Collot-D'Herbois يمثلون الجانب السياسى فى هذه اللجنة ، كما أثبت اعدام سيسيل رينو Cecile Renaut الفتاة التى اتهمت بمحاولة اغتيال روبسبير وجعلته ينتقل من شقته فى ١٧ يوليو ١٧٩١ ليقيم فى منزل دوبلاى Duplay فى حى سانت أتوريه . وكان لدوبلاى أربع بنات من الينور وصوفيا وفكتوريا واليزابيت ، وكلهن قائمات مع الأم على خدمة روبسبير . وجاء ذكر الزواج فاقترح أحد الحاضرين ان طول العزوبية قد جعل من روبسبير رجلا فظا واجدى به ان يتزوج بنتا من بنات دوبلاى ، فانتفض روبسبير غضبا وقال : « أنا لن أتزوج أبدا » أى Je Me me mariérai jamais

ورغم ان روبسبير لم يكن قط دكتاتورا فمن العبث ان يقال انه كان يابى ان يكون كذلك . وفى ٧ مايو ١٧٩٤ كتب روبسبير تقريره المشهور الذى أدخل به عبارة « الكائن الاسمى » وسماه « تقرير عن العلاقة بين الدين والأفكار والمبادئ الجمهورية » وفيه يستعرض روبسبير التقدم من « حكم الجريمة الى حكم الفضيلة » قائلا : « لقد أنجزنا نصف برنامج الثورة العالمية : « ومن ذا الذى فوضكم ان تعلنوا للناس انه ليس هناك شئ الهى . . وماذا يستفيد الانسان لو اقتنع بأن قوة عمياء تسيطر على مقدراته ، وتضرب عشوائيا فى كل اتجاه : أنا بالفضيلة وأنا بالجريمة ؟ أو

أن روح الإنسان مجرد بخار خفيف يتبدد عند فتحة القبر ؟ وهل فكرة تلاشي الإنسان ستوحى له بأشياء أشد نقاء من فكرة خلوده ؟ هل ستزيد من احترامه لنفسه ولأخوته في الإنسانية أو تحفز به إلى ولاء أكبر لوطنه ؟ هل ستزيد من صلابته في مواجهة الطغيان أو تعمق احتقاره للملذات أو للموت ؟ « حتى القول بوجود الله وخلود الروح ، ستكون أجمل ما ابتكره عقل الإنسان .

وبهذا يكون روسو صادق الوعد نبيا . وهو يصرخ فينا : « أيها المتعصبون ! ليس لدينا ما نعطيكم لكم ! ان دعوة الناس من جديد إلى عبادة الكائن الاسمي فيه الضربة القاضية للتعصب . وأمام العمل تتهاوى كل الحماقات في نور الحقيقة . فبلا اكراه وبلا اضطهاد تندمج كل الطوائف في ديانة الفضيلة » ومع الطائفية ينتهي الكهنوت أيضا : فالطبيعة هي الكائن الاسمي ، ومعبدته هو الكون ، وعبادته هي الفضيلة ، وأعياده تتمثل في السعادة التي يطفح بها شعب عظيم اجتمع تحت بصره ليجدد روابط الاخوة الشاملة الجميلة وليقدم فروض الولاء التي تكنها القلوب النقية الحساسة ، والخلاصة : يجب أن يعلن المؤتمر الوطني : « ان الشعب الفرنسي يعترف بوجود الكائن الاسمي وبخلود الروح » . ويجيز ديانة مقامة من الدولة على هذا الأساس .

ولكن روبسبير تجاوز كل ذلك وبدأ يندد بالالحاد كلما تكلم عن دانتون وهيبير ، وتحول من كاهن أعلى إلى رئيس لمحكمة التفتيش في نظام بيوريتاني مغلق يكره الناس على الذهاب إلى الكنيسة كل يوم أحد على طريقة المطوعين بل ما هو أقسى . وقد أوحى روبسبير باقتراح هاية فترة سلطته ففهم الناس أنه يتكلم عن مزيد من الاعدادات . وفي آخر خطاب له في ٨ ثرميدور علم روبسبير ان حياته يهددها تحالف بين لجنة الأمن العامة ولجنة الخلاص الوطني : يهددها فادييه Valieh واعداء رجال الدين ، ويهددها فوشينه

Fouchet الذي كان ضالعا في دعاية شوميت Chaumette المناهضة للكاثوليكية ، ويهددها كارنو Carnot الذي تشاجر مع سان جوست ، ويهددها ديربوا d'Herbois collot وبيوفارين Billiaud varenne اللذان سبق ان فصلهما روبسبير من نادى اليقابة ، ويهددها تاليان l'allien الذي كانت عشيقته مهددة بالموت على المقصلة ، ويهددها حزب يرأسه بارا Barras وميرلان Merlin وكورتوا Courtois من داخل المؤتمر الوطنى .

وبالنصر الأخير فى فلوريس Fleurus زال كل خطر عن البلاد ، فلم يعد هناك مجال لارهاب الناس . وتراجع روبسبير وأنكر ان فى نيته اقامة حكم دكتاتورى فى فرنسا ، ولكنه أصر فى الوقت نفسه على ضرورة تطهير لجنة الأمن العام ولجنة الخلاص الوطنى . ونشط اعداء روبسبير فلم تمض ٢٤ ساعة الا وكان روبسبير مقبوضا عليه . لقد كانت الكثرة الضاربة التى يعتمد عليها روبسبير هى الحرس الوطنى بقيادة هنريو Henriot ولكن هنريو كان يومئذ سكران ورجاله لم ينتظروه تحت المطر فى ذلك اليوم عند الهوتيل دى فيل . وفجأة غزا جنود المؤتمر الوطنى الهوتيل دى فيل وهنا اخرج روبسبير مسدسه وافرغه فى حلقه ولكنه لم يمت بل بقى ممدا بين الموت والحياة على المائدة التى وقع عليها الحكم باعدام هيبيرو دانتون ومن الساعة ١١ الى الساعة ٤ سجن مع سجنائه فى الكونسير جرى . وفى الرابعة طافوا به فى الشوارع على عادتهم . وكان الجمهور الذى ينبغى ان يخف لنجدته يحملق ويهتف ، وفى الساعة سقطت رأسه تحت الجيلوتين . وهذه قصة رجل نظيف اليد عاش فقيرا ومات فقيرا . وهكذا كانت سمعة : « الرجل الذى لا سبيل الى افساده » . وكان به عيبان : انه كان يحب الملق أو على الأقل أن يتحدث الناس عن فضائله .

الارهاب الأعظم بدأ بقانون ٢٢ بريريال - Prairial
فى السنة الثانية من التقويم الجديد « ١٠ يونيو ١٧٩٤ » فى أول
بريريال ٢٠ مايو ١٧٩٤ نظف كولو ديربوا Collet d'Herbois
سلاحاً انطلقت منه اعيرة نارية وفى ٤ بريريال « ٢٣ مايو » قبض
على سيسيل رينو Cicile Renault التى بدا انها كانت تريد
اغتيال روبسبير . وأكدت سيسيل معاداتها للثورة وكشفت عن
استمرار الثورة المضادة وعن وجود « المؤامرة الاستقرائية » .
واستنهضت موجة ارهابية أقسام باريس . قال كوتون Couthon
ان الارهاب أصبح شيئاً بسيطاً وأعلن « ان الأمر لا يقف عند اعطاء
بعض الأمثلة ، ولكن يجب سحق اذنان الطغيان الذين لا يهدأون » .
وهكذا أصبحت المحاكمات شكلية .

ومن مارس ١٧٩٣ اعدم فى باريس وحدها لغاية ٢٢ بريريال
(مايو) فى السنة الثانية من التقويم الجديد وعلى الجيلوتين منذ
صدور قانون الارهاب الأعظم ١٣٧٦ و حتى ٩ ثرميدور (يولية)
أعدم فى سجون باريس ١٢٥١ سجيناً « فى بيستر Bicetre
ولكسمبورج Luxembourg وكارم Carmes وسان لازار San Lazare
وكانت الرؤوس تهاوى كالاردواز كما قال فوكيه تانفيل
Fouquier-Tinville المدعى العام وقد بلغ عدد المقبوض عليهم نحو
١٠٠.٠٠٠ ، وفى بعض التقديرات ٣٠٠.٠٠٠ . وبلغ عدد من نفذ
فيهم حكم الاعدام بين ٣٥.٠٠٠ و ٤٠.٠٠٠ ويشمل هذا العدد من
اعدموا دون محاكمة كما فى طولون ونانت . ووفقاً لهذا التقدير بلغ
عدد المحكوم عليهم بالاعدام ١٦.٥٩٤ من مارس الى سبتمبر ١٧٩٣
سجينا ، ومن أكتوبر ١٧٩٣ الى مايو ١٧٩٤ ، ١٠.٨١٢ وفى يونيو
ويوليو ١٧٩٤ : ٢.٥٥٤ ، وفى أغسطس ١٧٩٤ : ٨٦ حكماً بالاعدام .
أما التوزيع الاقليمى فهو كالاتى : فى باريس ١٦٪ ، و ٧١٪
فى منطقة الحرب الأهلية ، منها ١٩٪ فى جنوب شرق فرنسا و ٥٢٪

فى غربها واما طبقية فالتوزيع كالاتى : ٨٤٪ من الطبقة الثالثة « البورجوازيون ٢٥٪ ، الفلاحون ٢٨٪ ، الصان كيلوت ٣١٪ » ويلاحظ ان نسبة النبلاء الذين اعدموا لم تتجاوز ٨٥٪ أما رجال الدين فالنسبة هى ٦٥٪ .

« المساواة فى الملكية وهم باطل » هكذا قال روبسبير فى المؤتمر الوطنى فى ٢٤ ابريل ١٧٩٣ « وقد ادان « القانون الزراعى » الاشتراكية فى الملكية الزراعية . وقبل ذلك اصدر المؤتمر الوطنى قانون فى ١٨ مارس ١٧٩٧ يقضى باعدام كل من يدعو الى الاشتراكية والقضاء على الملكية الزراعية . ولكن روبسبير وحزب الجبل بوجه عام كانوا ضد الثراء الفاحش باعتباره مصدر الجرائم .

وفى تصورى ان مأساة روبسبير نبعت من انه تصور انه نبى وانه يكفى ان يبدل الاسماء التى استقرت فى الوجدان العام حتى يصدق الناس انه اتى بجديد ، وهو لم يات بجديد . فتاريخ الأديان الراقية منذ الفراعنة يثبت ان المقولات الأساسية لن تتغير بل لعلها اشتدت رسوخا مع الأيام . فما يسميه روبسبير بالكائن الاسمى هو ما يسميه رجل الشارع « الله » وقد زعمت عبادة « الكائن الاسمى » اعطاء قاعدة ميتافيزيقية لخطب روبسبير الذى كان يمقت الفلاسفة الملاحدة من أمثال هلثيوس Helvius الذى حطم روبسبير تمثاله النصفى فى نادى اليعاقبة وكان يمقت مادية كوندياك وكان عاجزا عن تصور المقولات الدينية عن طريق الحواس لأنه كان يؤمن بوجود الله وبوجود الروح وبالعالم الآخر .

وفى ١٨ فلوريال من السنة الثانية من التقويم الثورى قرر المؤتمر الوطنى « ان الشعب الفرنسى يؤمن بوجود الكائن الاسمى وبخلود الروح » وتحدد يوم ٢٠ بريريال من السنة الثانية من التقويم الثورى « ٨ يونيو ١٧٩٤ » للاحتفال بهذه المناسبة وسار الموكب المهيب من حدائق التويلرى الى الشان دى مارس على انغام .

موسيقى مهيبة . ولكن ذلك سبب صدعا في حكومة الثورة لأن العلمانيين لم يغتفروا لروبسبير قانون ١٨ فلوريال من السنة الثانية من تقويم الثورة ، وكان بالطبع أكثرهم عداوة له دعاة اقتلاع المسيحية في فرنسا .

وفي ٨ ثروميدور « ٢٦ يوليو ١٧٩٤ » هاجم روبسبير في المؤتمر الوطني أعداءه وحملهم المسئولية ووصفهم بأنهم منفقون ولكنهم في حقيقة الأمر متشددون . غير أنه رفض ذكر أسماء أشخاص بالذات ، وفي المساء كان روبسبير يصفقون له في نادي اليعاقبة ، وكانت اللجنة قد انفرط عقدها وهي في حيرة من أمرها . وكانت المؤامرة قد حيكت خيوطها أثناء الليل . وفي ١٠ ثروميدور « ٢٨ يوليو ١٧٩٤ » قبض على روبسبير وسان جوست وكوتون و ١٩ من أنصارهم وأعدموا دون محاكمة ، وفي اليوم التالي أعدم ٧١ آخرون من أنصارهم وهي أكبر دفعة سيقت إلى الجيلوتين في منطقة واحدة . وانتهى هنريو Hanrio قومندان الحرس الوطني وعلى ديماس رئيس محكمة الثورة وبين ١٨ ثروميدور و ٢٣ ثروميدور أفرج عن نحو ٥٠٠ معتقل من المشبوهين .

أطلق أعداء روبسبير عليه نائبا مغمورا اسمه لوتشيه طالب بإعدامه وأقر الاقتراح بإجماع الآراء .

عجيب أمر هؤلاء الثوار ، فالتقويم الثوري من وضع فابر ديجلنتين وهو من مواليد كاركاسون على الحدود الفرنسية الإسبانية عام ١٧٥٠ وفي ١٧٧١ دخل في مسابقات في تولوز ثم بدأ السفر مع الفرق المسرحية بين ١٧٧٢ و ١٧٨٧ وفي ١٧٨٧ استقر في باريس . وكان يمثل دور فيلانت الموليير عام ١٧٩٠ وفي ١٧٩٢ اشتغل سكرتيرا لدانتون أيام أن عين وزيرا للعدل . وعين عضوا في لجنة الخلاص الوطني حتى ١٧٩٣ ثم أعدم في ١٧٩٤ مع دانتون وعمره ٤٤ سنة لاشتراكه في تزوير صكوك شركة الهند بعدما وضع التقويم الجمهوري وقدمه للمؤتمر الوطني ونجح في إجازته .

واقترح على المؤتمر الوطنى الغاء التقويم المسيحى ، فكل شهر فى التقويم الثورى مكون من ٣٠ يوما تبدأ فى ٢٢ سبتمبر وهكذا تبدأ السنة فى : ٢٢ سبتمبر شهر التخدير وأصبح اسمه فاندميير Vendemiaire ، ٢٢ أكتوبر شهر الضباب وأصبح اسمه برومير Brumaire ، ٢٢ نوفمبر شهر الصقيع وأصبح اسمه فريمير Frimaire ، ٢٢ ديسمبر شهر الثلوج وأصبح اسمه نيفوز Pluviose ، ٢٢ يناير شهر المطر وأصبح اسمه بلوفيز Ventose ، ٢٢ فبراير شهر الرياح وأصبح اسمه فنتوز Germinal ، ٢٢ مارس شهر البراعم وأصبح اسمه جيرمينال Floreal ، ٢٢ مايو شهر المراعى وأصبح اسمه بريريال Prairial ، ٢٢ يونيو شهر المحصول وأصبح اسمه مسيدور Messidor ، ٢٢ يوليو شهر الحرارة وأصبح اسمه ثرميدور Thermidor ، ٢٢ أغسطس شهر الفاكهة وأصبح اسمه فروكتيدور Fructidor .

وأقر المؤتمر هذا التقويم فى ٥ أكتوبر ١٧٩٣ وكان القصد من ذلك الغاء التقويم المسيحى .

ومع ذلك فلم تمضى الا أربعة شهور الا وكان فابر ديجلانتين مقبوضا عليه ومتهما بتهمة مشينة هى التزوير فى صكوك شركة الهند المزمع تصفيتها وبهذا أصبح طريقه الى المقصلة واضحا ووجيزا ورغم هول قانون فابر ديجلانتين من وجهة نظر روبسبير الذى لابد وانه ازدرده كالعقم لأنه ينطوى على حرب العقائد بين مختلف أجنحة الثورة الفرنسية لم نسمع أحدا يقول : الغوا التقويم الكافر أولا ثم تعالوا بعد ذلك فتجاسب : لأن القانون هو القانون : وفابر ديجلانتين لاشك كانت معه أغلبية فى المؤتمر الوطنى حتى فاز قانونه « المدنى » بالأغلبية الملزمة . وبالفعل مضى على اصدار هذا القانون عشرة أعوام حتى أعيد فتح ملفه وأعيد النظر فيه . أجل ان لهم عقلية تختلف عنا كل الاختلاف : فهم عقلية قانونية عملية .

فهرس

الموضوع	صفحة
تصدير	٢
١ - سقوط الباستيل	٥
٢ - الباستيل	١٧
٣ - مجلس الطبقات	٢٩
٤ - ميرابو	٤٣
٥ - النظام الاقطاعي	٥٥
٦ - ثورة الفلاحين	٦٧
٧ - زواج فيجارو أو حق الليلة الأولى	٧٩
٨ - اعلان حقوق الانسان والمواطن	٩١
٩ - الملكة رهينة	١٠٧
١٠ - عيد الاخاء الفيدرالى	١١٩
١١ - لافاييت المركز المذبذب	١٣١
١٢ - فارين : هروب الملك واعدامه	١٤٥
١٣ - الاصرار	١٥٩
١٤ - الحرب والحرب الأهلية	١٧٣
١٥ - لويس السادس عشر	١٨٥
١٦ - مارى أنطوانيت	١٩٥
١٧ - جان بول مارا	٢٠٩
١٨ - جورج دانتون	٢٢٣
١٩ - ماكسميليان رويسبير	٢٣٥
	٢٤٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩٨١٨/١٩٩١

ISBN - 977 - - 01 - 2927 - 5

لقد شاء لويس عوض قبل أن تسقط أوراق عمره أن يودعنا بهذا الكتاب الرائع الذى بين أيدينا عن الثورة الفرنسية . وهو كتاب إن دل على شيء فإنما يدل على أن صاحبه ليس أديبا أو ناقدا بارزا فحسب ولكنه مؤرخ أيضا من طراز فريد . والذى لا شك فيه أن لويس عوض واحد من أهم رواد التنوير فى العالم العربى فى النصف الثانى من القرن العشرين .

عاش لويس عوض أديب مصر الكبير ومات ثائرا فما أشبه الليلة بالبارحة . بدأ حياته بالترجمة عن سيد الثوار الرومانسيين جميعا برسى شيلى صاحب التحفة الأدبية المعروفة « برومتيوس طليقا » وها هو يختمها بالكتابة عن الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ، بمناسبة ذكرى مرور مائتى عام على قيامها واحتفال فرنسا بهذه الذكرى العزيزة عليها .

والجدير بالذكر أن آخر عبارة سطرها الراحل العظيم قبل وفاته كانت دفاعا مخلصا وشريفا عن ضرورة سيادة القانون والعدل فى كل مكان .

To: www.al-mostafa.com